Voyage au centre
De la Terre
Jules Verne

رحلة إلى مركز الأرض

رواية

تأليف: جول فيرن.

ترجمة: حسام أبو سعدة.

طبعة ٢٠٢٠

فيرن، جول ١٨٢٨ - ١٩٠٥

رحلة إلى مركز الأرض؛ رواية/ جول فيرن - ترجمة حسام أبو سعدة-
الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩ .

٣١٢ ص, ٢٠ سم

تدمك: ٦ ٧٧٨ ٣٩٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص الفرنسية

أ- أبو سعدة - حسام (مترجم) ب- العنوان

٨٤٣

Voyage au centre
De la Terre
Jules Verne

رحلة إلى مركز الأرض

رواية

تأليف: جول فيرن.

ترجمة: حسام أبو سعدة.

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٩/١١٨٠٣

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٧٨-٦

الطبعة الاولى

طبعة ٢٠٢٠

الكتاب : رحلة إلى مركز الأرض

المؤلف : جول فيرن - ترجمة حسام أبو سعدة

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

(١)

يوم الأحد ٢٤ مايو ١٨٦٣، عمى البروفوسير «ليدنبروك» يتجه إلى منزله القديم رقم ١٩ من شارع «كونجستراس»، أحد أقدم الشوارع فى الحى العتيق فى «هامبورج».

اعتقدت الخادمة «مارت» أنها تأخرت كثيرًا لأن الطعام مازال فى الفرن و لم ينضج بعد. قالت لى:

- حسنًا، لو كان عمك جائعًا سيصرخ فى عصبية يتعجل الغداء.

فى الحقيقة عمى هو أكثر الرجال تعجلاً.

صرخت تحدث نفسها فى ذهول و هى تفتح باب حجرة الطعام:

- الطعام لم ينضج بعد سيدى «ليدنبروك».

قلت لها:

- لا تقلقى يا «مارت». لست مهملة، الساعة لم تصل إلى الثانية بعد. أجراس «سان ميشال» تشير إلى الواحدة و النصف.

- إذاً لماذا عاد الآن؟

- سيخبرنا عن السبب بالتأكيد.

- ها هو قادم! سأهرب سيد «أكسيل» و استمع أنت إلى السبب.

قالت ذلك ثم فرت هاربة إلى معملها المطبخى.

بقيت وحدى. لكن الحوار مع أكثر العلماء عصبية غير محتمل. لذلك أعددت نفسى للهرب إلى حجرتى الصغيرة فى الطابق الأعلى. لكن فُتح الباب الكبير المطل على الشارع و سمعت خطواته الثقيلة على السلم الخشبى و رأيت صاحب المنزل يتجاوز صالة الطعام و يتجه إلى مكتبه مباشرة.

أثناء هذا المرور السريع ألقى بعصاه إلى أحد الأركان و وضع قبعته الضخمة على المنضدة و قال لابن أخيه:

- «أكسيل»، اتبعنى.

قبل أن أتحرك صرخ البروفوسير فى عصبية شديدة:

- لماذا لا تأتى؟

هرعت إلى مكتب سيدى الرهيب.

«أوتو ليدنبروك» ليس رجلاً قاسيًا، أنا واثق من ذلك، لكنه مُتقلب المزاج و شديد العصبية. إنه يرتجف عند سماع أى صوت غريب.

إنـه يـدرّس فـى «جوهانيـوم»، يلقـى محاضـرات فـى علـم المعـادن، تثـور غضبتـه مـرة أو مرتـين أثنـاء المحاضـرة. لا يغضـب لأنهـم لا ينتبهوا إليـه بالقـدر الكافـى، لا يغضـب لأنـه لـم يحصـل علـى التقديـر الكافـى نتيجـة سـلوكه. هـذه الأمـور لا تشـغله أبـدًا. إنـه يلقـى المحاضـرات علـى نفسـه وفقًـا للمقولـة الفلسـفية الألمانيـة الشـهيرة «يدرّس لنفسـه و ليس للآخريـن». إنـه عالـم أنانـى، يحتفـظ بالأسـرار لنفسـه عندمـا يحـاول أحدهـم انتـزاع أيـة معلومـة منـه. بـكل بسـاطة إنـه بخيـل. يوجـد بعـض العلمـاء مـن هـذا النـوع فـى ألمانيـا.

عمـى، لسـوء الحـظ، لا يتحـدث بطلاقـة، إنـه انعزالـىُ. عنـد الحديـث فـى الأماكـن العامـة نكتشـف أنـه متحـدث سـىء جـدًا. أثنـاء محاضراتـه فـى «جوهانيـوم» يتوقـف برهـة، يجاهـد و يعانـى لكـى تخـرج الكلمـة مـن بـين شـفتيه. ثـم تخـرج الكلمـات غيـر علميـة و غيـر منمقـة أبـدًا. هـذا يثيـر غضبـه بشـدة.

فـى علـم المعـادن توجـد مصطلحـات نصـف يونانيـة و نصـف لاتينيـة يصعـب نطقهـا. هـذا يضاعـف مـن مشـكلته. لا أرغـب أن أعيب فـى هـذا العلـم طالمـا أنـه بعيدًا عنـى. لكن عندمـا أجـد نفسـى فـى مواجهـة المصطلحـات العلميـة المعقـدة أحـاول الحديـث معـه بأقـل عـدد ممكـن مـن الكلمـات.

إذاً، فـى المدينـة يعلمـون هـذه العيـوب عـن عمـى. يسـتدرجونه للحـوار فـى مثـل هـذه الأمـور ثم ينفجرون فى الضحك سـاخرين. هذا لـه إنطبـاع سـىء حتـى علـى الألمـان أنفسـهم. حتـى فـى المحاضـرات، المسـتمعون لا يأتـون إلا للسـخرية مـن «ليدنبـروك».

مهمـا كانـت عيـوب عمـى لكـن يجـب أن أعتـرف أنـه عالـم حقيقـى، أحيانًـا يحطـم العينـات و يفحصهـا بدقـة بعـين خبيـرة فـى المعـادن و علـوم الجيولوجيـا. يعمـل بمسـاعدة المطرقـة الصغيـرة والإبـرة الفولاذيـة و الإبـرة الممغنطـة، يعمـل بمسـاعدة الشـفاط وحمـض النيتريـك، إنـه صـارم جـدًا فـى عملـه. يفحـص العينـة مـن خـلال تشـققها، هيأتهـا، صلابتهـا، إنصهارهـا، مذاقهـا، رائحتهـا ثـم يحـدد نوعهـا بمنتهـى الدقـة مـن بـين السـتمائة نـوع مـن المعـادن المعروفـة حتـى الآن.

أصبـح اسـم «ليدنبـروك» يتـردد بـكل فخـر فـى المعاهـد و المحافـل الوطنيـة. السـيدة «هامفـرى دافـى» و «دى هامبولـت» و القبطانـان «فراكلـين» و «سـابان» يأتـون لزيارتـه أثنـاء مرورهـم بـ «هامبـورج». السـيدة «باكوريـل»، «ديمـاس» و «ميلـين إدوارد» يحبـون التحـاور معـه فـى أعقـد المشـاكل الكيميائيـة. لقـد قـدم اكتشـافات خطيـرة فـى الكيميـاء حتـى أنهـم اسـتدعوه إلـى «ليـزج» لإلقـاء محاضـرة عـن اكتشـافاته، و لـم يتلـق أى أجـر مقابـل ذلـك.

بالإضافة إلى كل ذلك، عمى هو مدير متحف المعادن الخاص بالسيد «ستروف» سفير روسيا، و هذا المتحف يحتوى على مجموعة قيمة و نادرة من المعادن.

هذا هو الرجل الذى يتعجلنى للمثول أمامه. تخيلوا رجل عجوز، نحيف، صحته من حديد، أشقر، يبدو أكبر من سنه عشر سنوات، إنه فى الخمسين من العمر الآن. عيناه الواسعتان خلف نظارته تراقب كل شىء. أنفه مستقيمة و صغيرة تبدو كأنها شفرة حادة، و يبدو أنها ممغنطة و تجذب قطع الحديد. لا يدخن إلا التاباك و هو شره فى التدخين.

عندما أضيف أن عمى يقوم ببعض الأبحاث البسيطة فى الرياضيات، و عندما أقول أنه يضم يديه بقوة أثناء السير، فهذه إشارة للتهور المؤقت، و هو يفتعل ذلك حتى لا يبدو ضعيفًا فى البلدة.

إنه يعيش فى منزله الصغير فى «كونجستراس»، نصف المنزل من الخشب و النصف الآخر من الطوب، له جملون مسنن، يطل على إحدى الترع التى تمر عبر أقدم أحياء «هامبورج».

المنزل القديم يميل قليلاً. هذه حقيقة. يميل نحو الشارع، يبدو كأن السقف يتدلى على أذنيه مثل قبعة «توجن بوند». نشك فى صموده لكنه فى الحقيقة متماسك بدرجة جيدة بفضل

الحديقـة الصغيـرة فـى الواجهـة المزروعـة بالأزهـار. هـذه الحديقـة تحمـى المنـزل مـن ريـاح الخريـف.

عمـى لا يبحـث عـن الثـراء لأنـه عالـم ألمانـى. المنـزل هـو كل ثروتـه. يعيـش مـع ابنتـه بالمعموديـة «جروبـن»، فـى السـابعة عشـر، الخادمـة «مـارت» و أنـا. لأننـى ابـن أخيـه و لأننـى يتيـم أصبحـت معاونـه فـى كل أبحاثـه.

أعتـرف أننـى أحـب علـوم الجيولوجيـا، حـب المعـادن يجـرى فـى دمـى و لا أمـل أبـدًا مـن صحبـة أحجـارى القيمـة.

بصفـة عامـة، نسـتطيع الحيـاة بسـعادة فـى هـذا المنـزل رغـم نفـاذ صبـر صاحبـه لأننـا اعتدنـا علـى التعامـل معـه. لكنـه لا يعـرف الانتظـار، متعجـل أكثـر مـن الـلازم.

فـى شـهر أبريـل غـرس بعـض النباتـات تحـت نافذتـه، و فـى كل صبـاح يخـرج ليجـذب النباتـات مـن أوراقهـا لتنمـو بسـرعة.

مـع رجـل كهـذا لا نسـتطيع إلا الطاعـة. لذلـك اتجهـت بسـرعة إلـى مكتبـه.

●●●

(٢)

هـذه الغرفـة هـى متحـف حقيقـى. تحتـوى عينـات مـن كل المعـادن المعروفـة. يلصـق بـكل عنايـة قطعـة ورق صغيـرة لترتيبهـا بدقـة متناهيـة حسـب التصنيـف الثلاثـى للمعـادن.

أعـرف هـذه العينـات جيـدًا، هـذه التحـف العلميـة! فـى أحيـان كثيـرة، بـدلاً مـن اللهـو مـع أترابـى أمضـى سـاعات طويلـة لأنفـض التـراب عـن هـذه الحجـارة، هـذا الفحـم، هـذه الجمـرات، هـؤلاء الأوغـاد. بعضهـا مـا هـو إلا زفـت أو قـار أو أمـلاح معدنيـة لكـن يجـب تنظيفهـا مـن أى ذرة تـراب محتملـة. هـذه العينـات تتـدرج مـن الحديـد إلـى الذهـب لكـن هـذا التفـاوت يختفـى أمـام المسـاواة المتعلقـة بقيمتهـا العلميـة. هـذه الحجـارة تكفـى لإعـادة بنـاء المنـزل الـذى يقيـم بـه بالإضافـة إلـى حجـرة جميلـة خاصـة لـى و سـأقوم بترتيبهـا بعنايـة فائقـة.

عنـدمـا دخلـت غرفـة المكتـب لـم أفكـر أبـدًا فـى هـذه التحـف. كان عمـى غـارقًـا فـى التفكيـر، يغـوص فـى مقعـده المخملـى يتأمـل الكتـاب الـذى بـين يديـه بإعجـاب شـديد. صـرخ:

- يـاله من كتاب!... يا له من كتاب!

هـذا الـكلام ذكرنـى أن البروفوسـير «ليدنبـروك» هـو أيضًـا مهووس بالكتـب، لكـن الكتـاب لا يسـاوى شـيئًا فـى نظـره إلا إذا كان نـادرًا أو غيـر مقـروء. لذلـك هتـف قائـلاً:

- حسـنا، ألا تـرى؟ هـذا الكنـز الـذى لا يقـدر بثمـن عثـرت عليـه هـذا الصبـاح فـى متجـر اليهـودى «هفليـوس».

أجبته و أنا أتصنع الدهشة:

- ياله من تحفة.

إنـه بالفعـل كتـاب قـديم جـدًا، أوراقـه الصفـراء تبـدو كأنهـا مصنوعـة مـن الجلـود الثقيلـة المنقوشـة بالألـوان. رغـم ذلـك إعجـاب البروفوسـير شـديدًا.

ثـم راح يتحـاور مـع نفسـه بصـوت عـال، يسـأل و يجيـب. انظـر، هـل هـو جيـد بالقـدر الكافـى؟ نعـم، إنـه كتـاب رائـع! التجليـد جميـل! هـل يُفتـح بسـهولة؟ نعـم لأنـه يظـل مفتوحًـا علـى أيـة صفحـة! لكـن هـل يغلـق جيـدًا؟ نعـم لأن هنـاك انسـجام تم بـين الغـلاف والـورق، الكتـاب فـى غايـة الإتقـان. لا يوجـد أيـة تجاعيـد فـى الكتـاب رغـم مـرور سـبعمائة عـام علـى وجـوده. هـذا مجلـد رائـع يفخـر بـه «بوزريـان» و «كلـوس» أو «بوجولـد».

كان عمـى يفتـح الكتـاب و يغلقـه و هـو يتحـاور مـع نفسـه بهـذا الأسـلوب. لـم أسـتطع فعـل أى شـىء سـوى السـؤال عـن محتـواه بينمـا، فـى الحقيقـة، هـذا لا يشـغلنى أبـدًا. حاولـت أن أبـدى الدهشـة والإعجـاب و أنـا أسـأله:

- ما هو عنوان هذا المجلد التحفة؟

أجابنى مبتهجًا:

- إنـه كتـاب «هيمـز كرينجـلا»، الكاتـب الأيسـلندى الشـهير فـى القـرن الثانـى عشـر. إنهـا أخبـار الممالـك النرويجيـة التـى كانـت تحكمهـا أيسـلندا.

جاهدت لأصرخ فى دهشة:

- حقاً؟ و لا شك مترجم إلى الألمانية؟

أجابنى بحدة:

- مترجـم! و مـاذا أفعـل بترجمتـه؟ مـا أهميـة الترجمـة؟ إنـه الكتـاب الأصلـى باللغـة الأيسـلندية، لغتهـم السـحرية ثريـة و بسـيطة فـى نفـس الوقـت. لديهـم قواعـد لغويـة و مترادفـات كثيـرة جـدًا.

قلت محاولاً الإبتهاج:

- مثل الألمانية.

أجابنى و هو يهز أكتافه:

- نعم، لكن اللغة الأيسلندية تعترف بالأنواع الثلاثة مثل اليونانية و تقدم الكلمة الحقيقية مثل اللاتينية.

قلت و أنا أحاول أن أبدو جادًا:

- آه! هل مواصفات هذا الكتاب جيدة؟

- مواصفات! من حدثك عن المواصفات أيها البائس «أكسيل»؟ مواصفات!.. آه، أنت تتحدث عن الطباعة! لكنك تجهل أن هذه المجلد، هذا المجلد رونى!

- رونى؟

- نعم، هل ستسألنى الآن عن معنى هذه الكلمة؟

قلت و أنا أتخذ هيئة الشخص المجروح فى كبريائه:

- سأحفظها جيدًا.

لكن عمى إستعاد هدوءه و راح يشرح لى، رغم أنفى، ما أجهله. قال:

- إنها الحروف الهجائية التى كانت مستخدمة فى الجرمانية القديمة. كانت هذه الحروف مستخدمة فى أيسلندا قديمًا، على حسب التقاليد التى اخترعتها «أودان» نفسه لكن انظر إذًا، يجب أن نعترف أن علومهم كانت وحيًا من الرب.

الإيمان من وجهة نظرى، يعنى السجود للرب. هذا يسعد الرب مثلما يسعد الملوك. مع الفارق طبعًا فى أسلوب الحوار فى الحالتين.

فجأة انزلقت ورقة صغيرة متسخة من الكتاب و سقطت على الأرض. نظر عمى إليها بحرص شديد يسهل تفسيره. ورقة قديمة منذ زمن بعيد فى كتاب قديم، بالتأكيد لها قيمة كبيرة من وجهة نظره. صرخ: ما هذا؟

وضع الورقة على المنضدة. طولها خمس بوصات و عرضها ثلاث مرسومة عليها فى خطوط مستعرضة أشكال مبهمة.

هذه الأشكال الغامضة قادت البروفوسير «ليدنبروك» و ابن أخيه إلى أغرب استكشاف فى القرن التاسع عشر.

تأمل البروفوسير الورقة عدة لحظات ثم قال و هو يرفع نظارته:

- إنها باللغة الرونية. هذه الحروف متطابقة تمامًا مع مخطوطة «سنور تورلسون». لكن.. ماذا يعنى هذا؟

بدت لى اللغة الرونية كأنها اختراع من العلماء لخداع العالم البائس. لهذا لم أغضب عندما رأيت عمى لا يفهم منها شيئًا. هذا ما بدا لى، على الأقل، من خلال حركة أصابعه العصبية ثم غمغم بين أسنانه:

- مع هذا، هى تخص الأيسلندى العجوز!

يبدو أن البروفوسير «ليدنبروك» يعرفه لأنه فى الحقيقة يعلم لغات كثيرة. بالتأكيد لا يتحدث بطلاقة الألفى لغة و الأربعة آلاف لهجة المستخدمة على سطح الأرض، لكنه على دراية كافية بمعظم اللغات.

بدأ يقدح زناد عقله لحل هذا اللغز، ثم حدث مشهدًا عنيفًا عندما دقت الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا. فى هذه اللحظة فتحت الخادمة «مارت» الباب و قالت:

- الغداء جاهز.

صرخ عمى فى عصبية:

- فليذهب الغداء إلى الجحيم، و من طبخه و من سيأكله.

هربت الخادمة و هربت ورائها. دون أن أدرى كيف رأيت نفسى أجلس فى مكانى المعتاد فى صالة الطعام.

انتظرت لحظات. البروفوسير لا يأتى. هذا يحدث لأول مرة على حسب علمى. لا يتأخر عن طقوس الغداء أبدًا. و أى غداء، إنه حساء البقدونس بالإضافة إلى لحم الخنزير، أما الحلو جمبرى بالسكر، بالإضافة إلى النبيذ الفاخر.

هـذه الورقـة القديمـة جعلـت عمـى يفقـد هـذا الغـداء الشـهى. فـى اعتقـادى، بمـا أننـى ابـن أخيـه، يجـب أن آكل بالنيابـة عنـه كمـا يجـب أن آكل عـن نفسـى. هـذا مـا قمـت بـه بإتقـان.

قالت الخادمة:

- هـذا لـم يحـدث مـن قبـل أبـدًا. السـيد «ليدنبـروك» لا يتنـاول الغـداء فـى موعـده؟

- هذا شـىء لا يُصدق.

قالت و هى تهز رأسها:

- إنها كارثة.

فـى اعتقـادى ليسـت كارثـة إلا إذا كانـت تقصـد غضـب عمـى عندمـا يكتشـف أننـى التهمـت طعامـه.

كنـت أتنـاول آخـر قطعـة مـن الجمبـرى عندمـا جلجلـت صرخته فـى المنـزل. قفـزت مـن صالـة الطعـام إلـى مكتبـه بقفـزة واحـدة.

●●●

(٣)

قال البروفوسير وهو يضم حاجبيه:

- اللغة الرونية بالتأكيد، لكن يوجد سر سأكتشفه و إلا..

هناك شيء ما قطع أفكاره، ثم أضاف وهو يشير إلى المنضدة:

- اجلس هنا و اكتب.

أصبحت مستعدًا للكتابة فى لحظة خاطفة. قال:

- الآن سأملى عليك كل حرف من لغتنا يتناسب مع هذه الأشكال الرونية و نرى النتيجة. لكن استحلفك بالرب، انتبه جيدًا حتى لا تخطئ.

بدأ فى الإملاء. ركزت كل انتباهى لأضع كل حرف جوار ما قبله. فى النهاية وصلنا إلى كلمات غير مفهومة أبدًا. تفحصها طويلاً و بحرص شديد ثم قال:

- ماذا يعنى هذا؟

من حسن الحظ أنه لم يوجه لى السؤال، بل راح يتحدث مع نفسه:

- هـذا مـا نطلـق عليـه نبتـة لا زهـريـة. المعنـى يختفـى وراء الحـروف المشوشـة عمـدًا. لكنهـا تقـدم لنـا جملة لا ندركهـا إلا بالعقل. يبـدو لـى أنهـا توضـح لنـا تفسـير علمـى هـام أو اكتشـاف خطيـر.

بالنسـبة لـى أعتقـد أن هـذه الحـروف لا تعنـى شـيئًا علـى الإطـلاق، لكنـى إحتفظـت برأيـى لنفسـى. البروفوسـير أخـذ الكتـاب والورقـة و راح يقـارن بينهمـا ثـم قـال:

- الخطـان ليسـا لنفـس اليـد. هـذه الورقـة كُتبـت بعـد الكتـاب و لـدى الدليـل علـى ذلـك. بالفعـل الحـروف الأولـى هـى «ميـم» مزدوجـة. هـذا مـا سنبحث عنـه بحـرص فـى كتـاب «تورلسـون» لأنهـم لـم يضيفـوا هـذا الحـرف إلـى اللغـة الأيسـلندية إلا فـى القـرن الرابـع عشـر. هكـذا نكتشـف بسـهولة أن الفـارق الزمنـى لا يقـل عـن مائتـى عـام بـين الورقـة و الكتـاب.

كلامه بدا لـى منطقيًا. أضاف عمى:

- هـذا يدفعنـى إلـى الاعتقـاد ان أحـد مـلاك هـذا الكتـاب هـو شـخص ماكـر. لكـن مـن هـو هـذا الشـخص؟ ألـم يكتـب اسـمه فـى أى مـكان فـى هـذا الكتـاب؟

وضـع النظـارة و راح يفحـص الصفحـات الأولـى مـن الكتـاب بدقـة بالغـة. فـى ظهـر الصفحـة الثانيـة حيـث العنـوان الفرعـى، إكتشـف

بقعة من الحبر. مع ذلك، عند فحصها عن كثب نكتشف بعض الأشكال نصف ممسوحة. عمى اكتشف أن السر هنا. تفحص البقعة بالعدسة المكبرة ثم هتف منتشيًا:

- «آرن ساكنوسم». إنه اسم أيسلندى. اسم عالم من القرن السادس عشر.. الكيميائى الشهير..

نظرت إليه بإعجاب و أكمل مبهورًا:

- هؤلاء الكيميائيين، «أفيسان»، «باكون»، «لول» و «باراسيلس» هم فى الحقيقة العلماء الحقيقيون فى عصرهم. لقد توصلوا إلى اكتشافات مذهلة. لماذا لا يكون «ساكنوسم» قد أخفى اكتشافًا مذهلاً وراء هذه الحروف الغامضة؟ ممكن جدًا. بل هذا مؤكد.

اشتعل خيال البروفوسير بهذه الفكرة. تجرأت و سألت:

- لكن لماذا يخفى هذا العالم اكتشافه الرائع؟

- لماذا؟.. لماذا؟.. ألا تعرف؟ ألم يحكموا على «جاليليو» بسبب أبحاثه؟ يجب اكتشاف سر هذه المخطوطة. لن أنام و لن آكل قبل اكتشاف السر.

تأوهت فى دهشة فقال عمى:

- و لا أنت «أكسيل».

قلت فى نفسى: حسنًا، من الممتع أن أتناول طعام شخصين.

قال عمى بسرعة:

- يجب العثور على لغة هذه الأشكال. هذا لن يكون صعبًا.

رفعت رأسى فى ذعر و عاد عمى إلى التحاور مع نفسه:

- لا يوجد ما هو أثرى من ذلك. يوجد فى هذه الورقة مائة و إثنان و ثلاثون حرفًا، منها تسعة و سبعون حرفًا ساكنًا و ثلاثة و خمسون حرفًا متحركًا. تقريبًا، حسب هذا التناسق تتكون الكلمات فى اللغات الجنوبية بينما فى اللغات الشمالية تكون الحروف الساكنة أكثر.. إذًا هذه الوثيقة مكتوبة بلغة مهجورة.

هذه التخمينات صحيحة جدًا. لكن ما هى اللغة؟ هكذا راقبت العالم الذى اكتشفت فجأة أنه محللٌ باهرٌ.

عاد عمى يقول:

- هذا «ساكنوسم» هو رجل مثقف، أى أنه لم يكتب بلغته المحلية. من المُرجح أنه اختار لغة منتشرة فى القرن السادس عشر. أى اللاتينية. إن لم أكن مخطئًا قد تكون الإسبانية أو الفرنسية، أو الإيطالية أو اليونانية أو العبرية. لكن معظم علماء القرن السادس عشر كانوا يكتبون باللاتينية. من الأرجح أنها اللاتينية.

انتفضت فى مقعدى. حسب معلوماتى عن اللاتينية أن تتابع هذه الحروف المزخرفة مكتوبة بلغة الإنجيل.

قال عمى مؤكدًا:

- نعم، اللاتينية، لكنها لاتينية مشوشة.

قلت فى نفسى: إن لم تستطع إعادة تنظيم هذه الحروف لن اعتبرك عمى أبدًا.

قال و هو يتفحص الورقة التى كتبتها:

- لنفحصها جيدًا. ها هى سلسلة من مائة و إثنين و ثلاثين حرفًا، تبدو كأنها غير منتظمة. لكن فى بعض الكلمات نجد الحروف الساكنة تتقابل بينما فى كلمات أخرى نجد الحروف المتحركة تتعاكس، مثل الكلمة الخامسة و الكلمة قبل الأخيرة. هذا يعنى وجود قاعدة محددة. إنها مكتوبة حسب قواعد رياضية بحيث أن هذا التتابع يكشف لنا معلومات مجهولة. يبدو لى أن الجملة الأصلية كُتبت بالطريقة الصحيحة ثم أعيد ترتيب الكلمات تبعًا لقانون معين يجب علينا اكتشافه. لكن ما المفتاح لفك هذه الشفرة؟ «أكسيل» هل لديك المفتاح؟

لم أجبه و كان لدى عذرٌ. كانت نظراتى معلقة على الصورة التى على الجدار، صورة «جروبن». إنها إحدى قريباته و غيابها

يسبب لى تعاسة شديدة. كنت أحبها كثيرًا بكل الشغف و الوقار الألمانى. كانت خطيبتى بدون علم عمى الجيولوجى الذى لا يفهم مثل هذه المشاعر. كانت «جروبن» فتاة صغيرة جذابة، شقراء، زرقاء العين، جادة و صارمة قليلاً، لكنها لم تحبنى أبدًا أما أنا كنت أهيم بها. صورة صغيرتى جذبتنى من عالم الواقع إلى دنيا الأوهام، إلى عالم الذكريات.

تذكرت الصحبة الطيبة بالإضافة إلى مجهودى و متعتى. كانت تعاونى كل يوم فى ترتيب أحجار عمى القيمة، تضع الملصقات معى، لا أحد يعلم أسرار المعادن أكثر من الآنسة «جروبن»، تتفوق على الكثير من العلماء. تتعمق فى التفاصيل العلمية الدقيقة. قضيت معها ساعات طويلة فى الدراسة و المقارنة. كنت أتمنى أن أكون مثل تلك الحجارة التى تتلمسها بيدها الجميلة.

ثم تأتى ساعة الفسحة، نخرج معًا نتجول فى الشوارع، نتأمل البحيرة و كل منا يمسك بيد الآخر. أمازحها فى الحديث فتضحك بشدة. ثم نصعد الجبل لتوديع الأوز المهاجر فوق السحب البيضاء ثم نعود بالقارب البخارى.

بينما كنت أسبح فى أحلامى ضرب عمى المنضدة بقبضة يده و أعادنى بغلظة إلى الواقع. قال:

- يبدو لى أن أول فكرة لإعادة ترتيب هذه الحروف هى إعادة كتابتها بطريقة رأسية بدلاً من الأفقية.

- لنجرب.

- لنرى النتيجة. «أكسيل»، اكتب أية جملة فى هذه الورقة لكن بدلاً من أن تكتب الحرف جوار الحرف اكتب بطريقة رأسية و يجب أن يكون كل صف مكون من خمسة أو ستة حروف.

فهمت مقصده و رحت أنفذ اقتراحه على الفور، ثم قال دون أن يقرأ الورقة:

- حسنًا، الآن ضع هذه الحروف فى خط أفقى.

نفذت الأمر و ظهرت جملة غامضة. خطف الورقة منى و قال:

- حسنًا، هذا هو المعنى الخفى لهذه الوثيقة. الحروف الساكنة تتجمع بهذا الأسلوب، و كذلك الحروف المتحركة. يوجد أيضًا حروف كبيرة وسط الكلمات، يوجد فواصل هذا هو الأسلوب الذى اتبعه «ساكنوسم».

لم أخف دهشتى و إعجابى بهذه الملاحظات العبقرية.

قال عمى و هو يتجه نحوى:

- لكى أقرأ الجملة التى كتبتها و التى لا أعلمها حتى الآن، يكفى أن آخذ الحرف الأول من كل كلمة ثم الثانى ثم الثالث.

دُهش عمى و دُهشت أنا أيضًا عندما قرأ:

- أحبك كثيرًا صغيرتى «جروبن».!

صرخ عمى:

- ما هذا؟

نعم، دون أن أشعر كتبت هذه الجملة البسيطة المفهومة. هتف عمى بنبرة قاتلة:

- آه ! أنت تحب «جروبن».

غمغمت:

- نعم... لا...

قال بطريقة تلقائية:

- آه! أنت تحب «جروبن». حسنًا، فسر لى مشكلة هذه الوثيقة.

نسى عمى كلماتى الحمقاء و غرق فى مشكلته العلمية. أقول كلمات حمقاء لأن رأس العالم لا تفهم كلمات العاطفة. من حسن حظى أنه مشغول بالوثيقة.

راح البروفوسير «ليدنبروك» يفكر و يحلل بينما عينيه تومض ببريق خاطف و حركات سريعة. ارتجفت أصابعه و هو يلتقط

المخطوطة القديمة. صمت ثم صرخ و هو ينطق الحرف الأول ثم الثانى من كل كلمة و راح يملى علىّ جملة غامضة.

دُهشت بعد أن انتهيت من الكتابة. هذه الجملة لا ترشدنى إلى أى شىء. أنتظر عمى ليخرج من بين شفتيه جملة سحرية لاتينية.

لكن لا أحد يتوقع سلوكه أبدًا. لقد ضرب المنضدة بعنف حتى انسكب الحبر و طارت الريشة من يدى. صرخ قائلاً:

- ليس هذا! ليس هذا المعنى العام.

خرج من المكتب، هبط السلم بسرعة و هرب يحث الخطى فى الشارع.

●●●

(٤)

صرخـت «مـارت» بعـد أن سـمعت خبطـات البـاب الخارجـى العنيفـة التـى رجـت المنـزل كلـه:

- خرج؟

أجبتها:

- نعم، ترك المنزل تمامًا.

سألت الخادمة العجوز:

- حسناً، و طعامه للعشاء؟

- لن يأكله.

- و المرقة؟

- لن يشرب المرقة!

قالت «مارت» و هى تضم يديها:

- كيف؟

- لا يـا «مـارت»، لـن يـأكل أبـدًا و لـن يـأكل أحـد فـى المنـزل! لقد أمر بصيامنا جميعًا إلى أن يفك شفرة طلاسم قديمة معقدة تمامًا.

- إذًا سنموت من الجوع.

لـم أسـتطع إعـلان أنـه مـع رجـل مثـل عمـى سـيكون هـذا هـو مصيرنـا.

استشـاطت الخادمـة العجـوز غضبًـا و عـادت إلـى مطبخهـا وهـى ترتجف.

عندمـا أصبحـت وحيـدًا سـيطرت علـىّ فكـرة الذهـاب إلـى «جروبـن». لكـن كيـف أغـادر المنـزل؟ البروفوسـير قـد يعـود فـى أيـة لحظـة. قـد يطلبنـى للعـودة إلـى العمـل. مـا الـذى يمكـن أن يحـدث لـو طلبنـى و لـم يجدنـى؟ سـتكون كارثـة.

مـن الحكمـة أن أنتظـر. كان هنـاك مجموعـة مـن أحجـار الجيـود أرسـلت إلينـا مـن «بيزانسـون». يجـب ترتيبهـا و تصنيفهـا. بـدأت فـى العمـل بكتابـة الملصقـات و وضعهـا فـى العلـب الزجاجيـة و التصنيـف.

لكـن هـذا العمـل لـم يسـتطع جـذب انتباهـى. مشـكلة المخطوطـة القديمـة تسـيطر علـى عقلـى. شـعرت برأسـى يغلـى فـى قلـق و أنـا أتوقـع حـدوث كارثـة قريبًـا.

انتهيـت مـن تصنيـف الأحجـار خـلال سـاعة ثـم اسـتلقيت علـى المقعـد الوثيـر، أمـد ذراعـى و ألقـى برأسـى للخلـف. أشـعلت غليونـى الطويـل المميـز بماسـورة منحنيـة منحوتـة علـى شـكل حوريـة و بـدأت

فـى الاسـتمتاع بمتابعـة الدخـان الخـارج مـن الحوريـة و هـو يتكاثـف شـيئًا فشـيئًا. مـن حـين لآخـر أصغـى السـمع مترقبًـا عودتـه فـى أيـة لحظـة. لكنـه لـم يـأت. أيـن يوجـد عمـى الآن؟ أتخيلـه و هـو يجـرى مضطربًـا تحـت الأشـجار الجميلـة فـى الشـارع، يسـير جـوار الجـدران و هـو يضـرب فـروع الأشـجار بعنـف فيثيـر مخـاوف الطيـور فـى أعشـاشـها.

هـل سـيعود منتصـرًا أم مخـذولاً؟ هـل المشـكلة فـى السـر أم فـى عمـى نفسـه؟ و أنـا أتسـاءل فـى نفسـى التقطـت الورقـة التـى كتبتهـا بيـدى و تسـاءلت: مـاذا يعنـى هـذا؟

حاولـت تجميـع الحـروف لتكويـن الكلمـات. مسـتحيل. عندمـا أجمعهـا بشـكل ثنائـى أو ثلاثـى أو رباعـى أو خماسـى أو سداسـى، لا أصـل إلـى أيـة كلمـة مفهومـة. لاحظـت أن الحـروف الرابعـة عشـر والخامسـة عشـر و السادسـة عشـر تكون كلمة «الجليد» بالإنجليزية. كمـا لاحظـت أن الحـروف الأربعـة و الثمانـين و الخامسـة و الثمانـين والسادسـة و الثمانـين تكـون كلمـة «سـيد». أخيـرًا فـى السـطر الثانـى والثالـث لاحظـت وجـود بعـض الكلمـات اللاتينيـة لكنـى لا أفهـم المعنـى.

قلـت فـى نفسـى: اللعنـة! هـذه الكلمـات الأخيـرة تجعـل عمـى يبـدو محقًـا حـول لغـة المخطـوط. فـى السـطر الرابـع لمحـت كلمـة

لاتينية أعلم أنها تعنى «الخشب المقدس». فى السطر الثالث نجد كلمة عبرية مبهمة بينما فى السطر الأخير نجد كلمات «بحر»، «قوس»، «أم»، الكلمات الأخيرة مكتوبة باللغة الفرنسية.

هذه الوثيقة تجعل الإنسان يفقد عقله. أربع لغات مختلفة فى هذه الجملة العبثية. ما العلاقة بين كلمات (جليد، سيد، غضب، وحشى، خشب مقدس، أم، قوس و بحر؟ لا يوجد أية علاقة إلا بين الكلمتين الأولى و الأخيرة. ليس من الغريب أن نجد الاهتمام ببحر الجليد فى وثيقة مكتوبة باللغة الأيسلندية لكن بالنسبة لبقية الكلمات الأمر يختلف تمامًا.

بدأت الاجتهاد فى حل هذه المعضلة. شعرت برأسى يحترق بينما عيناى مثبتتان على الورقة. بدا لى أن الحروف المائة و اثنين و ثلاثين يطيرون و يحلقون فوق رأسى مثل القطرات الفضية التى تنساب على زجاج النافذة.

دارت رأسى، اختنقت، أحتاج إلى بعض الهواء. بدأت الشجار مع الورقة، أقلبها و أفحصها من جميع الزوايا. دُهشت عندما اكتشفت فى الجهة اليسرى كلمات تُقرأ بسهولة، كلمات لاتينية: «شجرة بوق الموتى» و «أرضى».

فجأة ومضت الفكرة فى عقلى. هذه الومضة جعلتنى أكتشف الحقيقة. اكتشفت القانون لحل هذه الشفرة. لكى نقرأ هذا

المخطوط لا داعى لتقليب الورقة، بل كما هى، مثلما أملى على البروفوسير. هكذا يمكن قراءتها بسهولة. كل عبقريات عمى تجلت لى بوضوح. كان محقًا فى ترتيب الحروف، كان محقًا فى لغة المخطوط، لا ينقصنا إلا شىء بسيط جدًا لقراءة هذه الجمل اللاتينية و اكتشفت هذا الأمر البسيط بالمصادفة.

دارت رأسى و أصبحت عاجزًا عن الرؤية. وضعت الورقة أمامى على المنضدة و كان يكفى إلقاء نظرة واحدة لاستنتاج سر المالك السابق للوثيقة.

يجب الالتزام بالهدوء لاستكمال الاكتشاف، تجولت فى الحجرة جولتين ثم عدت للجلوس على المقعد الوثير. قلت فى نفسى بعد أن أخذت نفسًا عميقًا: لنقرأ.

وضعت إصبعى على كل حرف دون توقف و لا تردد للحظة واحدة و قرأت الجملة كلها بصوت عال.

هتفت فى نفسى: حسنًا، عمى لن يتردد للقيام بهذه الرحلة، لابد أن يتذوقها، لن يمنعه شىء، سيسافر مهما كانت الظروف والصعاب، سيصحبنى معه و لن نعود أبدًا، أبدًا..

كنت فى حالة من الاضطراب لا يمكن وصفها. قلت فى نفسى: لا أستطيع نشر مثل هذه الفكرة، لقد اكتشفت السر بالمصادفة.

كان هنـاك بعـض النـار فـى المدفـأة، قبضـت علـى الورقـة والمخطـوط كلـه، لابـد أن أضعهـم فـى النيـران لإخفـاء هـذا السـر الخطيـر. فـى هـذه اللحظـة فُتـح البـاب و ظهـر عمـى.

●●●

(٥)

لـم يتوفـر لـى الوقـت الكافـى لألقـى بالمخطـوط الملعـون فـى النيـران فوضعتـه علـى المنضـدة.

بـدا لـى البروفيسـور « ليدنبـروك» ذاهـلاً تمامًـا، أفكاره اللاهثة لا تتـرك فرصـة للاسـتراحة لحظـة واحـدة. كان يفكـر، يحلـل، ويقـارن بـين كل الاحتمـالات أثنـاء جولتـه و عـاد ليبحـث عـن احتمـالات جديـدة.

غـاص فـى مقعـده و راح يـدون معـادلات غامضـة بـدت لـى كأنهـا معـادلات حسـابية فـى الجبـر.

كنـت أتابـع كل حـركات يـده المرتجفـة. مـا الـذى سـيصل إليـه مـن كل هـذه المعـادلات؟ ارتجفـت لأننـى أعلـم أن كل اسـتنتاجاته غيـر صحيحـة.

اسـتمر فـى العمـل لمـدة ثـلاث سـاعات دون أن يرفـع رأسـه عـن مكتبـه لحظـة واحـدة. يمسـح، يشـطب و يـدون معـادلات جديـدة.

أعلم جيدًا أنـه لـو رتـب هـذه الحـروف بالطريقـة الصحيحة سـيصل إلـى الجملـة المقصـودة. لكنـى أعلـم أيضًـا أن إعـادة ترتيـب عشـرين حرفًـا فقـط علـى حسـب قواعـد الجبـر سـيقودنا إلـى رقـم ضخـم مـن الاحتمـالات. فكيـف يكـون الحـال مـع مائـة و اثنـين وثلاثـين حرفًـا.

كنت واثقًا من أنه سيصل إلى حل المشكلة بهذا الأسلوب البطولى، لكن الوقت يمر، هبط الظلام و اختفت ضوضاء الشارع و عمى ما زال منكبًا على عمله، لا يرى شيئًا. لم ير الخادمة و لم يسمعها و هى تسأل: هل سيدى سيتناول العشاء اليوم؟

ذهبت الخادمة دون أن تحصل على إجابة، أما بالنسبة لى نمت قليلاً على الكنبة بينما عمى يقوم بحساباته المعقدة.

عندما استيقظت فى اليوم التالى رأيته ما زال منهمكًا فى عمله. احمرت عيناه، شحب وجهه، شعره منفوش تحت يديه المرتجفة، بروز عظام وجهه يدل على جهوده الرهيبة مع المستحيل، رغم كل هذا الإجهاد العقلى لا يشعر بمرور الوقت أبدًا.

فى الحقيقة أشفقت عليه و بدأت أشعر بوخز الضمير، الرجل المسكين غارقًا فى الفكر لدرجة أنه يتخلى عن عصبيته المعهودة. كل تفكيره مركز حول نقطة واحدة و لا يستطيع الفكاك منها.

أستطيع أن أريحه بكلمة واحدة منى و أنا أبخل عليه بها.

كنت طيب القلب و تساءلت فى نفسى: لماذا أحتفظ بالصمت فى مثل هذه الظروف؟ لكن الصمت فى مصلحته.

قلت فى نفسى: لا، لن أتكلم. سيذهب إلى هناك. أعرف طباعه جيدًا. لن يستطيع أحد منعه. إنها تخيلات بركانية، و لكى يفعل ما عجز عنه الآخرون سيغامر بحياته. يجب أن أصمت،

يجب حفظ السر الذى توصلت إليه بالمصادفة. الاكتشاف سيقتل البروفيسور «ليدنبروك»، لا أحد يستطيع تخيل ما سيحدث، لا أرغب فى موته.

لابد من الثبات على المبدأ، كتفت ذراعى أنتظره لكنى أفكر دائمًا فيما سيحدث بعد ذلك.

عندما أرادت الخادمة «مارت» الذهاب إلى السوق رأت الباب مغلقًا. المفتاح الضخم غير موجود فى الباب. من الذى أخذه؟ بالتأكيد عمى عندما عاد من جولته بالأمس.

هل فعل ذلك بالمصادفة أم عن قصد؟ هل يريد تجويعنا؟ يا له من إنسان قاس. ماذا؟ هل سأسقط أنا و الخادمة ضحيتين لهذا الموقف الأشد قسوة و ألمًا فى العالم؟ من المؤكد سيفعل ذلك. أعلم طباعه جيدًا. منذ عدة سنوات انهمك فى تصنيف المعادن لمدة ثمان و أربعين ساعة دون تناول الطعام و كان على كل من فى المنزل أن يضحى فى سبيل العلم. بدأت أشعر بتقلصات فى أحشائى.

بدا لى أنه سيحدث خطأ فى تناول المرقة مثلما حدث بالأمس. يجب أن أدافع عن نفسى ببطولة حتى لا أعانى الجوع. بدأت الخادمة تشعر بالتهديد الحقيقى. بالنسبة لى لا أستطيع مغادرة المنزل لسبب محدد.. تفهمون قصدى.

ما زال عمى منهمكًا فى عمله، شاردًا فى تخيلاته، يعيش بعيدًا عن الواقع، بعيدًا عن أى احتياجات أرضية أو مادية.

فى ساعة الظهيرة بدأت أشعر بالجوع الحقيقى. الخادمة البريئة التهمت المتبقى من الطعام و لم يعد فى المنزل أى شىء يمكن أكله. مع ذلك ما زلت متماسكًا وأشعر بالفخر لذلك.

دقت الساعة تشير إلى الثانية ظهرًا. الموقف أصبح سخيفًا بشكل غير محتمل. فتحت عينيى قليلاً و قلت فى نفسى: أعلم سر المخطوط الذى ما زال عمى يراه غامضًا. سيفعل المستحيل من أجل فك الشفرة. يبدو أننى سأعترف بالسر من أجل منفعتى الشخصية. يبدو أنه من العبث الانتظار أكثر من ذلك.

بدأت أبحث عن مقدمة غير صادمة عندما هب عمى واقفًا و وضع قبعته استعدادًا للمغادرة.

ماذا؟ يغادر المنزل و يغلق علينا الأبواب! مستحيل أن يحدث ذلك. قلت بصوت منخفض:

- عمى!

بدا كأنه لا يسمعنى فقلت بصوت عال:

- عمى «ليدنبروك».

سأل كأنه استيقظ فجأة:

- ماذا تريد؟

- المفتاح!

- أى مفتاح؟ مفتاح الباب؟

صرخت:

- لا، مفتاح شفرة المخطوط.

رماني بنظرة محتقرة من أسفل النظارة. لمحت في عينيه تساؤلات كثيرة. ارتبكت و نظرت إلى الأرض. رفع رأسى مشفقًا كأنه يتعامل مع شخص مجنون. شعر بالثقة فى عينيى. التمعت عيناه ببريق خاطف و شعرت بالتهديد فى لمسة يده. وقفت عاجزًا عن الكلام لكن نظراته تهدد بجدية فقلت:

- نعم، اكتشفت مفتاح الشفرة بالمصادفة.

صاح فى عصبية:

- ماذا تقول؟

أعطيته الورقة و أنا أقول:

- اقرأ.

قال و هو يهز الورقة:

- لكن هذا لا يعنى شيئًا.

قلت له:

- لا يعنــى شـيئًا عندمـا نقـرأ مـن البدايـة لكـن لـو قرأنـا مـن النهايـة..

قبـل أن أكمـل قولـى جلجلـت صرخـت البروفيسـور تـدوى فـى المكان. صرخـة متوحشـة. ومضـت الفكـرة فـى رأسـه و شـعر بالزهـو و هـو يصـرخ:

- آه! أيها العبقرى «ساكنوسم»، هل كتبت الجملة بالعكس؟

وضـع الورقـة أمامـه، زاغـت عينيـه و ارتجـف صوتـه و راح يقـرأ مـن الحـرف الأخيـر إلـى الأول. قـرأ باللاتينيـة الجملـة التـى يمكـن ترجمتهـا هكـذا:

(عنـد الهبـوط فـى فوهـة «يـوكل سـنيفيل» فـى بدايـة شـهر يوليـو، ستخوض رحلـة خطيـرة ثـم تصـل إلـى مركـز الأرض، وهـذا مـا فعلتـه.)

بعـد أن قـرأ عمـى قفـز فـى مقعـده كأنـه قـد شـرب زجاجـة خمـر كاملـة. كان يشـعر بالزهـو و الفخـر، يشـعر بالمجـد. راح يتجـول فـى الحجـرة و هـو يمسـك رأسـه بكلتـى يديـه. راح يبـدل أماكـن المقاعـد،

يتأمل كتبه، يرتجف. لا يصدق ما حدث. يضرب بقبضة يده هنا و هناك. فى النهاية بدأت أعصابه تهدأ و هوى فوق مقعده يفكر بجدية و صرامة. ثم سألنى بعد فترة صمت طويلة:

- كم الساعة الآن؟

- الثالثة.

- أشعر بجوع شديد. هيا بنا لتناول الطعام ثم..

- ثم؟

- ثم تعد حقيبتى.

صرخت:

- ماذا؟

أجابنى و هو يدخل غرفة الطعام:

- و حقيبتك أنت أيضًا.

●●●

(٦)

ارتجف كل جسدى لكلماته. مع ذلك خضعت، بل جاهدت لأبدو فى حالة جيدة. لن يثنيه عن رأيه إلا البراهين العلمية. يجب على أن أبرهن له على استحالة هذه الرحلة. نذهب إلى مركز الأرض! يا له من مجنون! احتفظت بأفكارى ترقبًا للحظة المناسبة و الآن يجب التفكير فى الطعام.

من المستحيل أن يتغاضى عمى عن عدم ترتيب المائدة بالصورة السليمة لكنها ظروف استثنائية. سمح للخادمة بالخروج إلى السوق و أدركت أن جوعى سيختفى خلال ساعة.

أثناء تناول الطعام بدا عمى مبتهجًا، يمزح بأسلوب علمى لكن ليس خطيرًا. بعد تناول الحلوى أشار لى لأتبعه إلى المكتب. جلس على طرف المنضدة و أنا جلست على الطرف الآخر.

قال بصوت هادئ:

– «أكسيل»، أنت شاب عبقرى. قدمت لى خدمة جليلة. بدونك ما توصلت إلى هذه النتائج. أنت شريكى فى المجد الذى ينتظرنا يا ولدى.

قلت فى نفسى: حسنًا، إنه فى حالة جيدة و الوقت أصبح مناسبًا لمناقشة هذا المجد.

استكمل عمى:

- قبل أى شىء يجب أن أكشف لك السر الحقيقى الخطير، هل تسمعنى؟ لدى الكثير من الحساد و المنافسين فى المجال العلمى. معظمهم يريدون القيام بهذه الرحلة و يتمنون لنا عدم العودة.

سألت:

- أتعتقد فى عبقرية هؤلاء المنافسين؟

- بالتأكيد! من يستطيع مقاومة إغراء كل هذا المجد؟ لو كان هذا المخطوط معلومًا من الجميع لقامت الحروب بين كل الجيولوجيين من أجل اتباع خطى «أرن ساكنوسم»!

- لهذا لا أقتنع بهذا المخطوط يا عمى، لا يوجد أى دليل على صحته.

- كيف ذلك؟ و الكتاب الذى وجدنا به المخطوط؟

- حسنًا، أوافق أن «ساكنوسم» هو الذى كتب هذه الكلمات لكن هل حقًا أكمل الرحلة للنهاية؟ ألا تلاحظ الغموض الشديد فى هذا المخطوط؟

ندمت قليلاً على قولى هذا. بدأ عمى يتجهم و خشيت من نتائج هذه المحاورة. لكن من حسن الحظ لم يغضب لكنه ابتسم فى جدية و أجابنى:

- هذا ما سنكشفه.

هتفت:

- آه! لكن اسمح لى بالكشف عن بعض ملاحظاتى حول هذا المخطوط.

- تكلم يا ولدى و لا تخشى شيئا. أترك لك الحرية كاملة للإفصاح عن رأيك. أنت لست ابن أخى فقط بل أنت زميلى. تكلم.

- فى البداية أريد أن أعلم ماذا تعنى كلمات «يوكل»، «سنيفيل» و«سكارتاريس»؟ لم أسمع هذه الكلمات من قبل.

- لا يوجد ما هو أسهل من ذلك. منذ فترة استلمت لوحة من صديقى «أوغسطس بيترمان» من «ليبزيج» و لم أستطع الوصول إلى شىء من هذه الرسومات. لكن احضر لنا أطلس الثالث من الرف الثانى فى مكتبتى. سلسلة «زد» القسم الرابع.

بفضل توجيهاته الدقيقة وصلت إلى الكتاب المقصود بسرعة. فتحه عمى و قال:

- إنها أفضل الخرائط عن «أيسلندا»، رسمها «هاندرسون» وأعتقد أنها ستقدم لنا حل لهذه المشكلة.

انحنيت على الخريطة أتابع بدقة و قال البروفوسير:

- انظر إلى هذه الجزيرة البركانية و لاحظ وجود كلمة «يوكل» فى أماكن كثيرة. هذه الكلمة تعنى «جليدى» باللغة الأيسلندية. فى هذا المكان كل شىء يختفى تحت الجليد، لذلك يطلقون صفة «يوكل» على كل الجبال الشاهقة فى الجزيرة.

قلت:

- حسنًا، لكن ماذا تعنى «سنيفيل»؟

اعتقدت عدم وجود إجابة لهذا السؤال لكنى كنت مخطئا. قال عمى:

- تتبع الشاطئ الغربى لأيسلندا. أتلاحظ العاصمة «ريكشاويك»؟ حسنًا، تتبع هذه التعريجات الكثيرة على شاطئ البحر و توقف تحت خط عرض ٦٥ قليلاً. ماذا ترى؟

- جزيرة على شكل ساق الإنسان و تنتهى على شكل ضخم لعظمة الركبة.

- مقارنتك صحيحة يا ولدى، و الآن ماذا تلاحظ فى هذه الركبة؟

- جبل يتمدد فى البحر.

- حسنًا، إنه «سنيفيل».

- «سنيفيل»؟

- هـو نفسـه، يصـل ارتفاعـه إلـى خمسـة آلاف قـدم، و هـو مـن أشـهر معالـم الجزيـرة و هـو الأشـهر فـى العالـم كلـه، يوجـد بـه ممرات تـؤدى إلـى صنـدوق زجاجـى.

صرخت و أنا أهز أكتافى فى مواجهة أفكاره:

- هذا مستحيل!

أجابنى البروفوسير «ليدنبروك» بصوت جاد:

- مستحيل! لماذا؟

- لأنـه مـن المؤكـد وجـود عقبـات كثيـرة فـى هـذا الممـر مـن الحمم البركانيـة و الصخـور الملتهبـة بالإضافـة إلـى ...

- و إذا كان البركان خامدًا؟

- خامدًا؟

- نعـم، عـدد البراكـين النشـطة علـى سـطح الأرض لا يزيـد علـى ثلاثمائـة فقـط لكـن يوجـد عـدد كبيـر مـن البراكـين الخامـدة و«سـنيفيل» خامـدًا. آخـر ثوراتـه كانـت عـام ١٢١٩، و مـن هـذا التاريـخ يهـدأ شـيئًا فشـيئًا و لا يثـور أبـدًا.

لـم أسـتطع قـول شـىء أمـام هـذه التأكيـدات الموضوعيـة لكنـى نظـرت إلـى الناحيـة الأخـرى مـن المخطـوط و قلـت:

- يوجـد هنـا غمـوض شـديد. مـاذا تعنـى كلمـة «سـكارتاريس»؟ ومـا الـذى يحـدث فـى بدايـة يوليـو؟

- مـا تصفـه بالغمـوض يبـدو لـى واضحًـا تمامًـا. هـذا يكشـف لنـا عبقريـة «سـاكنوسـم» لتحديـد اكتشـافه بدقـة. جبـل «سـنيفيل» يحتـوى عـدة ممـرات. إذًا يجـب تحديـد الممـر الـذى يقودنـا إلـى مركـز الأرض. مـاذا فعـل العالـم الأيسـلندى؟ لاحـظ أن فـى بدايـة يونيـو و نهايـة يوليـو يتسـاقط ظـل قمـة «سـكارتاريس» علـى مدخـل الممـر المقصـود. هـذا مـا يكشـفه لنـا فـى المخطـوط.

فـى الحقيقـة أجـاب عمـى علـى كل تسـاؤلاتى و لـم أسـتطع قـول كلمـة واحـدة. يجـب التوقـف عـن الحديـث فـى هـذه الناحيـة، يجـب التحـدث بصـورة أكثـر جديـة، بصـورة علميـة. فقلـت:

- أعتـرف أن كلمـة «سـاكنوسـم» واضحـة و لا تسـمح بـأى شـكوك. هـذا العالـم توغـل فـى عمـق جبـل «سـنيفيل»، هـذا العبقـرى لاحـظ ظـل قمـة «سـكارتاريس» علـى مدخـل الممـر فـى بدايـة يوليـو، و هـو بالتأكيـد يعلـم مـن الأسـاطير المحليـة فـى عصـره أن هـذا الممـر يقـود إلـى مركـز الأرض، لكـن مـن المسـتحيل أن يكـون قـد قـام بهـذه الرحلـة.

سأل عمى ساخرًا:

- ما هو الدليل؟

- كل النظريات العلمية تؤكد أن مثل هذا الاكتشاف غير منطقى.

كشر عمى عن أنيابه و هو يسأل:

- كل النظريات العلمية تقول ذلك؟ آه، النظريات المخيفة! هذه النظريات تثير فزعنا!

لاحظت تهكمه و مع ذلك أكملت:

- نعم، كل النظريات تؤكد أن درجة الحرارة ترتفع حوالى درجة كل سبعين قدم فى العمق. و بما أن مركز الأرض على عمق ألف و خمسمائة فرسخ فهذا يعنى أن درجة الحرارة هناك تصل إلى مليونى درجة. و لهذا تصبح المادة فى شكل غازى متوهج لأن المعادن مثل الذهب و الأبلاتين و الصخور الأكثر صلابة لا تصمد فى مواجهة مثل هذه الحرارة. هذا يجعلنى أشك فى إمكانية الوصول إلى هذا المركز.

- فهمت يا «أكسيل»، الحرارة هى التى تقلقك؟

- بالتأكيد. لو وصلنا إلى عمق عشر فراسخ فقط سنجد الحرارة قد وصلت إلى ألف و ثلاثمائة درجة.

– و أنت تخشى الانصهار؟

قلت فى كبرياء:

– أترك لك حرية القرار.

أجابنى البروفوسير «ليدنبروك» و هو يستنشق نفسًا عميقًا:

– هذا هو قرارى، لا أنت و لا أحد غيرك يعلم بشكل مؤكد ما يحدث داخل الأرض. نحن لا نعلم إلا بضع مليمترات من القشرة الأرضية. لذلك يتم تدمير النظريات بنظريات أخرى. ألا تعلم عن العالم «فوريه» أن كل الكواكب تبرد بالتدريج؟ ألا تعلم أن الحرارة تنخفض إلى أربعين أو خمسين تحت الصفر فى أبرد المناطق من الأرض؟ لماذا لا تكون الحرارة الداخلية بهذا الشكل؟ لماذا نتوقع الحرارة الشديدة لدرجة الانصهار و لا نتوقع البرودة الشديدة؟

بدأ عمى يقدم إعتراضات علمية كثيرة و لم أستطع التجاوب معه. ثم قال:

– يجب أن تعلم أن هناك علماء حقيقيون مثل «بواسون» وغيره أثبتوا أنه إذا وصلت الحرارة إلى المليونين فى المركز فهذا يعنى أن المادة المصهورة ستشكل ضغطًا شديدًا و تنفجر الأرض.

– هذا رأى «بواسون» يا عمى.

– صحيح لكن لتعلم أنه رأى علماء آخرين. يعتقدون أن باطن الأرض لا يتكون من الغاز و لا الماء و لا الصخور الثقيلة التى تعرفها لأنه فى هذه الحالة سيتضاعف وزن الأرض.

– نستطيع إثبات كل شىء بالنظريات المبهمة.

– بالعمل يا بنى. ألا تعلم أن الحرارة بدأت تنخفض فى عدد كبير من البراكين فى العالم منذ بداية الخلق؟ ألا يدل ذلك أن الحرارة بدأت تنخفض فى عمق الأرض؟

– عمى، لو دخلنا فى الإفتراضات العلمية لن أستطيع مناقشتك .

– أنا أتفق مع العلماء الأكثر خبرة. ألا تذكر زيارة الكيميائى الشهير «هامفرى دافى» لى فى عام ١٨٢٥؟

– بالتأكيد لا، لأننى وُلدت بعد ذلك بتسعة عشر عامًا.

– حسنا، «هامفرى دافى» أتى لزيارتى أثناء مروره بـ «هامبورج». تحاورنا فى أمور كثيرة منها إفتراض سيولة النواة داخل الأرض. اتفقنا نحن الإثنان على استحالة ذلك بالبرهان الذى لم يصل إليه العلم حتى الآن.

سألت مذهولاً:

– ما هو؟

- البرهان هو أنه فى مثل هذه الحالة ستخرج من الأرض كتلة سائلة ضخمة فى حجم المحيط تقريبًا. هذه الكتلة قد تصيب القمر و ستتحطم الأرض تحت الاضطرابات العنيفة.

- لكن من المؤكد أن انخفاض الحرارة على القشرة الأرضية لا يعنى انخفاضها فى المركز.

أجاب عمى:

- هذا خطأ. الأرض تسخن من السطح و ليس من العمق. السطح يتكون من كمية كبيرة عن المعادن مثل البوتاسيوم والصوديوم، و هذه المواد تشتعل عند الاحتكاك بالهواء و الماء. هذه المواد تسخن عند ملامسة البخار الذى يتكون مع سقوط المطر. و عندما تغوص فى الأرض تدخل فى تفاعلات جديدة وهكذا تكونت البراكين عند بداية الخلق.

صرخت رغمًا عنى:

- هذا افتراض عبقرى.

- «هامفرى دافى» كان دقيقًا فى علمه. قام بتجربة بسيطة. صنع كرة من المعادن التى ذكرتها لك و هذا يتماثل تمامًا مع كوكبنا الأرضى. و عند إسقاط نقطة مياه واحدة حدث الصدأ ثم انتفاخ فى الكرة مثل جبل صغير ثم ارتفعت حرارة الكرة و أصبح يستحيل لمسها.

فـى الحقيقـة بـدأت أشـعر بالضغـط الشـديد أمـام براهـين البروفوسـير. إنـه يتحـدث بـكل ثقـة.

أضاف:

- لتعلـم يـا «أكسـيل» أن هنـاك افتراضـات كثيـرة مـن العلمـاء حـول نـواة الأرض. و لا يوجـد أى إثبـات علـى أن الحـرارة تأتـى مـن باطـن الأرض. فـى اعتقـادى، علـى الأقـل، لا أجـد أى دليـل مؤكـد. سـنقوم بالرحلـة و نتأكـد مـن ذلـك.

كلماته أثارت فضولى فقلت:

- حسنًا، لنرى و نتأكد من ذلك.

قال عمى منتصرًا:

- لكن يجب الالتـزام بالصمت التـام. لا يجـب أن يعلـم أحـد بمـا نقـوم بـه حتـى لا يسـبقنا إلـى اكتشـاف مركـز الأرض.

●●●

(٧)

هكذا انتهت الجلسة العلمية. هذه المحادثة جعلتنى أشعر بالثقة فى نفسى، و مع ذلك خرجت من مكتب عمى مضطربًا لأتجول قليلاً. شعرت أن الهواءِ غير كاف فى شوارع «هامبورج» فاتجهت إلى شاطئ «إلب» حيث توجد السفن التجارية التى تربط المدينة بمحطة السكة الحديد.

هل اقتنعت بما تعلمته منه؟ هل خضعت لسطوة البروفوسير «ليدنبروك»؟ هل هو جاد بالفعل فى الذهاب إلى مركز الأرض؟ هل يجب الاستسلام لجنون هذا العالم العبقرى؟ بالإضافة إلى كل ذلك، من الناحية العملية، ما هى الحقيقة و ما هى الأوهام؟

غرقت وسط آلاف الافتراضات المتناقضة و لا أميل نحو أى منها. مع ذلك يبدو أننى استسلمت له كما أن حماسى بدأ ينمو. لكن يجب علىّ السفر فورًا بدون أى تردد. نعم، لا ينقصنى الشجاعة لترتيب حقيبتى فورًا.

يجب أن أعترف أن تأثيره السريع علىّ اختفى خلال ساعة. بدأت أعصابى تتوتر، جحيم الأرض يغلى فى رأسى.

صرخت فى نفسى: هذا عبث! لا يجب الضغط بهذا الشكل على فتى عاطفى مثلى. مستحيل. ما يحدث ليس واقع أبدًا بل كابوس.

استكملت تجوالى فى شاطئ «إلب» و فى شوارع المدينة. بعد أن صعدت الجسر وصلت إلى طريق «ألتونا». يبدو أننى أسير تحت قوة خفية لأننى لمحت صغيرتى «جروبن» تعود إلى «هامبورج» بخطواتها الخفيفة الرشيقة. صرخت من بعيد:

- «جروبن»!

توقفت الفتاة الصغيرة مرتجفة. أعتقد أنها ارتجفت من صدفة اللقاء فى الطريق الكبير. قالت:

- «أكسيل»! أتيت لمقابلتى، هذا لطيف منك.

شعرت باضطراباتى فسألت:

- ماذا بك؟

هتفت:

- ماذا بى يا «جروبن»!

خلال ثانيتين و ثلاث جمل أدركت جميلتى الملائكية الموقف. احتفظت بالصمت برهة. هل قلبها يخفق مع قلبى؟ تجاهلت هذا

الموضوع الآن لكنى شعرت بيدها ترجف بين يدى أثناء سيرنا. أخيراً قالت:

- «أكسيل»!

- عزيزتى «جروبن».

- ستكون رحلة جميلة.

قفزت عند سماع هذه الكلمات. أكملت:

- نعم «أكسيل»، رحلة محترمة لابن أخ عالم كبير. ستحصل على شهرة كبيرة.

- ماذا تقولين «جروبن»؟ هل تريدين أن أقوم بهذه الرحلة.

- نعم عزيزى «أكسيل»، يجب أن تسافر أنت و عمك و أنا سأعاونكما فى إعداد الحقائب، إن لم يزعجكما ذلك.

- حقًا.

- حقًا.

آه! عجبًا للنساء و الفتيات الصغيرات و القلوب الأنثوية الغامضة! طالما أنك لا تحب العزلة يجب أن تكون شجاعًا! الآن وجدت الدافع الحقيقى للقيام بهذه الرحلة. هذه الصغيرة أصابتنى بالحماس و القوة. إنها لا تخشى المغامرة بل تدفعنى إليها. تشتت أفكارى، بل شعرت بالخجل. قلت:

- سنرى إن لم تبدلى رأيك غداً.

- لن أبدل رأيى عزيزى «أكسيل».

ظلت يدها داخل يدى و التزمنا الصمت العميق. إستكملنا التجوال. كنت مكسوراً بسبب أحداث اليوم. قلت فى نفسى: على كل حال بداية يوليو مازالت بعيدة، ستحدث أشياء كثيرة تشفى عمى من هوس هذه الرحلة.

هبط الظلام عندما وصلنا إلى المنزل فى شارع «كونجستراس». كنت أتوقع أن يكون المنزل هادئًا، عمى ذهب للنوم مبكرًا كعادته بينما الخادمة «مارت» تنظف حجرة الطعام. لكن البروفوسير كان متعجلاً جداً، رأيته يصرخ وسط أشياء كثيرة بينما الخادمة تفقد صوابها. صرخ عندما رآنى:

- تعالى «أكسيل»، بسرعة أيها البائس! لم تعد حقيبتك بعد؟ و أوراقى ليست مرتبة. لا أجد مفتاح حقيبتى.

وقفت مذهولاً عاجزًا عن الكلام ثم سألت:

- سنرحل الآن؟

نعم أيها الفتى البائس، و أنت تتجول فى الشوارع بدلاً من إعداد نفسك للسفر.

كررت بصوت واهن:

– سنرحل الآن؟

– ليس الآن، بعد الغد فى الصباح الباكر.

لم أستطع سماع أكثر من ذلك فهربت إلى حجرتى الصغيرة.

لا يوجد أى مجال للشك. أمضى عمى أمسيته فى إعداد بعض الأشياء الهامة للرحلة. أعد السلم الحبلى ذى العقد الغليظة، المصابيح الكاشفة، الزمزمية، خطاطيف حديدية، أوتاد، قضبان من الحديد. أعد أشياء تكفى لعشر رجال على الأقل.

قضيت ليلة مرعبة. فى الصباح الباكر سمعت من ينادى اسمى و قررت عدم فتح الباب لكن عندما سمعت الصوت الناعم يردد: عزيزى «أكسيل» قفزت من الفراش.

اعتقدت أن هيأتى و شحوبى و احمرار عينيى، كل هذا قد يدفع «جروبن» إلى تغيير قرارها لكنها قالت:

عزيزى «أكسيل» أرى أنك نمت جيدًا _و أصبحت هادئًا.

صرخت:

– هادئًا!

تأملت نفسى فى المرأة فوجدت نفسى فى حالة أفضل مما كنت أعتقد. قالت لى:

- «أكسيل»، تحاورت كثيرًا مع الواصى علىّ. إنه عالم صارم، رجل جرئ و لا تنسى أن دماءه تجرى فى عروقك. قص لى عن مشاريعه و آماله و كشف لى عن خطته لبلوغ هدفه. لا أشك أبدًا فى نجاحه. عزيزى «أكسيل» الحديث فى العلوم ممتع. المجد ينتظره و سيشتهر مرافقه أيضًا. عندما تعود من هذه الرحلة ستصبح رجلاً، ندًا له، ستصبح حرًا فى الحديث، حرًا فى التحرك و أخيرًا حرًا فى...

احمر وجه الفتاة الصغيرة خجلاً و لم تكمل حديثها. كلماتها ألهبت مشاعرى و مع ذلك لا أصدق أننا سنرحل. اتجهت خلف «جروبن» إلى مكتب البروفوسير سألت:

- عمى، هل سنرحل فعلاً؟

- ماذا؟ هل تشك فى ذلك؟

قلت:

- لا، أتساءل فقط لماذا التعجل؟

- يجب علينا التحرك بسرعة شديدة.

- اليوم ٢٦ مايو، مازال أمامنا الكثير حتى نهاية يونيو..

– أتعتقد ذلك؟ أتعتقد أننا سنصل إلى أيسلندا بسهولة؟ لا يوجد أية وسيلة للسفر من «ريكشواك» إلا يوم ٢٢ من كل شهر.

– ماذا يعنى هذا؟

– هذا يعنى إذا لم نصل قبل يوم ٢٢ يونيو سيكون الوقت متأخر جدًا و لن نرى ظل «سكارتاريس» و هو يسقط على فوهة «سنيفيل». يجب أن نصل إلى «كوبنهاجن» فى أسرع وقت لنبحث عن وسيلة للسفر. اذهب و أعد حقيبتك.

لم أجد أية كلمة أقولها. صعدت إلى حجرتى تتبعنى «جروبن». قامت بوضع الأشياء الهامة فى حقيبتى الصغيرة. كانت هادئة جدًا كاننى سأقوم بنزهة لطيفة. يداها الصغيرتان الجميلتان تتحركان دون أى تردد و هى تتحدث بحماس عن رحلتنا. فى هذه اللحظة شعرت بغضب شديد نحوها. حاولت الإفصاح عن رأيى والتعبير عن مخاوفى لكنها لم تترك لى أية فرصة.

أخيرًا أغلقت الحقيبة و هبطنا إلى الطابق الأسفل. فى هذا اليوم كان يجب تنظيف كل المعدات و الأسلحة بدقة شديدة. الخادمة فقدت صوابها و هى تسألنى:

– هل سيدى أصابه الجنون؟

أشرت لها مؤكدًا بالإيجاب.

- هل سيصحبك معه؟

أكدت لها صحة ذلك مرة أخرى.

سألت:

- إلى أين؟

أشرت بيدى إلى الأرض فصرخت:

- إلى الكهف؟

نطقت أخيرًا و قلت لها:

- لا، أبعد من ذلك!

هبط الظلام و مر الوقت بسرعة دون أن أشعر به. قال عمى:

- سنرحل غدًا فى السادسة صباحًا.

فى العاشرة مساءً سقطت فى فراشى مثل كتلة صخرية وعاودتنى المخاوف. أمضيت الليل أحلم بالهاوية! شعرت بنفسى مقهورًا تحت يد البروفوسير الغليظة. رأيت نفسى أسقط بسرعة مجنونة فى الفضاء و أصبحت حياتى ما هى إلا سقوط مستمر.

استيقظت فى الخامسة صباحًا مجهدًا.

هبطت إلى غرفة الطعام لأجد عمى يلتهم إفطاره فنظرت إليه فى رعب. كانت «جروبن» معنا لكنى لم أستطع قول شىء ولم آكل شيئًا.

فى الخامسة و النصف سمعت جلبة فى الشارع. أتت العربة لتقودنا إلى محطة القطار فى «ألتونا». سأل عمى:

- أين حقيبتك؟

- جاهزة.

- أسرع حتى لا نضيع القطار.

يبدو أن مقاومة القدر مستحيلة. آتيت بحقيبتى من الحجرة و تبعته.

فى هذه اللحظة سلم عمى مفاتيح المنزل إلى «جروبن». جميلتى الملائكية مازالت تحتفظ بالهدوء. احتضنت عمى مودعة دون أن تسقط الدموع من عينيها. هتفت:

- «جروبن»!

قالت لى:

- إذهب عزيزى «أكسيل». أنت تودع الآن خطيبتك لكنك ستجد زوجتك عند العودة.

احتضنتها ثم ذهبت إلى مكانى فى العربة بينما «مارت» والفتاة الصغيرة تقفان على عتبة الباب لتوديعنا.

(٨)

«ألتونـا» أهـم ضواحـى «هامبـورج» و هـى أول الخـط لقطـار «كيـال» الـذى سيقودنا إلـى سـاحل «بلـت» وصلنـا رصيف «هولشـتاين» خـلال عشـرين دقيقـة.

فـى السادسـة و النصـف توقفـت العربـة أمـام المحطـة. كان مـع عمـى عـدد كبيـر مـن الرسـائل و كتـب الرحـلات. تم وزن كل ذلـك ووضـع الملصقـات عليـه و تحميلـه فـى عربـة الأمتعـة. فـى السـابعة أصبحنـا نجلـس داخـل القطـار كل منـا فـى مواجهـة الآخـر. صفـر القطـار و تحركـت القاطـرة. بدأنـا الرحلـة.

هـل أنـا مقبـوض علـىّ؟ ليـس بعـد. هـواء الصبـاح الطـازج أنعشـنى، المشـاهد التـى تتبـدل مـع سـرعة القطـار جذبـت انتباهـى.

بالنسـبة لعمـى فهـو يعتقـد أن القطـار يتحـرك ببطء شـديد. لا يوجـد غيرنـا فـى العربـة و لا نتحـدث مـع بعضنـا. راح عمـى يتفحـص جيوبـه و حقيبـة يـده بعنايـة شـديدة. أعلـم جيـداً أنـه لا ينقصـه أى شـىء مـن لـوازم الرحلـة.

مـن بـين أوراقـه توجـد ورقـة نظيفـة مـن قـاض دنماركـى تحمـل توقيـع «كريسـتيانسـون»، إنـه القنصـل فـى «هامبـورج» و صديـق

للبروفوسير. هذا يسهل علينا الحصول على التصريح من الحكومة الأيسلندية.

لمحت أيضًا المخطوط الخطير، يحتفظ به فى جيب سرى فى محفظته. أكره هذا المخطوط من كل قلبى. أدرت رأسى و رحت أتابع المشهد من النافذة. الحقول تتمدد إلى الأفق، الأرض شديدة الخصوبة. هذه المشاهد محببة جدًا لكل ركاب القطارات لكنى لم أستطع الاستمتاع بهذه المشاهد كثيرًا لأن القطار توقف بعد ثلاث ساعات فى «كيال» على بعد خطوتين من البحر.

تم وضع ختم «كوبنهاجن» على الحقائب دون أى مجهود ومع ذلك ظل عمى يتابع تحميلها فوق السفينة البخارية إلى أن وضعوها فى المكان المخصص.

اكتشف عمى أن أمامنا يوم كامل. الباخرة لن تتحرك إلا فى المساء. فى هذه الظروف يتجول المسافرون فى شوارع المدينة ويستمتعون بوقتهم، لكن عمى حاول إقناع القبطان بالإبحار فورًا لكنه رفض و نصحه بالتجول فى المدينة.

تجولنا على الساحل الأخضر بينما تبدو أشجار الكستناء خلف المدينة الصغيرة. تجولنا فى الشوارع بين البيوت الخشبية الصغيرة و عدنا فى العاشرة مساءً.

ارتفع دخان الباخرة فى السماء و ارتجفنا مع اهتزازات المحرك. كان عمى قد حجز لنا فراشين فى الغرفة الوحيدة الموجودة على الباخرة. أبحرنا فى العاشرة و الربع.

العتمة شديدة، الرياح عنيفة و البحر ثائرٌ بينما تبدو بعض الأضواء فى العتمة. لمحت الفنار من بعيد جداً. هذا ما تبقى من ذاكرتى من بداية الرحلة.

وصلنا «كورسور» فى السابعة صباحًا. مدينة صغيرة على شاطئ «سيلاند» و هنا قفزنا فى قطار آخر عبر بنا حقول لا تقل إتساعًا عن حقول «هولشتاين».

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى عاصمة الدنمارك. لم ينم عمى طوال الليل. بدا لى كأنه يحاول تعجل القطار بحركة ساقيه. فى النهاية لمح المياه فصرخ:

- «السوند».

كان على يسارنا مبنى يشبه المستشفى. قال رجل يقف جوارنا:

- مستشفى المجانين.

قلت فى نفسى: حسنًا، هو المكان المناسب لقضاء أيامنا الأخيرة. رغم ضخامة المبنى لكنى أعتقد أنه صغيرٌ جداً لإحتواء جنون البروفوسير «ليدنبروك».

أخيـرًا، فـى السادسـة صباحًـا اتجهنـا إلـى «كوبنهاجـن» سـيرًا علـى الأقـدام. حملنـا حقائبنـا علـى عربـة قادتنـا إلـى فنـدق «فونكس» خـلال نصـف سـاعة. دخـل عمـى للاسـتحمام السـريع و أنـا بعـده. بـواب الفنـدق يتحـدث الألمانيـة و الإنجليزيـة لكـن عمـى الـذى يعـرف لغـات كثيـرة حدثـه بالدنماركيـة. أشـار لـه البواب إلى متحف الشـمال.

المبنـى ضخـم و يحتـوى علـى تحـف كثيـرة، أسـلحة حجريـة ومجوهـرات و أشـياء أخـرى كثيـرة. بهـذه التحـف نسـتطيع دراسـة تاريـخ المدينـة كلـه. مديـر المتحـف هـو البروفوسـير «تومسـون» و هـو عالـم أيضًـا و صديـق لقنصـل «هامبـورج».

كان عمـى يحمـل لـه خطـاب توصيـة. فـى الغالـب، العلمـاء، لا يرحبـون ببعضهـم البعـض جيـدًا لكـن مـا حـدث يختلـف عـن المعتـاد. السـيد «تومسـون» رجـل جـاد، اسـتقبل البروفوسـير «ليدنبـروك» بحفـاوة و رحـب بابـن أخيـه أيضًـا. مـع ذلـك يجـب حفـظ السـر عـن مديـر المتحـف، لكنـه علـم أنـه يجـب علينـا زيـارة أيسـلندا للتنـزه. اهتـم السـيد «تومسـون» بالأمـر و ذهـب يبحـث لنـا عـن سـفينة.

كنـت أتمنـى اختفـاء كل وسـائل المواصـلات تمامًـا. لكـن أمنيتـى لـم تتحقـق. لقـد وجدنـا سـفينة دنماركيـة صغيـرة سـترحل إلـى «ريكشـواك» يـوم ٢ يونيـو. قبطـان السـفينة يـكاد يحطـم يديـك وهـو يصافحـك مـن فـرط قوتـه و حماسـته. هـذا القبطـان الشـجاع

اندهـش مـن تعجـل عمـى و طالبـه بضعـف الأجـر، و بعـد أن حصـل علـى الـدولارات قـال:

- سنصل صباح الثلاثاء فى السابعة صباحًا.

شـكرنا السـيد «تومسـون» علـى اهتمامـه و عدنـا إلـى الفنـدق. قـال عمـى مبتهجًـا:

- الأمـور تسير بشـكل جيـد. مـن حسـن الحـظ أن عثرنـا علـى هـذه السـفينة الجاهـزة للإبحـار. الآن نتنـاول طعامنـا.

توجهنـا إلـى ميـدان قـديم حيـث يوجـد مدفعـان قديمـان لا يخيفـان أحـد. فـى المبنـى رقـم ٥ عثرنـا علـى مطعـم فرنسـى و تناولنـا طعامًـا يتناسـب مـع مبلـغ أربعـة فرنـكات لـكل منـا.

ثـم شـعرت ببهجـة الأطفـال أثنـاء التجـول فـى المدينـة. عمـى يسـير جـوارى و لا يـرى شـيئًا، لا يـرى قصـور الملـوك و لا الجسـور العتيقـة التـى تعـود إلـى القـرن السـابع عشـر و هـى تعبـر فـوق القنـاة أمـام المتحـف، لـم يهتـم بقبـر «توروالـدن» المزيـن بالنقـوش الحجريـة المخيفـة و الـذى يحـوى داخلـه أعمـال هـذا النحـات. لـم يهتـم بقصـر «روزنبـورج» الرائـع و لا تماثيـل «بـورس» و لا الأجـراس المزينـة علـى شـكل ذيـل الدارجـون مـن البرونـز. لـم يهتـم بالطواحـين الكبيـرة التـى تتحـرك بسـرعة كبيـرة مـع ريـاح البحـر.

أتمنى أن أقوم بهذه الجولة مع جميلتى الملائكية، لكنها للأسف بعيدة جداً. هل سأراها مرة أخرى؟

لم يهتم عمى بكل هذه المشاهد لكنه ذُهل عندما رأى جرس فوق جزيرة «أماك»، إنه الحى الشمالى الغربى لمدينة «كوبنهاجن». تلقيت الأمر منه بالاتجاه إلى هذا الجانب. صعدت فوق قارب بخارى ينطلق بسرعة قذيفة المدفع و خلال لحظات أصبحنا على رصيف «دوك يارد».

عبرنا شوارع ضيقة حيث صانعى التحف يرتدون بنطلونات نصفها أصفر و نصفها رمادى ثم وصلنا إلى الكنيسة. لا يوجد بها أى شىء مميز لكن جرسها لفت أنظار عمى. علمت السبب عندما وصلت. لا نصل إلى الجرس إلا من خلال سلم حلزونى و درجات السلم مفتوحة على الهواء الطلق. قال عمى: لنصعد.

قلت فى هلع:

- سأصاب بالدوار.

- ليس هذا عذراً. يجب أن تعتاد ذلك.

- مع ذلك...

- هيا، لا تضيع الوقت.

يجب الطاعة. الحارس الذى يسكن فى الجانب الآخر من الشارع أتى لنا بالمفتاح.

عمى يسبقنى بخطوات رشيقة و أنا أتبعه مذعورًا. بدأت أشعر بالدوار رغم أننى مازلت على الأرض. ليس لدى أجنحة وليس لدى قوة أعصابه.

عندما وصلنا إلى العتبة الداخلية شعرت بالراحة، لكن بعد مائة و خمسين خطوة هبت الرياح تضرب وجهى، لقد وصلنا إلى قاعدة الجرس. هنا يبدأ السلم الهوائى محاط بدرابزين منخفض و الدرجات ضيقة جدًا، يبدو أنها تصعد إلى ما لانهاية. صرخت:

- لا أستطيع أبدًا.

قال البروفوسير بعصبية:

- هل أنت جبان؟ اصعد.

جاهدت لأتبعه بخطوات متشنجة. الهواء الطلق أصابنى بالذعر، بدا لى أن الجرس يتحرك من أثر الريح. تقلصت عضلات ساقى ثم قدماى ثم بطنى. أغلقت عيناى و عندما وجدت نفسى فى أعلى منطقة جذبنى عمى من القميص و هو يقول:

- انظر يجب أن تعتاد الهاوية.

نظرت فرأيت البيوت صغيرة وسط الضباب فى الأسفل بينما السحب تمر فوق رأسى. شعرت كأن البرج كله يرتج. من بعيد تمتد الحقول الخضراء و من الناحية الأخرى يمتد البحر تحت أشعة الشمس. نهر السوند يجرى وسط المدينة حاملاً أشرعة بيضاء مثل أجنحة ضخمة. من بين الضباب لمحت شواطئ السويد. كل هذه المشاهد اضطربت أمام عينيى و مع ذلك يجب أن أظل ثابتًا و أنظر. الدرس الأول استمر لمدة ساعة ثم سمح لى بالهبوط و هو يقول:

- سنعود غدًا.

بالفعل استمرت هذه التدريبات لمدة خمسة أيام و بالتدريج تعلمت فن تسلق المرتفعات.

●●●

(٩)

وصلنا إلى يوم الرحيل. بالأمس أتى لنا السيد «تومسون» بخطابات توصية للكونت «ترامب» حاكم أيسلندا، و السيد «بيترسون» معاون المطرانية و السيد «فينسين» محافظ «ريكشواك». مقابل ذلك صافحه عمى بحرارة.

يوم ٢ من الشهر، فى السادسة صباحًا، حملوا حقائبنا الثمينة فوق السفينة و قادنا القبطان إلى كابينة ضيقة جدًا. سأل عمى:

- هل الريح مناسبة؟

أجاب القبطان:

- جدا، الريح تهب من الجنوب الشرقى. سنخرج من النهر ونحن رافعين الأشرعة.

خلال لحظات بدأت السفينة فى العمل و رفعوا الأشرعة وأبحرنا. ابتعدنا عن عاصمة الدنمارك بساعة. أصبحنا فى المياه العميقة لكن مازلنا على شاطئ «السوند» و لمحت القصر الضخم. فى هذه الحالة النفسية كنت أتوقع رؤية شبح «هاملت» يحكم الأرض الأسطورية. قلت فى نفسى: يالها من أهوال سنخوضها من أجل الوصول إلى مركز الأرض لنتحقق من شكوك عمى الأبدية.

لكن لم يظهر شىء على الجدران العتيقة. القصر يبدو أحدث من الأمير الدنماركى. يستخدمونه الآن مسكن فاخر لحراس مضيق «السوند» حيث تمر كل عام خمس عشرة ألف سفينة من كل الجنسيات.

اختفى قصر «كرونجربوج» فى الضباب و اختفى برج «هولشنبرج» الموجود على الشاطئ السويدى و اندفعت السفينة بخفة متجاوبة مع الريح.

السفينة شراعية. لا أعرف كيف يبحرون؟ إنهم ينقلون الفحم و الأدوات المنزلية و المصنوعات الخفيفة و الملابس الصوفية بالإضافة إلى الحبوب إلى «ريكشواك». الطاقم يتكون من خمسة رجال، كلهم دنماركيون، و أعتقد أن العدد كافى للإبحار. سأل عمى:

- ما هى مدة الإبحار؟

أجاب القبطان:

- عشرة أيام إن لم نحمل حبوب كثيرة من «فيرو».

- لم تخبرنى بهذا من قبل.

- لا تقلق سيد «ليدنبروك»، سنصل فى الموعد المحدد.

فـى المسـاء وصلنـا إلـى رأس «سـكاجن» علـى حـدود الدنمـارك ثـم إلـى حـدود النرويـج ثـم اتجهنـا إلـى بحـر الشـمال. بعـد يومـين وصلنـا إلـى سـاحل «إيكـوس».

اصطدمـت السـفينة بأمـواج الأطلنطـى و جاهـدت ضـد ريـاح الشـمال و لـم نصـل «فيـرو» إلا بعـد مشـقة.

فـى يـوم ٨ مـن الشـهر وصلنـا إلـى «ميجانـس»، أول الجـزر مـن ناحيـة الشـرق ثـم اتجهنـا مباشـرة إلـى رأس «بورتلانـد» الموجـودة علـى السـاحل الجنوبـى لأيسـلندا.

لـم يحـدث أثنـاء الرحلـة أيـة أحـداث هامـة. تحملـت مشـقة ركوب البحـر بشـجاعة لكن عمـى شـعر بالتعب الشـديد و هـذا شـىء مخجـل.

لـم يخبـر القبطـان بهدفـه «سـنيفيل»، و لـم يخبـره بخطابـات التوصيـة التـى يحملهـا. احتفـظ بـكل هـذه الأسـرار إلـى أن نصـل. لقـد أمضـى كل الوقـت فـى الكابينـة التـى تـرتج بعنـف تحـت تأثيـر الأمـواج. فـى الحقيقـة أقتنـع تمامًـا برجاحـة عقلـه.

فـى يـوم ١١ وصلنـا إلـى رأس «بورتلانـد». كان الجـو صحـوًا ممـا سـمح لنـا برؤيـة «ميـردال يـوكل» التـى تطـل علـى المـكان الـذى يبـدو كئيبًـا جـدًا.

عندما اقتربنا من الساحل اتجهت السفينة إلى الغرب وتجمع حولنا مجموعة كبيرة من الدرافيل و الحيتان. ثم رأيت صخرة ضخمة و البحر ثائرٌ حولها. بدت لنا جزر «وستمان» مثل إبر صغيرة فى عرض البحر. هنا دارت السفينة و اتجهت إلى رأس «ريكشواك» الموجودة على الساحل الغربى لأيسلندا. كان البحر ثائرًا حتى أن عمى عجز عن الوقوف وسط المركب لمتابعة ما يحدث.

نجحنا فى الهروب من العاصفة بعد ثمانى و أربعين ساعة. أجبرتنا العاصفة على التوجه إلى قمة «سكاجن» الخطيرة لأن المياه هنا ضحلة. بعد ثلاث ساعات أصبحنا فى مواجهة «ريكشواك».

خرج البروفوسير من الكابينة شاحبًا مجهدًا لكنه دائمًا متحمسًا يرقب ما يحدث برضا. رأينا الناس تتجمهر فوق الرصيف يترقبون وصولنا، كل منهم ينتظر استلام بضائعه.

غادر عمى سجنه العائم بسرعة، و قبل أن يهبط من السفينة قادنى إلى مقدمتها و أشار إلى جهة اليسار من الخليج فرأيت جبلاً شاهقًا له قمتين مغلفتين بالجليد. صرخ:

– «سنيفيل» .. «سنيفيل»!

ثم أشار لى بما يعنى أنه يجب الالتزام بالصمت التام. هبطنا إلى الزورق الذى ينتظرنا و أصبحنا على أرض أيسلندا.

رأينا رجلاً أنيقًا يرتدى الزى العسكرى، إنه حاكم الجزيرة، البارون «ترامب» بنفسه. البروفوسير عرفه بسرعة و قدم له الخطابات التى أتى بها من «كوبنهاجن». تحدث معه باللغة الدنماركية قليلاً و لم أفهم شيئًا من هذه اللغة. لكنى لاحظت أن البارون «ترامب» مستعد تمامًا لتقديم كل المساعدات و الخدمات للبروفوسير «ليدنبروك».

السيد «فينسون» المحافظ استقبل عمى بترحيب لا يقل عن ترحيب الحاكم، و ربما أكثر ترحيبا بحكم منصبه. أما بالنسبة للسيد «بيترسون» كان يقوم بجولة تفقدية لممارسة عمله. لكننا وجدنا رجلاً ذا مكانة رفيعة، السيد «فريدريكسون» أستاذ العلوم الطبيعية فى مدرسة «ريكشواك». هذا الرجل المتواضع لا يتحدث إلا الأيسلندية و اللاتينية، جاء ليقدم خدماته بشكل جداول وأرقام. يبدو أنه اتبع هذا الأسلوب لنتفاهم. و فى الحقيقة هو الرجل الوحيد الذى استطعت التفاهم معه أثناء إقامتنا فى أيسلندا.

منزله يتكون من ثلاث حجرات، ترك لنا حجرتين و وضعنا حقائبنا الكثيرة التى أذهلت سكان «ريكشواك» لكثرتها. قال عمى:

– حسنًا «أكسيل»، انتهينا من أصعب شىء.

هتفت:

- كيف؟ أصعب شىء؟

- بالتأكيد، الآن لا ينقصنا إلا الهبوط.

- لكنى أعتقد قبل أن نهبط يجب أن نصعد.

- هذا لا يشغلنى أبدًا. الأمر بسيط. ليس لدينا وقت لإضاعته. سأذهب إلى المكتبة. ربما عثرت هناك على أى مخطوط عن «ساكنوسم». أتمنى ذلك.

- سأذهب لزيارة المدينة. ألا تريد أن تفعل ذلك؟

- آه! هذا لا يشغلنى أبدًا. المهم فى أرض أيسلندا يوجد فى الأسفل و ليس فى الأعلى.

ذهبت للتجول عشوائيًا.

من الصعب أن تتوه فى شارعى «ريكشواك». لا داعى لسؤال الناس عن طريقك.

المدينة تمتد فوق أرض منخفضة مليئة بالمستنقعات بين هضبتين. من ناحية نجد مخر للحمم البركانية يهبط بسلاسة نحو البحر. من الناحية الأخرى يمتد خليج كبير و فى نهايته جبل «سنيفيل» الجليدى. فى هذا الوقت لم يكن فى الميناء إلا سفينتنا.

من البديهى أن حرس الحدود الإنجليز و الفرنسيين يعملون هنا بجد و نشاط. لكنهم مشغولين الآن فى الساحل الغربى من الجزيرة.

الشارع الأكبر موازيًا للساحل. هنا نجد التجار و المهمشين يعيشون فى بيوت خشبية مصبوغة باللون الأحمر. الشارع الآخر يقع فى الغرب و هو شارع صغير ينتهى ببحيرة صغيرة، هنا يعيش رجال الدين و أشخاص آخرون لا يعملون بالتجارة.

بدأت بهذا الطريق الضيق الكئيب. تجولت على النجيلة التى تبدو مثل سجادة قديمة من الصوف. لا يوجد هنا إلا القليل من الخضراوات و البطاطس و الكرنب و الخس، لا تكفى إلا لمائدة حقيرة، كما يوجد بعض الزهور تجاهد للحصول على نصيبها من أشعة الشمس.

فى وسط الطريق غير التجارى رأيت المقابر العامة محاطة بالجدران. بعد عدة خطوات وصلت إلى منزل الحاكم الذى يشبه فنادق «هامبروج»، قصر وسط أكواخ البسطاء.

بين البحيرة الصغيرة و المدينة نجد الكنيسة على الطراز البروتستانتى مشيدة من الصخور الكالسية القادمة من البركان وسقفها باللون الأحمر.

جوار الكنيسة نجد المدرسة الوطنية و علمت بعد ذلك أنهم يدّرسون فى هذه المدرسة أربع لغات هى العبرية، الإنجليزية، الفرنسية و الدنماركية. أشعر بالخجل لأننى لا أعلم كلمة واحدة فى هذه اللغات.

خلال ثلاث ساعات زرت المدينة كلها بكل ضواحيها. بصفة عامة المكان كئيب جداً. لا يوجد أشجار، لا توجد الزراعة من الأصل بينما نجد الصخور البركانية فى كل مكان.

عامة السكان يعيشون فى بيوت بسيطة تبدو كأنها مجرد أسطح فوق الأرض. لا يزرعون إلا حول هذه البيوت الصغيرة ويحتفظون بالحيوانات الأليفة جوارهم. فى هذا الشارع لم ألتق إلا عدد قليل من السكان.

عندما ذهبت إلى الشارع التجارى رأيت عدد أكثر من الناس، معظمهم يعمل فى تجفيف و تمليح و تحميل الأسماك. إنها المهنة الأساسية هنا. الرجال يتمتعون بالفخامة و الرشاقة أيضًا، يبدون شبه الألمان، الشعر أصفر و العيون مفكرة. يبدو أنهم لا يشعرون بالمشاعر الإنسانية، يعانون شظف العيش فى هذه الأرض الجليدية. يتأثرون بحياة الإسكيمو الذين يعيشون على حدود أرضهم، و هم لا يبتسمون أبدًا.

ملابسهم عبارة عن سترة سوداء من الصوف، هذا الزى معروف فى كل البلاد الإسكندنافية. يضعون قبعات كبيرة والبنطلون أحمر اللون بالإضافة إلى قطعة من الجلد كأنها حذاء.

وجوه النساء حزينة و محتشمة، لا يبدو أى انفعال على وجوهن لكن لطيفات إلى حد ما. يرتدين قميص و تنورة داكنة. الصغيرات يغطين شعرهن بطرحة صوفية داكنة أما المتزوجات بطرحة ملونة.

بعد النزهة الجميلة عدت إلى المنزل لأجد عمى بصحبة السيد «فريدريكسون».

●●●

(١٠)

التهم عمى العشاء بشراهة. قلة الطعام فى البحر أصابته بالجوع الشديد. ليس لدى أية ملاحظات عن الوجبة سوى أنها دنماركية أكثر منها أيسلندية. لكن مضيفنا بدا أيسلندى أكثر منه دنماركى. كرمه الشديد ذكرنى بأبطال الأساطير.

دارت المحاورة بأسلوب غريب. عمى يذكر الكثير من المترادفات الألمانية بينما السيد «فريدريكسون» يذكر الكثير من الكلمات اللاتينية التى أصبحت أفهمها. دارت المحاورة حول المشكلات العلمية مثلما يحدث فى العادة بين العلماء، لكن عمى كان متحفظًا جدًا فى كلماته، ينظر إلىّ يأمرنى بالصمت التام عندما تقترب المحاورة عن مشروعه.

فى البداية استفسر السيد «فريدريكسون» عن نتيجة بحث عمى فى المكتبة، فصرخ عمى:

- مكتبة! إنها لا تحوى إلا كتب قديمة عديمة الجدوى.

سأل السيد «فريدريكسون»:

- كيف ذلك؟ لدينا ثمانية آلاف كتاب، الكثير منها نادر و ذو قيمة عالية. لدينا كتب باللغة الإسكندنافية القديمة بالإضافة إلى الكتب الحديثة التى ترسلها لنا «كوبنهاجن» كل عام.

– أين الثمانية آلاف كتاب؟ أنا لم أجد ...

– آه! سيد «ليدنبروك»، هذه الكتب منتشرة فى كل مكان فى المدينة. نحن نحب العلم فى هذه المدينة الجليدية الصغيرة. لا يوجد فلاح و لا صياد فى المدينة إلا يعلم القراءة، و يقرأ كثيرًا. نحن نعتقد أنه بدلاً من الاحتفاظ بالكتب على الأرفف الحديدية بعيدًا عن عيون الفضوليين يجب أن نضعها أمام أعين القراء. لهذا تنتقل الكتب من يد إلى يد و فى الغالب لا يعود الكتاب إلى مكانه إلا بعد عام أو عامين.

قال عمى فى استياء:

– معك حق، لكن بالنسبة للأجانب...

– ماذا تريد؟ الأجانب لديهم مكتباتهم. و قبل أى شىء يجب أن يتعلم سكان المدينة. أكرر حب العلم يجرى فى عروق الأيسلندى. فى عام ١٨١٦ أقمنا مجمع ثقافى و نجح بشكل جيد و إنضم إلينا علماء أجانب. نشروا أبحاثهم بين المواطنين و قدموا لنا خدمات جليلة. لو أردت الإنضمام لهذا المجمع سيكون هذا شرف كبير لنا.

وافق عمى على الإنضمام إلى هذا المجمع، كما أنه يشترك فى مجمعات علمية كثيرة فى أماكن مختلفة. قال مضيفنا:

– الآن أخبرنى عن الكتاب الذى تبحث عنه فى مكتبتنا . ربما أستطيع تقديمه لك.

نظرت إلى عمى و رأيته يتردد كثيرًا، هذا يمس مشروعه السرى. بعد أن فكر كثيرًا قال:

– سيد «فريدريكسون»، أريد أن أعرف إذا كان بين كتبكم القديمة توجد كتابات «أرن ساكنوسم»؟

– «أرن ساكنوسم»! هل تقصد العالم الذى يعود إلى القرن السادس عشر! إنه عالم كبير فى الجيولوجيا، و كيميائى كبير ورحال عظيم.

– صحيح. هذا ما أبحث عنه.

– إنه وسام شرف فى الثقافة الأيسلندية.

– فعلاً.

– معروف فى كل مكان.

– أتفق معك.

– إنه عبقرى، خارق الذكاء.

– ألاحظ أنك تعرفه جيدًا.

لم يستطع عمى إخفاء سعادته ثم سأل:

- أين كتاباته؟

- كتاباته ليست لدينا.

- ماذا؟ فى أيسلندا؟

- لا توجد فى أيسلندا و لا فى أى مكان آخر.

- لماذا؟

- لأن «أرن ساكنوسم» كان مضطهدًا بحجة الهرطقة. فى عام ١٥٧٣ أحرقوا كتبه فى كوبنهاجن.

- حسنًا.

دُهش السيد «فريدريكسون» و هو يسأل:

- ماذا تقول؟

- الآن اتضح كل شىء. الآن فهمت لماذا لجأ «ساكنوسم» لكتابة أسراره بالشفرة...

سأل السيد «فريدريكسون» بسرعة:

- أية أسرار؟

تلعثم عمى و هو يقول:

- أسرار... تعود...

سأل مضيفنا:

- هل لديك مخطوط له؟

- لا. مجرد تخمينات.

لاحظ السيد «فريدريكسون» اضطراب عمى فقال:

- حسنًا، أتمنى ألا تغادر جزيرتنا قبل أن تطلع على أبحاثه.

- بالتأكيد، لكنى وصلت متأخرًا. هل أتى علماء إلى هنا من قبل؟

- نعم سيد «ليدنبروك». نعم، أتت إلينا السيدة «أولافسن» بأمر من الملك نفسه، بالإضافة إلى السيدة «جيمار» أتت على سفينة حربية فرنسية و كثيرون غيرهم. لكن صدقنى مازالت هناك أسرار كثيرة يجب البحث عنها.

سأل عمى و هو يحاول أن يخفى البهجة فى عينيه:

- هل تعتقد ذلك؟

- نعم، لدينا الكثير من الجبال الجليدية و البركانية لا نعلم عنها إلا القليل. انظر إلى هناك، هذا الجبل الذى يبدو فى الأفق هو جبل «سنيفيل».

- آه!

- نعم، إنه من أهم البراكين لأننا نجهله تماما، لا أحد يذهب إلى هناك إلا نادرًا.

- خامد؟

- نعم، خامد منذ خمسمائة عام.

أجاب عمى و هو يضع يديه على ركبتيه ليمنع نفسه من القفز:

- حسنا، أرغب أن أبدأ دراساتى الجيولوجية بجبل «سى»... «فسل» ما اسمه؟

- «سنيفيل».

نهاية المحاورة دارت باللغة اللاتينية و فهمت كل شىء. حاولت الإحتفاظ بمظهر الجدية بينما بدا لى عمى بريئًا كأنه لا يعلم شيئًا. فى هذه اللحظة بدا لى كأنه شيطان ماكر، ثم قال:

- نعم، حديثك أثار فضولى، سأتصلق «سنيفيل»، ربما استطعت دراسة هذه الفوهة.

قال السيد «فريدريكسون»:

- أعتذر، لو لم يكن لدى بعض الأعمال لرافقتك فى هذه الرحلة بكل سرور.

– آه! لا نريد مضايقة أحد سيد «فريدريكسون». أشكرك من كل قلبى. وجودك جوارى مهم جدًا لكن واجبات عملك...

أدركت أن مضيفنا البرئ لا يعلم شيئًا عن مكر عمى. قال السيد «فريدريكسون»:

– أتمنى أن تبدأ بهذا البركان، ستكشف لنا الكثير عن الحقائق العلمية. لكن أخبرنى كيف ستصل إلى شبه جزيرة «سنيفيل»؟

– بالبحر، سأعبر الخليج. هذا أسرع طريق.

– بلا شك. لكن هذا مستحيل.

– لماذا؟

– لأنه لا يوجد لدينا أى زورق فى «ريكشواك».

– اللعنة!

– يجب الذهاب عن طريق الأرض. هذا الطريق أطول لكنه أكثر إثارة.

– حسنا، يجب الاستعانة بمرشد.

– لدى المرشد المناسب.

– رجل جاد، ذكى؟

- نعم، من سكان المنطقة. إنه صياد بط، قوى و مخلص، ستستعد به. يتحدث الدنماركية بطلاقة.

- متى أقابله؟

- غدًا إذا أردت.

- و لماذا لا أقابله اليوم؟

- لأنه لن يصل إلا غدًا.

استنشق عمى نفسًا عميقًا و هو يقول:

- إذا، إلى الغد.

هذه المحاورة الهامة انتهت بمصافحة حارة بين العالمين الألمانى و الأيسلندى. أثناء هذا العشاء علم عمى أشياء هامة جدًا عن حكاية «ساكنوسم»، علم لماذا كتب بالشفرة و علم أن مضيفنا لن يرافقنا. غدًا سنلتقى المرشد.

●●●

(١١)

مساء هذا اليوم ذهبت لجولة قصيرة فى شاطئ «ريكشواك» و عدت مبكرًا. توجهت إلى الفراش الوثير و رحت فى نوم عميق. عندما استيقظت سمعت عمى يتحدث فى الحجرة المجاورة فذهبت إليه بسرعة.

كان يتحدث مع رجل دنماركى فارع الطول طافح بالصحة، يتمتع برأس ضخم. رغم أنه يبدو ساذجًا لكن الذكاء يبدو فى نظرات عينيه الزرقاء الحالمة. شعره الطويل فى لون الصدأ يسقط على أكتافه. حركات هذا الرجل الحقير بسيطة، لا يحرك إلا ذراعيه قليلاً. يبدو كأنه يجهل لغة الحركات. بصفة عامة يبدو هادئًا لكن لا يصل إلى درجة الكسل. نشعر أنه ليس طماعًا، لا يعمل إلا بالاتفاق معه و فلسفته ليست مدهشة و لا مضطربة.

أدهشنى بطابعه الحزين و صبره الطويل فى الاستماع لمحدثه. ظل ثابتًا مكتوف الأيدى بينما عمى يتحرك بنشاط شديد. لا يحرك إلا رأسه يمينًا و يسارًا بما يعنى النفى، أو يحرك رأسه من أعلى لأسفل بما يعنى الإيجاب. مع هذه الحركات يتحرك شعره قليلاً. يبدو أنه التوفير فى الحركة لدرجة البخل.

بالتأكيد عندما تلتقى هذا الرجل لن تتوقع أبدًا أنه صياد. الصيادون لا يهابون الفرائس، واثقين من أنفسهم. كيف يصطاد هذا الرجل؟

علمت كل شىء من السيد «فريدريكسون» بعد ذلك. هذا الرجل الهادئ ما هو إلا صياد بط. أعشاش هذه الطيور موجودة بوفرة فى الجزيرة. لا نحتاج إلى مجهود كبير لإصطيادها. فى أول أيام الصيف تبنى الإناث أعشاشها وسط الصخور. تبنى أعشاشها من الرياش الخفيفة التى تنتزعها من بطنها ثم تضع البيض. ثم يأتى الصيادون و يأخذون العش كله و تعود الإناث إلى بناء أعشاش جديدة. لا أحد يعلم لماذا لا تذهب هذه الطيور لبناء أعشاشها فى الصخور البعيدة. هذا يجعل الفلاحين الذين لا يزرعون لا يفعلون شيئًا سوى جمع البط.

هذا الرجل الجاد المتبلد الصامت يدعى «هانز بشلك». أتى بطلب من السيد «فريدريكسون». سيصبح مرشدنا فى الأيام القادمة. طباعه تختلف تمامًا عن طباع عمى. مع ذلك التفاهم بينهما سهل. لا يهتم أى منهما بالمال. أحدهما يوافق على أى أجر و الآخر مستعد لدفع كل المطلوب منه. لا يمكن أن يحدث الاتفاق أسهل مما يحدث الآن.

الاتفاق على أن يقودنا «هانز» إلى قرية «ستابى» الموجودة على الساحل الجنوبى فى شبه جزيرة «سنيفيل»، أسفل البركان. سنسير لمسافة ٢٢ ميل تقريبًا، أى أن الرحلة تستغرق يومين حسب رأى عمى. لكن عندما علم بوجود دنماركيين على بعد ٢٤ ميل ارتبكت حساباته. لا يكفى سبعة و لا ثمانية أيام.

يجب إعداد أربع أحصنة، اثنان لحملى أنا و عمى و اثنان لحمل حقائبنا بينما «هانز»، حسب العادة، يسير على الأقدام. إنه يعلم هذه المنطقة جيدًا و يعلم أقصر الطرق.

الاتفاق مع عمى ليس لوصولنا إلى قرية «ستابى» بل سيظل بصحبتنا و فى خدمتنا طوال الرحلة العلمية و منحه عمى الأجر المعتاد لأى مرشد فى هذه المنطقة. سنتحرك يوم ١٦ يونيو. أراد عمى أن يمنحه قسطًا من الأجر لكنه رفض قائلاً: فيما بعد.

بعد انصرافه صرخ عمى:

- رجل عظيم، و هو لا يعلم المكانة الرفيعة التى سيحصل عليها فى المستقبل.

- سيصحبنا إذا إلى...

- نعم «أكسيل»، سيصحبنا إلى مركز الأرض.

لا يبقى أمامنا إلا ثمانى و أربعين ساعة. يجب استغلال هذا الوقت فى إعداد كل شىء. يجب وضع كل شىء فى مكانه ليسهل الوصول إليه عند الحاجة. الأدوات العلمية فى جانب والأسلحة فى جانب آخر، بينما الأدوات غير العلمية فى جانب ثالث والمأكولات فى جانب رابع.

كانت الأدوات العلمية عبارة عن:

ترمومتر متدرج حتى مائة و خمسين درجة. هذا يبدو قليلاً جدًا أو كثيرًا جدًا. لو كانت الحرارة شديدة كما أتوقع سننصهر و لو صدقت توقعات عمى فلا داعى لهذا المقياس الكبير.

مقياس للضغط لمعرفة الضغط الجوى تحت مستوى سطح البحر. فى الحقيقة المقياس العادى ليس كافيًا لأن الضغط سيزداد كلما هبطنا إلى أسفل.

كرونومتر مضبوط على جنوب «هامبورج».

بوصلتان مختلفتان.

نظارة ليلية.

مصباحان يعملان بالكهرباء الضعيفة لكن الإضاءة جيدة.

جهاز رامكورف.

أما الأسلحة هى بندقيتان و مسدسان. لماذا السلاح؟ لا أعتقد أننا سنواجه حيوانات مفترسة. لكن عمى يتخذ جميع الاحتياطات و جميع الاستعدادات. هذا بالإضافة إلى الخطافات للتثبت فى الصخور، سلم من الحبل يصل طوله إلى ثلاثمائة قدم و ثلاثة عصى من الحديد، فأس و بلطة و عدد ضخم من الأوتاد.

أخيرا الأغذية. هذه اللفافة ليست كبيرة لكن كافية. لدينا من اللحوم المجففة و البسكويت ما يكفى لستة أشهر بالإضافة إلى الخمور. ليس لدينا مياه نقية لكن لدينا زمزميات. عمى يعتقد أننا سنحصل على المياه من المصادر الطبيعية. لكن تساءلت فى نفسى عن درجة حرارة هذه المياه و ما الذى سنفعله إن لم نجدها؟

ليكون الإعداد جيدًا يجب الإهتمام بالصيدلية التى تحتوى على مقصات و شفرات الموسى بالإضافة إلى الضمادات والمطهرات مثل الكحل و أسيتات الرصاص و الأثير.

لم ينس عمى الدخان، لم ينس الحزام الذى سيضعه حول خصره ليحتفظ ببعض العملات الذهبية بالإضافة إلى الأحذية الجيدة المناسبة للمكان، كان لدينا ستة أزواج من الأحذية. أخيرًا أعلن عمى:

– هكذا لدينا الأدوات العلمية و أدوات التصلق و كل شىء. لا ينقصنا إلا الرحيل.

أمضيت يوم ١٤ فى إعداد كل هذه الأشياء و فى المساء تناولنا العشاء عند البارون «ترامب» بصحبة محافظ «ريكشواك» و الدكتور «يالاتن» المشهور هنا. السيد «فريدريكسون» لم يكن معنا. علمت بعد ذلك أنه على خلاف مع الحاكم بسبب شئون الحكم و لا يلتقيان أبدًا. لا أفهم شيئا فى هذه الأمور لكن عمى كان يتحدث وسطهم بطلاقة شديدة.

فى اليوم التالى قدم مضيفنا إلى عمى خريطة دقيقة لأيسلندا مقياسها ٤٨٠٠٠٠/١، مدون بها كل التفاصيل الجغرافية و الطبوغرافية. إنها وثيقة هامة لعلماء الجيولوجيا.

أمضينا الليلة فى جو مبهج مع السيد «فريدريكسون» الذى بدا لى لطيفًا جدًا. هذا ما شعرت به من ناحيتى على الأقل.

فى الخامسة صباحًا استيقظت على صهيل الأحصنة تحت نافذتى. ارتديت ملابسى و نزلت إلى الشارع بسرعة. حمل «هانز» حقائبنا بأقل حركات ممكنة لكنه يعمل بإتقان شديد، و كان عمى مبتهجًا أكثر من اللازم.

انتهينا من ترتيب كل شىء فى السادسة صباحًا. السيد «فريدريكسون» صافح عمى بحرارة و شكره عمى كثيرًا على كرمه. ثم قدم لنا زجاجة خمر لا تُقدم إلا للمسافرين الذين يجهلون طريقهم.

●●●

(١٢)

عندما رحلنا كان الجو غائمًا لكن مستقر. الحرارة ليست مؤلمة و لا يوجد أمطار تعيقنا. الجو رائع للتنزه.

متعة الجرى بالحصان عبر بلاد مجهولة منحتنى السعادة. أشعر بالحرية و الانطلاق و بدأت أهتم بالأمر.

قلت فى نفسى: ما الذى أخشاه فى هذه المغامرة؟ السفر إلى بلاد موحشة؟ تصلق جبل شاهق؟ و بعد ذلك الهبوط فى فوهة بركان خامد؟ من الواضح أن «ساكنوسم» لم يفعل غير ذلك لمعاينة النفق الرائع فى مركز الأرض. يالها من خيالات! يالها من مستحيلات! إذًا يجب الإستمتاع بالرحلة. هذا ما توصلت إليه فور خروجنا من «ريكشواك».

«هانز» يسير أمامنا بخطوات سريعة و ثابتة يتبعه الحصانان المحملان بالأمتعة دون توجيه. أنا و عمى نتبعهم فوق حصانين ليسا مروضين بالدرجة الكافية.

أيسلندا من أكبر جزر أوروبا. مساحتها ألف و أربعمائة ميل و لا يسكنها إلا ستون ألف نسمة. من الناحية الجغرافية تنقسم إلى أربعة أجزاء. عبرنا تقريبًا الجزء الجنوبى الغربى.

بعد أن خرجنا من «ريكشواك» إتبع «هانز» الطريق الساحلى. عبرنا مروج ليست خضراء تمامًا لأن البقع الصفراء تظهر من حين لآخر. القمم الخشنة للكتل البركانية تبدو فى الأفق وسط الضباب من ناحية الشرق. الجليد واضح على الجبال رغم بعد المسافة. بعض القمم الشاهقة يخرق السحاب الرمادى و يختفى تحت الدخان المتحرك.

هذه السلسلة الجبلية الصلدة تبدو مثل جدار ضخم يطل على البحر، لكن يوجد وسط الجدار مساحة كافية للمرور منها. الأحصنة تختار المكان المناسب لمتابعة سيرها دون تردد. لم يستطع عمى إستخدام الكرباج و لا الصراخ لحث الأحصنة على السرعة. يجب عليه أن يصبر. لم أستطع منع نفسى من الضحك عندما رأيته ضخمًا جدًا فوق حصانه الصغير حتى أن أقدامه تلامس الأرض. بدا لى كأنه حيوان خرافى بستة أرجل. قال لى مبتهجًا:

- حيوانات جيدة يا «أكسيل». لا يوجد حصان فى العالم قادر على التحرك وسط الجليد و العواصف و الطرق الصخرية مثل هذه الأحصنة. لا شىء يقف أمامها . حيوانات جيدة واثقة من نفسها. لا تقدم على أية خطوة خاطئة و لا تغضب أبدًا. تعبر كل الأنهار و كل الحواجز دون تردد. تندفع فوق المياه مثل الحيوانات البرمائية، أترى؟ لكن لا يجب أن تضغط عليها، أتركهم يتحركون بحرية. سيحملوننا لمسافة عشرة فراسخ فى اليوم.

قلت:

- بالتأكيد، لكن ماذا عن المرشد؟

- آه! هذا لا يشغلنى أبدًا. هؤلاء الناس لا يفكرون فى شىء. إنه يتحرك ببطء حتى لا يتعب. عند الضرورة سأمنحه معطفى. أشعر بتقلصات فى ساقى إذا لم تتحرك. بالنسبة للأذرع لا يوجد أية مشكلة.

مع ذلك كنا نسير بخطوات مسرعة. المنطقة صحراوية تقريبًا. لا يوجد إلا رقعة زراعية هنا أو هناك و بعض بيوت الفلاحين الخشبية. الأرض قاحلة و يوجد بها بعض الحمم البركانية تتلألأ مثل المجوهرات على الطريق. هذه الأكواخ تبدو كأنها تتسول من المارة و يبدو أنهم يستحقون الشفقة. فى هذه البلاد الطرق الممهدة غير موجودة أبدًا و الزراعات البسيطة المتوفرة تمسح خطوات المسافرين بسرعة.

هذا الجزء من الإمارة يقع على بعد خطوتين من العاصمة و هو من أكثر الأماكن إزدحامًا و تحضرًا فى أيسلندا. ترى كيف ستكون بقية المدن؟ سرنا لمسافة نصف ميل دون أن نرى أى فلاح يقف أمام باب كوخه و لا أى راعى يقود قطيعه. لا نرى إلا بعض الأبقار و الخراف تعيش بحرية و طلاقة. كيف سيكون الحال فى المناطق المضطربة بالانفجارات البركانية و الهزات الأرضية؟

سنكتشف ذلك فيما بعد. لكن بنظرة فاحصة على الخريطة ندرك أن الاضطربات الشديدة تحدث داخل الجزيرة. هناك عند الجبال الصخرية البادية فى الأفق. هناك تحدث كل الإضطرابات البركانية و تسيل الحمم و الصخور المصهورة. إنها مدينة الأهوال. لذلك أعتقد أننا سنلتقى ناس متوحشين فى شبه جزيرة «سنيفيل».

بعد ساعتين تركنا «ريكشواك» وأصبحنا فى منطقة «أولكيرشا» حيث توجد كنيسة رئيسية. لا يوجد هنا أى شىء ملحوظ. فقط بعض البيوت مثل القرى الألمانية. «هانز» توقف هنا لمدة نصف ساعة و شاركنا الطعام. لا يجيب على أسئلة عمى إلا بكلمتى نعم و لا. و عندما سألنا عن المكان الذى سنقضى به الليلة قال: «جاردار».

بحثت فى الخريطة لأعرف مكان «جاردار» و اكتشفت أنه على بعد أربعة أميال عن «ريكشواك». قال عمى متعجلاً:

– أربعة أميال فقط. أربعة أميال من اثنين و عشرين ميلاً. إنها مجرد نزهة إذًا.

كان يرغب فى التحاور مع المرشد لكن «هانز» قبض على لجام الأحصنة و بدأ السير دون أية كلمة.

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى «كولاجورد» و قمنا بدورة صغيرة للوصول إلى «بنج ستاور». إنه مكان للقضاء و تدق الأجراس فى ساعة الظهيرة. مع العلم أنه لا توجد هنا ساعات فى الكنائس والناس لا تمتلك ساعات و لا يهتمون بالوقت.

هنا انتعشت الخيول و هى تسير بين البحر و الهضبة و بعد ميل واحد أصبحنا فى كنيسة كبيرة. أصبحنا فى الرابعة عصرا و لم نقطع إلا أربعة أميال.

اتساع الشاطئ يصل إلى نصف ميل تقريبًا. الأمواج تضرب الصخور الحادة بعنف. البحر ثائرٌ بين جبلين. يصل اتساع المياه إلى ثلاثة آلاف قدم. مهما بلغ ذكاء الأحصنة لا أعتقد أنها قادرة على عبور هذا المانع. قلت:

- لو كانت الأحصنة ذكية لن تحاول عبور هذه المياه.

لكن عمى لا يرغب فى الانتظار. حث الخيول على العبور لكنها رفضت. ضرب حصانه بالكرباج و هو يدفعه إلى المياه لكن الحصان مازال يرفض تمامًا. و فى النهاية قفز الحصان و ألقى بعمى أرضًا فصرخ:

- حيوان حقير.

قال المرشد و هو يهز أكتافه:

- السفينة.

- ماذا؟ سفينة؟

أشار المرشد إلى سفينة فى المياه فقال عمى:

- كان يجب أن تخبرنا بذلك.

سأل المرشد:

- هل ترغبون فى الوصول إلى الجزيرة؟

أجاب عمى:

- نعم، بالتأكيد.

اتجهت الأحصنة إلى المركب و كان علينا الانتظار حتى تنتهى حركة المد و تهدأ الأمواج.

السادسة مساءً هى اللحظة المناسبة للعبور. اتخذنا أماكننا فوق سفينة مسطحة شبه محطمة و عبرنا لمدة ساعة دون حوادث و لا إصابات. و بعد نصف ساعة أصبحنا فى «جاردار».

●●●

(١٣)

من المفترض أننا فى المساء الآن. ضوء الشمس فى هذا التوقيت لا يدهشنى طالما أننا عند خط عرض خمسة و سبعين. فى أيسلندا الشمس لا تختفى طوال شهرى يونيو و يوليو.

على كل حال الحرارة منخفضة جدًا، أشعر بالبرد و الجوع الشديد. إستقبلونا بحفاوة فى أحد البيوت.

إنه منزل قروى لكن من شدة الكرم تشعر كأنك فى قصر أحد الملوك. صاحب المنزل مد يده مصافحًا بحرارة ثم أشار لنا لنتبعه ببساطة شديدة.

يجب أن نتبعه بالفعل لأن الممر طويل، ضيق، معتم فى هذا المسكن المشيد من الألواح الخشبية. لابد من المرور من هنا للوصول إلى الحجرات الأربعة و هى المطبخ و مشغل لخياطة الملابس و حجرة نوم الأسرة، أما أفضل الحجرات هى حجرة الضيوف. اصطدمت رأس عمى بالسقف عدة مرات بسبب انخفاضه و طول عمى.

قادونا إلى حجرة الضيافة الكبيرة، أرضيتها بلا بلاط و لا خشب بينما زجاج النافذة مصنوع من مخاط الخراف بدرجة شفافية متدنية. أما الفراش ما هو إلا الفراء فوق صناديق

خشبية حمراء مزينة بالطابع الأيسلندى. لا أبحث عن الراحة هنا لكنى تشممت الرائحة الكريهة للأسماك المجففة و اللحوم النتنة و الحليب الفاسد.

بعد أن وضعنا حقائبنا فى الركن سمعنا صاحب المنزل يدعونا إلى المطبخ. هنا لا يوجد نيران إلا فى المطبخ فقط مهما كانت البرودة. قبل عمى الدعوة و اتبعه.

المدخنة العتيقة تتوسط المطبخ. كل الحطب مشتعل و فى السقف نجد ثقب ليسمح بخروج الدخان. يستخدمون المطبخ كأنه صالة طعام أيضًا.

عند دخولنا إلى المنزل قال لنا مضيفنا قبل أن يرانا: استمتعوا بوقتكم. ثم قبلنا فى وجوهنا. ثم قالت زوجته نفس الكلمات و بنفس الطقوس. ثم وضع الزوجان أيديهما اليسرى على صدريهما مما يعنى الترحيب بنا.

بسرعة أدركت أن هذه الأيسلندية هى أم لتسعة عشر طفلاً. الكبار منهم و الصغار، شاحبين حول المدخنة. فى كل لحظة ألمح رأس صغيرة شقراء تخرج من بين الدخان.

إستقبلنا الأطفال بحفاوة شديدة، بسرعة إلتفوا حول أكتافنا و تحت أقدامنا و هم يرددون كلمات الترحيب دون توقف حتى أصبح الضجيج شديداً.

لم ينته هذا الاحتفال إلا بالإعلان عن تناول الطعام. فى هذه اللحظة عاد «هانز» بعد أن انتهى من إطعام الأحصنة. هذا يعنى أنه ترك الأحصنة فى البرارى لتبحث عن طعامها بنفسها وسط الصخور القاحلة. و فى الصباح تعود من تلقاء نفسها لممارسة عملها مثل الأمس. ألقى «هانز» التحية ثم اندفع يقبل صاحب المنزل و زوجته و التسعة عشر طفلاً.

انتهى الاحتفال و أصبحنا أربعة و عشرين نلتف حول المائدة. الأطفال يجلسون فوقنا. أسعدنا حظًا يجد طفلين فوق ساقيه.

هبط الصمت لحظة وصول الطعام، إنها الغريزة الطبيعية المسيطرة على الإنسان حتى هؤلاء الأطفال الأيسلنديون. مضيفنا قدم لنا مرقة الأشنة غير جيدة أبدًا ثم قطعة ضخمة من السمك المجفف تسبح فى الزبد الفاسد منذ عشرين دقيقة. و هذا الزبد يفضله الأيسلنديون على الزبد الطبيعى. بالإضافة إلى حليب رائب مع البسكويت المخلوط بالعصير. أما بالنسبة للشراب هناك حليب مخلوط بالمياه و هذا الشراب معروف فى هذه البلاد. لا أستطيع الحكم على هذه الوجبة. كنت أعانى الجوع الشديد والتهمت الطعام حتى آخره.

بعد الطعام اختفى الأطفال بينما الكبار إلتفوا حول النيران حيث يشتعل بعض الحطب بالإضافة إلى روث الأبقار و عظام

الأسماك المجففة. بعد أن شعروا بالدفء انسحبوا إلى حجرتهم. مضيفتنا طلبت منا، حسب العادة هنا، خلع أحذيتنا و بنطلونتنا. لكننا رفضنا و لم تلح علينا. أخيرًا ذهبت إلى فراشى من الفراء.

فى الخامسة صباحًا من اليوم التالى ودعنا القروى الأيسلندى. منحه عمى مكافأة مالية لكنه رفضها فى البداية و لم يقبلها إلا بعد إلحاح شديد. و أشار «هانز» بالرحيل.

على بعد مائة خطوة من «جاردار» بدأت الأرض تغير هيأتها. أصبحت المستنقعات كثيرة و يصعب السير فيها. من جهة اليسار تمتد سلسلة جبلية ضخمة كأنها حصون طبيعية. صعدنا فوق المنحدرات الصخرية و كان علينا عبور مستنقعات كثيرة دون أن تبتل حقائبنا.

أصبحت الصحراء أكثر وحشة. من حين لآخر نلمح إنسان من بعيد. لو أجبرنا الطريق على الإقتراب نكتشف ضخامة الرأس و البشرة المتلألئة و الشعر الكثيف والبؤس الواضح فى العيون.

هذه الكائنات البائسة لا تأتى للترحيب، بل تهرب مننا لكن ليس بسرعة لأن «هانز» يلقى عليهم التحية بلغتهم. ثم إلتفت إلى عمى و قال له كلمة غريبة. سألت عمى فقال: إنهم مصابون بالإنفجارت البركانية. هذا يحدث كثيرًا هنا. و الزواج منهم ممنوع. لذلك لا يعلمون شيئًا عن بهجة الحياة و يعيشون فى حزن شديد.

الأعشـاب القليلـة الموجـودة تمـوت تحـت أقدامنـا. لا يوجـد أشـجار إلا بعـض شـجيرات القضبـان. لا يوجـد أيـة حيوانـات إلا بعـض الخيـول يعجـز مالكهـا عـن إطعامهـا فيطلقهـا فـى الأرض الشـحيحة. مـن حـين لآخـر نلمـح صقـر فـى السـحب الرماديـة يتجـه نحـو الجنـوب. هـذه الأرض البائسـة جعلتنـى أشـعر بالحنـين إلـى وطنـى.

عبرنـا وديـان كثيـرة لا أهميـة لهـا إلـى أن وصلنـا إلـى خليـج حقيقـى. مـن حسـن الحـظ وصلنـا فـى لحظـة الجـزر و عبرنـا بسـرعة دون الحاجـة إلـى سـفينة.

فـى المسـاء، بعـد أن عبرنـا نهـرى «ألفـا» و «هينـا» حيـث توجـد أسـماك السـلمون بوفـرة، أُجبرنـا علـى المبيـت فـى كـوخ مهجـور لا يصلـح إلا لسـكن الأشـباح و الأرواح الشـريرة فـى الأسـاطير الأيسـلندية. و كان البـرد شـديداً طـوال الليـل.

فـى اليـوم التالـى لـم تحـدث أيـة أحـداث مهمـة. الأرض مازالـت موحشـة كئيبـة. فـى المسـاء كنـا قـد قطعنـا نصـف الطريـق و بتنـا فـى «كروسـولبت».

يـوم ١٩ يونيـو رأينـا الحمـم البركانيـة تتمـدد علـى الأرض لمسـافة ميـل. هنـا يطلقـون علـى الحمـم إسـم «هـراون». الحمـم تبـدو كأنهـا حبـال تلتـف فـى منحنيـات كثيـرة و هـى تهبـط مـن الجبـال القريبـة.

البـركان خامـد لكـن هـذا المشـهد يؤكـد عنفـه. كمـا أننـا تشـممنا رائحـة مصـادر الحـرارة.

لـم نتمكـن مـن دراسـة هـذه الظاهـرة لأنـه يجـب متابعـة السـير فـى الأرض الموحشـة و عبـور المسـتنقعات الكثيـرة. هدفنـا هـو الغـرب. درنـا حـول الخليـج و بـدا لنـا «سـنيفيل» بقمتيـه الجليدتـين علـى بعـد خمسـة أميـال علـى الأقـل.

الخيـول تتابـع سـيرها بنشـاط كأنهـا لا تشـعر بأيـة عقبـات فـى هـذه الأرض القاسـية. أنـا أشـعر بالإرهـاق الشـديد بينمـا عمـى مـازال متماسـكًا و نشـيطًا مثلمـا كان فـى أول يـوم مـن الرحلـة. لا أسـتطيع أن أخفـى إعجابـى بـه و بالمرشـد الـذى يعتبـر الأمـر مجـرد نزهـة.

يـوم ٢٠ يونيـو، فـى السادسـة مسـاء وصلنـا إلـى «بوديـر» التـى تقـع علـى حافـة البحـر. هنـا طالـب «هانـز» بأجـره و منحـه عمـى المبلـغ المتفـق عليـه. هنـا تعيـش أسـرة «هانـز» التـى إسـتقبلتنا بحفـاوة و هنـا شـعرت بـكل تعـب السـفر يـدب فـى جسـدى. لكـن عمـى لا يسـتطيع الصبـر أبـدًا و أعلـن أنـه يجـب الاسـتكمال فـى الغـد.

هنـا نلاحـظ وجـود الصخـور الجرانيتيـة الضخمـة القادمـة مـن الجبـل. قـام عمـى بجولـة حـول قاعـدة البـركان و هـو يقـول فـى نفسـه: هـذا هـو الوحـش الـذى سـأنتصر عليـه.

(١٤)

«ستابى» قرية صغيرة تتكون من ثلاثين كوخ. مشيدة فوق الحمم البركانية تحت أشعة الشمس المنعكسة من البركان. تنتهى بجبل ضخم له شكل غامض.

نعلم أن البازلت صخرى نارى داكن. يتكون بأشكال محددة حسب الظروف. هنا الطبيعة عبقرية فى الهندسة و تعمل بطريقة إنسانية. تبدو كأنها مهووسة بالمثلث قائم الزاوية، البوصلة والرصاص. مهووسة بنحت هذه الكتل الصخرية الضخمة الهابطة من البركان بعشوائية، أحيانًا مخروطية و أحيانًا هرمية و فى تتابع غريب. هنا مثال واضح على الفوضى و العصور القديمة. الطبيعة تخلق نظامًا صارمًا يفوق النحت الإغريقى القديم.

سمعت كثيرًا عن النحوت الطبيعية العملاقة فى «أيرلندا» و«هبيد» لكن المشهد البازلتى هنا يفوق كل الروعة.

الجبال هنا، مثلما فى كل شبه الجزيرة، تتابع فى عواميد رأسية يصل ارتفاعها إلى ثلاثين قدمًا. ترتفع بشكل عامودى كأنها تكتب سجل للطبيعة و تشكل نصف قبة فوق البحر. فى الفواصل الطبيعية نلمح نحوت مبهرة، من خلالها تتدفق الحمم. بعض صخور البازلت

تتجمد أثناء هبوطها إلى المحيط فتشكل تحف فنية رائعة. أطلال بكر بدائية مرت عليها القرون دون أن تؤثر فيها.

هكذا كانت آخر خطوة فى رحلتنا الأرضية. قادنا «هانز» إلى هنا و أصبحت أشك أنه سيكمل الرحلة معنا.

عندما وصلنا إلى منزل العمدة اكتشفت أنه مجرد كوخ منخفض ليس أجمل و ليس أكثر راحة من الأكواخ المجاورة. رأيت رجلاً يضع الحدوة على سيقان الحصان، يمسك المطرقة و يرتدى سترة جليدية رثة. بعد أن ألقى «هانز» التحية عليه إلتفت إلى عمى و قال:

- يبدو يا «أكسيل» أن هذا الرجل الطيب هو العمدة.

صرخ العمدة بكلمة مبهمة باللغة الدنماركية فخرجت سيدة ضخمة من الكوخ يصل طولها إلى ستة أقدام. خشيت أن تمنحنا القبلات على الطريقة الأيسلندية لكنها، من حسن الحظ، لم تفعل ذلك، بل راحت تقدم لنا المنزل فى تجهم.

بدت لى حجرة الضيوف أنها الأسوء فى الكوخ، ضيقة، قذرة و بغيضة. لكن يجب أن نقنع بها، العمدة لا يتحلى بالكرم القديم. قبل نهاية اليوم لاحظت أننا فى منزل حداد، أو ربما صياد أو نجار و ليس سيداً أبداً فى المكان. أمامنا أسبوع لقضائه هنا.

لا أريد أن أعيب فى هؤلاء الفقراء. إنهم يعيشون فى بؤس شديد. يتلقون معونة قليلة جدًا من الحكومة الدنماركية و يحصلون على معونة أخرى من الأبرشية. المجموع يصل إلى ستين مارك. لهذا يجب أن يعملوا ليعيشوا لكن بالنسبة للصيد أو حدوات الحصان، عليهم أن يقوموا بذلك بأنفسهم. فى هذه الليلة لاحظت أن مضيفنا لا يهتم بالعفة.

فهم عمى نوعية الرجل الذى أمامه بسرعة. لا يهتم بالعلم أبدًا، قروى خشن غليظ. لذلك قرر الرحيل فى أقرب فرصة ممكنة و خرج يتجول فى الجبل. فى هذه الجولة أخبر «هانز» أنه يرغب فى استكمال الترحال لدراسة البركان حتى النهاية.

أشار «هانز» برأسه موافقًا، مستعد للذهاب إلى البركان أو أى مكان آخر فى الجزيرة مهما كان. أما بالنسبة لى بدأت أفكر فى المستقبل. ما الذى سيحدث؟ كنت خاضعًا لرغبات البروفوسير «ليدنبروك» فى «هامبورج»، لكن تحت سفح «سنيفيل» الأمر يختلف. الأفكار أربكتنى و قلت فى نفسى: لنرى ما سيحدث. سنتصلق «سنيفيل». حسنًا. سنزور فوهته. حسنًا. فعلها الآخرون دون أن يموتوا. لكن ليس هذا كل ما فى الأمر. لو كان هناك طريق للهبوط فى الشقوق الأرضية، لو كان «ساكنوسم» الماكر يقول الحقيقة، سنتوه وسط هذه الأنفاق البركانية. لا يوجد أية

تأكيدات على خمول البركان. ربما يكون مصدر كل الإضطرابات الأرضية هنا. إذا كان هذا الوحش خامدا منذ ١٢٢٩، من يضمن لى أنه لن ينشط الآن و ما الذى سيحدث لنا؟

يجب التفكير فى الأمر بحرص. لا أستطيع منع نفسى من الحلم بالغليان أثناء النوم. البركان يلعب دوره فى غاية الوحشية.

سأفصح عن كل هواجسى لعمى و بكل لباقة، سأقدم هواجسى فى صورة إفتراضات لا يمكن التحقق منها. بعد أن كشفت له عما فى نفسى تراجعت خطوة للخلف تجنبًا لغضبه لكنه قال لى ببساطة:

- أفكر فى كل ذلك.

ماذا يعنى ذلك؟ هل سيخضع لصوت العقل؟ هل سينهى مشروعه؟ هذا أمر رائع. بعد لحظة صمت عاد يقول:

- فكرت فى ذلك منذ وصولنا إلى «ستابى». فكرت فى كل ما تفكر به لأنه لا يجب أن نعمل بحماقة.

هتفت بقوة:

- لا.

- «سنيفيل» خامد منذ ستمائة عام لكن من الممكن أن يثور فى أية لحظة. ثورة البراكين لا تحدث إلا بظواهر معلومة. و لهذا سألت السكان هنا و درست الأرض. الآن أستطيع أن أقول لك: لن يثور قريبًا.

دهشت من تأكيداته و لم أستطع مناقشته فسأل عمى:

- هل تشك فى كلامى؟ حسنًا، اتبعنى.

خضعت بتلقائية. بعد أن خرجنا من المنزل اتبع البروفوسير طريقًا يبتعد عن البحر فى شق بين الجبال البازلتية. بسرعة رأينا أنفسنا وسط الإفرازات البركانية، إن جاز هذا التعبير. بدت القرية كأنها مدفونة تحت سيل من الحجارة الضخمة البازلتية والجرانيتية و كل أنواع الحجارة البيروكسينية.

لمحت الدخان يتصاعد من أماكن متفرقة. دخان أبيض يطلقون عليه هنا كلمة «ريكير» باللغة الأيسلندية. الدخان لا يأتى إلا من مصدر الحرارة و ندرك منها النشاط البركانى فى جوف الأرض. هذا يؤكد مخاوفى لكنى ذُهلت عندما قال عمى:

- أترى هذا الدخان «أكسيل»؟ هذا يؤكد عدم وجود أى شىء مخيف فى البركان.

سألت:

- على سبيل المثال؟

قال البروفوسير:

- نبدأ من هنا. هذا الدخان الكثيف يتبدد لأن المادة ليست مكثفة. لو كان الضغط شديدًا فى عمق الأرض، لو كان هذا الدخان فى حالته الطبيعية سيتكثف فى شكل حجارة و صخور. كما أن الريح هادئة. كل هذا يؤكد عدم وجود ثورة بركانية قريبًا.

- لكن...

- كفى. عندما يتحدث العلم يجب أن نصمت.

عدت إلى صمتى. هزمنى بالبراهين العلمية. مع ذلك مازال لدى أمل. ربما عندما نصل إلى عمق الفوهة نكتشف استحالة الهبوط إلى الداخل رغم كل أراء «ساكنوسم».

أمضيت الليلة كلها فى كوابيس البراكين و أعماق الأرض. رأيت نفسى أغوص وسط الصخور البركانية.

اليوم التالى، ٢٣ يونيو، رأينا «هانز» ينتظرنا و معه كل الأدوات اللازمة. احتفظ كل من عمى و أنا بعصا حديدية و بندقية و خزينة طلقات. «هانز» المعتاد على الترحال أضاف بعض الأشياء إلى

حقائبنا و استأجر ثلاث رجال لحمل الأمتعة. أضاف الزمزميات المزودة بالمياه تكفى لثمانية أيام.

فى التاسعة صباحًا كان العمدة و زوجته الضخمة على عتبة الباب لوداعنا ثم طالبونا بمبلغ ضخم مقابل إقامتنا، هذا المبلغ يكفى للإقامة فى أفخر فنادق سويسرا. دفع عمى دون مناقشة. من يقرر السفر إلى مركز الأرض لا يهتم بمثل هذه الأشياء.

أشار «هانز» ببداية التحرك و تركنا «ستابى» خلال لحظات.

●●●

(١٥)

يصل ارتفاع «سنيفيل» إلى خمسة آلاف قدم و ينتهى بقمته المزدوجة. شريط من الصخور البركانية يطل على الجزيرة من أعلى. عند نقطة البداية لا نرى القمتين لأنهما يختفيان فى السماء الرمادية. لم ألحظ إلا كتلة ضخمة من الجليد فوق هذا الوحش.

كنا نسير فى طابور خلف «هانز» الذى يصعد ممرات ضيقة لا تتسع لشخصين متجاورين، و لذلك لم يحدث بيننا أية حوارات.

بعد أن غادرنا الصخرة البازلتية فى «ستابى» بدت الأرض قاسية مهلهلة، تأوى بعض الخضراوات القديمة الآتية من نهيرات شبه الجزيرة. هذه الكتلة الزراعية غير المستغلة تكفى لتدفئة كل سكان أيسلندا لمدة قرن من الزمان. هذه المساحة الهشة تتخللها وديان كثيرة يصل عمقها إلى سبعين قدمًا و هى تحتوى الفتات الكربونى بالإضافة إلى أحجار التوف المسامية الحمراء.

بما أننى ابن أخ البروفوسير «ليدنبروك»، و رغم كل مخاوفى، لاحظت باهتمام المعادن الكثيرة الموجودة فى هذا الوادى الذى يعتبر متحفًا للتاريخ الطبيعى يروى كل التاريخ الجيولوجى لأيسلندا.

هـذه الجزيـرة الموحشـة خرجت مـن عمـق المياه فـى عصر حديث نسـبيًا، و ربمـا مازالـت ترتفـع فـوق سـطح البحـر بالإضطرابـات الأرضيـة. إذًا، فـى هـذه الحالـة، نظريـة «هامفـرى دافـى» و مخطـوط «سـاكنوسـم» و تخمينـات عمـى، كلهـا تتعلـق بالنيـران. هـذا الإفتـراض يدفعنـى إلـى دراسـة طبيعـة الأرض و تتبـع الظواهـر المتعاقبـة التـى أدت إلـى تكويـن الجزيـرة.

كل أيسـلندا عبـارة عـن أرض رسـوبية تتكون مـن صخـور التـوف المسـامية فقـط. قبـل ظهـور البـركان كانـت تتكـون مـن كتلـة منخفضـة تطفـو ببـطء فـوق سـطح المياه بقـوة الأرض المركزيـة. فـى هـذه المرحلة لـم تنفجـر النيـران مـن الداخـل.

بعـد ذلـك حـدث شـق كبيـر مـن الجنـوب الغربـى إلـى الشـمال الغربـى فـى الجزيـرة و ظهـرت رويـدًا رويـدًا عجينـة الصخـور البركانيـة. تمـت هـذه الأحـداث بعنـف. كانـت كتلـة الأرض ضخمـة و المـادة المصهـورة تخـرج مـن باطـن الأرض و تتمـدد لتشـكل وديـان واسـعة أو تـلال ضخمـة. فـى هـذا العصـر ظهـر حجـر الصـوان والرخـام السـماقى. هكـذا تضخـم سـمك الجزيـرة و أصبحـت أكثـر قـدرة علـى الصمـود. يجـب أن نتخيـل كميـة المـادة المصهـورة. بعـد أن بـردت الكتلـة الصخريـة انفجـرت الغـازات الحبيسـة فـى أماكـن متفرقـة لتشـكل القمـم الجبليـة. هكـذا قـام البـركان بعمـل هـذه

الشقوق و ظهرت الفوهات فى القمة. من هذه الفوهات حدثت إنفجارات متتالية لتلقى بالصخور البازلتية المتوفرة فى الوادى الذى نعبره الآن. و معظم الصخور يتخذ الشكل السداسى.

هذه هى الظواهر التى أدت إلى ظهور أيسلندا. كل الظواهر تعود إلى النيران الداخلية و كل التخمينات التى تؤكد برودة الكتلة الداخلية هى ضرب من الجنون. بل من الجنون التفكير فى الوصول إلى مركز الأرض.

سأتأكد من ذلك بنفسى أثناء تصلق «سنيفيل».

الطريق أصبح أكثر وعورة، الأرض ترتفع، الصخور خشنة صلدة و ضخمة. يجب الانتباه فى كل لحظة حتى لا نسقط.

«هانز» يسير بهدوء كأنه يتجول فى حقله الخاص. يختفى أحيانًا خلف الصخور العملاقة. يصفر لنا لنعرف مكانه و نتبعه. يتوقف من حين لآخر لجمع بعض الصخور الصغيرة و يضعها فى أماكن محددة لنستعين بهذه العلامات أثناء العودة. هذا حذر شديد منه لكن الأحداث أثبتت عدم جدواه.

بعد ثلاث ساعات من الإرهاق و المشقة لم نتصلق إلا قاعدة الجبل. أشار «هانز» بالتوقف و تناولنا الطعام سويا. التهم عمى ضعف وجبته ليستطيع التقدم بسرعة ثم اكتشف أنه لا داعى

للتعجل، لابد من انتظار أوامر المرشد الذى أعلن أننا لن نتحرك قبل ساعة. الأيسلنديين الثلاثة أكثر صمتًا من صديقهم المرشد. يأكلون فى صمت تام.

نبدأ الآن تسلق مطلع «سنيفيل». بدت لى القمة الجليدية قريبة جدًا لكن فى الحقيقة أمامنا ساعات طويلة للوصول إليها. ما كل هذه المشقة؟ لا يوجد على الصخور أى نوع من الأسمنت ولا توجد أية نباتات. الأرض تتفتت تحت أقدامنا و يسقط الفتات ليتخفى فى الشقوق.

بدا لى الجبل يصعد بزاوية ست و ثلاثين درجة على الأقل. من المستحيل تسلقه. رغم ذلك أكملنا طريقنا بمساعدة العصيان الحديدية.

يجب أن أخبركم أن عمى كان قريبًا منى طوال الوقت وفى بعض الأحيان يمد لى يده للمساعدة. أعتقد أنه قادر على الاحتفاظ بتوازنه جيدًا لأنه لا يتعثر أبدًا، أما الأيسلنديين الثلاثة فهم متخصصين فى تسلق الجبال.

يبدو لى أن الوصول إلى القمة مستحيل من هذا الجانب لأن زاوية الصعود شديدة. من حسن الحظ، بعد ساعة من التعب والجهد رأينا واد مغطى بالجليد يتدرج كأنه سلم يساعدنا على الصعود. هذا المكان يتكون من الصخور المقذوفة من البركان. لو لم تتوقف هذه الحجارة هنا لسقطت فى البحر و كونت جزر

أخرى. رغم الانحدار الشديد إلا أن هذه الدرجات عاونتنى على الصعود بسرعة حتى أصبح مرافقينا خلفنا بمسافة كبيرة.

فى السابعة مساءً كنا قد صعدنا الألفى درجة من هذا السلم ثم رأينا أنفسنا على أرض مستوية كأنها قاعدة الفوهة.

البحر تحتنا على مسافة ثلاثة آلاف و مائتى قدم، تجاوزنا السحاب السرمدى المنخفض فى أيسلندا الذى يتكون من رطوبة الجو. البرد شديد جداً، صفير الرياح مخيف. لاحظ عمى إرهاقى الشديد و رغم تعجله قرر التوقف لكن المرشد أصر على استكمال الصعود. سأل عمى عن السبب فأجاب المرشد مفزوعًا بكلمات دنماركية لم أفهمها. ثم إلتفت عمى إلىّ و قال: انظر.

نظرت إلى السهل و رأيت الأتربة و الحجارة المسحوقة تدور حول نفسها فى الهواء فى شكل دوامة تقترب من الجبل. السحابة الترابية شكلت ساترًا يحجب الشمس و يلقى بالظل على الجبل. لو وصلت إلينا ستدهسنا.

صرخ المرشد بكلمات دنماركية لا أفهمها لكنى فهمت أنه يجب اتباعه بأسرع ما يمكن. درنا حول الفوهة و هاجمت السحابة الترابية بقوة و عنف حتى ارتج الجبل كله و انهمرت الحجارة مثل المطر. من حسن الحظ كنا فى الجانب الآخر بعيداً عن الخطر. بدون رعاية المرشد لمزقتنا هذه السحابة القاسية.

مع ذلك «هانز» لا يبدو لى حكيمًا لأنه أصر على استكمال الصعود بشكل متعرج لمسافة ألف و خمسمائة قدم المتبقية لمدة خمس ساعات. لا أستطيع إحتمال البرد و الجوع أكثر من ذلك، كأن الهواء لا يكفى للتنفس.

أخيرًا، فى الحادية عشر مساءً، وسط العتمة، وصلنا إلى قمة «سنيفيل» و قبل أن نقتحم الفوهة لمحت شمس منتصف الليل تلقى بأشعتها الشاحبة على الجزيرة أسفلنا.

●●●

(١٦)

تناولنا العشاء بسرعة و بدأت المجموعة تستعد للمبيت. الفراش صلب و المكان مرهق على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. مع ذلك نمت بهدوء هذه الليلة، ربما تكون أفضل ليلة منذ وقت طويل و لم أحلم أبدًا.

فى اليوم التالى استيقظنا بأشعة الشمس الجميلة لكن نصف متجمدين بالرياح الشديدة. تركت فراشى الحجرى و استمتعت بالمشهد الخلاب الذى يتمدد أمامى.

وصلنا إلى القمة الجنوبية لـ «سنيفيل». من هنا أشاهد الجزء الأكبر من الجزيرة، الوديان و الشقوق فى كل مكان تحيط بوسط الجزيرة الذى يبدو داكنًا. من الممكن القول أننى رأيت الخريطة التى رسمها «هلبسمر» تتجسد تحت أقدامى. الوديان تذهب إلى كل الاتجاهات تتخللها حفر كثيرة مثل الآبار، البحيرات تكون أشكال عجيبة و النهيرات تتدفق. من جهة اليمين أرى القمم الجليدية الكثيرة، يتطاير الدخان الخفيف من بعضها. تموجات الجبال اللانهائية تبدو مثل البحر الثائر و يتمدد إلى مالا نهاية. لو اتجهت ناحية الغرب أجد المحيط بكل هيبته كأنه يستكمل تموجات الجبل. لا أرى نهاية الأرض و لا أرى نهاية المحيط.

غصت فى هذا الجو الساحر دون وعى. سبحت فى أشعة الشمس الشفافة غارقًا فى تأملاتى. نسيت من أنا و أين لأعيش حياة الجنى المحلق فى السماء الذى تتحدث عنه الأساطير الاسكندنافية. سبحت فى هذا الارتفاع الشاهق دون التفكير فى المصير الذى ينتظرنى بعد قليل، لكنى شعرت ببهجة البروفوسير و «هانز» لوصولهما إلى القمة.

عمى التفت إلى الغرب و أشار بيده إلى البحر حيث الضباب الخفيف الداكن القادم من الأرض و قال:

- «جرونلاند».!

هتفت:

- «جرونلاند»!

- نعم، نحن لا نبعد عنها إلا خمسة و ثلاثين فرسخ. من هنا تأتى الدبب البيضاء إلى أيسلندا، تأتى طافية على الكتل الجليدية. لكن هذا ليس مهمًا. نحن على قمة «سنيفيل»، ها هما القمتان، إحداهما شمالية و الأخرى جنوبية. سيخبرنا «هانز» باسم القمة التى نحن عليها الآن.

أجاب «هانز» على الفور:

- «سكارتاريس»!

نظر عمى إلىَّ منتصرًا ثم قال:

- على الفوهة.

فوهة «سنيفيل» فى شكل مخروطى مقلوب و يصل قطر فتحة الفوهة إلى نصف فرسخ. إستنتجت أن عمقها يصل إلى ألفى قدم تقريبًا. أعتقد أنها مليئة بالرعد و النيران لكن عمق الحفرة لا يزيد عن خمسمائة قدم. هذا يعنى أنه يمكن الوصول إليها بسهولة. دون وعى منى قارنت هذه الفوهة بفوهة البندقية و هذه المقارنة أفزعتنى. من الجنون النزول فى فوهة البندقية أو المدفع. لكن لا أستطيع التراجع. استكمل «هانز» قيادته للمجموعة و لم أستطع النطق بكلمة واحدة.

لكى يكون الهبوط سهلاً راح «هانز» يصف لنا ما بداخل المخروط العميق. يجب السير وسط الصخور الملتهبة، بعضها هش و قد يتحطم و يسقط فى عمق الفوهة و يكون لسقوطها دوى مرعب و غامض. بعض الأجزاء فى المخروط تكون جليدية من الداخل.

تقدم «هانز» بحذر شديد و هو يجس الأرض بعصاه الحديدية لاكتشاف الشق. عندما وصلنا إلى مكان محدد كان يجب ربط أنفسنا جميعًا بحبل واحد حتى إذا سقط أحدنا يجد العون من الآخرين. هذه الإحتياطات مرعبة لكنها لتفادى المخاطر.

رغم صعوبة الهبوط فى المنحدرات التى يجهلها المرشد إلا أننا هبطنا بسلام، لكن الحبل انزلق من يد أحد الأيسلنديين وسقط لمسافة قصيرة و تمكنا من إنقاذه.

وصلنا فى منتصف النهار، رفعت رأسى و رأيت جزء من السماء خلال فتحة المخروط و بدت لى فى غاية الغموض من هنا.

فى عمق الفوهة رأينا ثلاث مداخن، من خلالها يقذف البركان بالحمم و الدخان أثناء ثورته. قطر كل مدخنة حوالى مائة قدم. بدا لى أن المداخن ترقبنا من تحت أقدامنا و لم أستطع إلقاء نظرة داخلها. قام البروفوسير «ليدنبروك» باختبار سريع لفروضه. كان متعجلاً جدًا. تجول فى المكان و هو يتفوه بكلمات غامضة بينما «هانز» و مرافقيه يجلسون فوق صخرة من الحمم يرقبونه كأنه مجنون.

صرخ عمى فجأة. اعتقدت أنه سقط فى إحدى المداخن الثلاث. لكن لا. كان يتأمل صخرة بركانية ضخمة وسط الفوهة، تبدو كأنها قاعدة تمثال. موقعها مثير للدهشة. صرخ عمى مبتهجًا:

- «أكسيل»! تعالى!

جريت إليه بينما «هانز» و رفاقه لا يتحركون. قال البروفوسير:

- انظر.

شاركته ذهوله و بهجته. كان منحوتًا على الصخرة نفس الرسومات الغامضة التى رأيتها فى المخطوط.

صرخ عمى:

- «أرن ساكنوسم»! هل ما زلت تشك فى الأمر؟

لم أجبه و اتجهت إلى مكانى على الحمم البيضاء. هذا البرهان هزمنى.

لا أعرف كم من الوقت إستغرقت فى أفكارى. كل ما أذكره عندما رفعت رأسى لم أجد إلا عمى و «هانز» فقط فى الفوهة. ذهب الأيسلنديين الثلاثة إلى إجازة و هم يصعدون الآن إلى قمة «سنيفيل» للعودة إلى «ستابى».

أعد «هانز» فراشه جوار صخرة أمام منحى الحمم و نام بهدوء. عمى يتجول فى الفوهة مثل حيوان متوحش سقط فى الفخ. لم يكن لدى القوة و لا الرغبة لمساعدته و فعلت مثل المرشد و أنا أعتقد سماع الضجيج و أشعر برجفات الأرض تحتى.

هكذا مضت الليلة الأولى فى الفوهة.

فى اليوم التالى رأيت السماء الرمادية و السحب الداكنة من فتحة الفوهة. لم أعد إلى الوعى إلا بغضب عمى و عندما علمت السبب عاد إلىّ الأمل.

من الثلاث فتحات التى أمامنا، إتبع «ساكنوسم» واحدة فقط. حسب رأى العالم الأيسلندى لا نستطيع تحديدها إلا عندما يسقط ظل «سكارتاريس» فى اليوم الأخير من يونيو. نستطيع إذاً استخدام هذه القمة كأنها ساعة شمسية لتحديد الطريق إلى مركز الأرض. إذا لم تظهر الشمس لن يتكون الظل. نحن الآن يوم ٢٥ يونيو. لو إستمرت السماء ملبدة بالسحب الداكنة لمدة ست أيام فقط سيتأجل المشروع إلى العام المقبل.

لم أهتم بغضب البروفسير الشديد. مضى اليوم و لم تظهر أية ظلال للفوهة. «هانز» لا يتحرك من مكانه لكن من المؤكد أنه سيسأل عن سبب انتظارنا. عمى لا يحدثنى بكلمة واحدة و ظل يرقب السماء الرمادية و السحب الداكنة طوال اليوم.

يوم ٢٦ لم يحدث شىء أيضًا. هطلت الأمطار الجليدية طوال النهار. أقام «هانز» كوخ من الحمم البركانية بينما رحت أنا أتابع المطر و هو يتساقط داخل الفوهة. صدى قطرات المياه يتردد مضخمًا فى جنبات الفوهة.

عمى لا يخضع أبدًا و لا يهدأ أبدًا. يرقب السماء بنظرات شرسة كأنها عدو له.

فى اليوم التالى لم تزل السماء ملبدة. لكن صباح يوم الأحد ٢٨ يونيو حدث التغير فى الأحوال الجوية.

عكست الشمس أشعتها داخل الفوهة. ظهرت ظلال كل تلة، كل حجرة، كل صخرة على الأرض و بدت فوهة «سكارتاريس» مستمتعة بأشعة الشمس و عمى مستمتعًا معها و هو يراقب حركة الظل. فى ساعة الظهيرة سقط الظل على المدخنة الوسطى فصرخ عمى:

- هنا! .. هنا!

ثم أشار إلى «هانز» قائلاً:

- إلى الأمام.

●●●

(١٧)

بدأنـا الرحلـة الحقيقيـة. حتـى الآن كان التعـب ناتجًـا عـن العقبـات و الآن أصبـح الخطـر تحـت أقدامنـا.

حتـى الآن لـم ألـق نظـرة إلـى الهاويـة التـى لا نهايـة لهـا و التـى سـأغوص بهـا. حـان وقـت المخاطـر. أسـتطيع التراجـع لكنـى شـعرت بالخجـل أمـام المرشـد. «هانـز» يوافـق بكل هـدوء على دخـول المغامرة، لا يبالـى بـأى مخاطـر، لذلـك خجلـت مـن الانسـحاب. فـى أعمـاق نفسـى أتخيـل الأهـوال لكـن لابـد مـن التـزام الصمـت أمـام المرشـد. تذكـرت جميلتـى الملائكيـة و اقتربـت مـن الهاويـة.

اتسـاعها يصـل إلـى ثلاثمائـة قـدم. قبضـت بقـوة علـى صخـرة و ألقيـت نظـرة و اقشـعر شـعر رأسـى. شـعرت بالخـواء يتعمـق فـى نفسـى، مركـز الجاذبيـة فـى صـدرى و الـدوار يصعـد إلـى رأسـى بالمقلـوب. لا يوجـد لهـا نهايـة. كـدت أن أسـقط لـولا أننـى وجـدت اليـد المنقـذة، يـد «هانـز». مـن المؤكـد أننـى لـم أتعلـم شـيئًا مـن دروس البـرج فـى «كوبنهاجـن».

رغـم أنهـا نظـرة خاطفـة إلا أننـى لمحـت بعـض التفاصيـل فـى الداخـل. الجـدران مدببـة و يمكـن إسـتخدام هـذه البـروزات مثـل

درجات السلم لتسهل الهبوط. لكن السلم بدون درابزين. من الممكن الهبوط إلى العمق بالحبل و لكن بعد النزول كيف سنفك الحبل من أعلى؟

إستخدم عمى طريقة بسيطة جداً لحل هذه المشكلة. أتى بحبل فى سمك إصبع اليد و طوله أربعمائة قدم. وضع منتصف الحبل حول صخرة من الحمم. سيهبط كل منا و هو يمسك بالحبل المزدوج، هكذا لا ينفك الحبل فى الأعلى و بعد النزول يسهل إستعادته بجذب طرفه. بعد أن شرح لنا طريقته قال:

– الآن يجب الاهتمام بالأمتعة. سنقسمها إلى ثلاث أجزاء وكل منا سيربط جزء على ظهره. أسمعكم تتحدثون عن الأجهزة العلمية الدقيقة.

البروفوسير يهتم بكل التفاصيل فأكمل:

– «هانز» سيحمل معدات التصلق و الحفر و بعض الأغذية، و أنت «أكسيل» الجزء الثانى من الأغذية و الأسلحة، أما أنا سأحمل الجزء الثالث من الأغذية و الأجهزة العلمية الحساسة.

سألت:

– و الملابس و هذه الكتلة من الحبال و السلالم من يهبط بها؟

- ستهبط مفردها و قبلنا.

- كيف ذلك؟

- سترى.

أمر «هانز» بربط الحبال و السلالم جيدًا فى طرف الحبل، ثم لف الحبل من المنتصف لفة واحدة حول الصخرة ثم ألقى طرف الحبل المربوط بالثقل إلى الهاوية. سمعت صوتًا مرعبًا لخلخلة الهواء فى الهاوية بينما عمى يرقب الحمولة بسعادة إلى أن اختفت عن الأنظار ثم قال:

- حسنا، سنهبط نحن الآن.

أطلب منكم أن تتخيلوا ما شعرت به فى هذه اللحظة.

ربط عمى حول نفسه الأجهزة العلمية و «هانز» ربط حول نفسه الأدوات و أنا ربطت الأسلحة. بدأنا الهبوط بـ «هانز» ثم عمى ثم أنا. كان الصمت ثقيلاً لا يخدشه إلا سقوط بعض الفتات من الصخور.

تركت نفسى أنزلق و أنا أقبض بيد على الحبل المزدوج وباليد الأخرى أبعد نفسى عن الصخور الحادة. أخشى ألا يكون هناك نهاية لهذه الهاوية. الحبل يبدو ضعيفًا لتحمل ثلاثة رجال. جاهدت كثيرًا للإحتفاظ بتوازنى مستخدمًا أقدامى و أعتقد أننى

ما نجحت فى ذلك إلا بمعجزة. فى بعض الأحيان كنت أدوس بقدمى على يد عمى فيصرخ.

بعد نصف ساعة وصلنا إلى صخرة مسطحة على جدران الهاوية و جذب «هانز» الحبل من إحدى طرفيه بينما الطرف الآخر يصعد حتى وصل إلى السطح ثم سقط و مع سقوطه إنهمرت الحجارة البركانية كالمطر أو سيل من القذائف المرعبة. أثناء توقفنا على هذه الصخرة نظرت إلى أسفل و لم أر لها نهاية حتى الآن.

بعد أن عاودنا وضع الحبل بالطريقة السابقة هبطنا لعمق مائتى قدم أخرى.

لا أعرف كيف يستطيع أعظم الجيولوجيين دارسة طبيعة الأرض أثناء الهبوط فى هذا المكان المرعب. بالنسبة لى لا أهتم بهذا أبدًا. لا يهمنى إن كانت تعود إلى العصر البليونى أو الميوسينى أو الفجرى أو الطباشيرى أو الجورامى. لا يهمنى إن كانت الصخور كربونية أو من الديفون، لا يهمنى إن كانت مركبة أو بسيطة. هذا لا يشغلنى أبدًا. لكن من المؤكد أن البروفوسير يرقب كل شىء بحرص شديد لأنه قال لى:

- ما أراه يجعلنى أثق فى نفسى. وضع هذه الأرض الصخرية يؤكد صحة نظرية «دافى». نحن الآن فى عمق الأرض الأولية. هنا

تحدث التفاعلات الكيميائية للمعادن الملتهبة مع الهواء و الماء. أنا أرفض تمامًا فكرة الحرارة الداخلية. سنرى فيما بعد.

دائما يعود إلى نفس هذا الفرض. لا أملك رفاهية مناقشته. احتفظت بالصمت و أنا أعاود الهبوط.

بعد ثلاث ساعات، ما زلت لا أرى نهاية للهاوية. عندما رفعت رأسى لمحت الفتحة تضيق و الجدران تقترب من بعضها و الظلام يدب شيئًا فشيئًا. أشعر كأن الهاوية تبتلعنا.

كنت أحصى عملية تثبيت الحبل الذى نهبط به. العملية تستغرق حوالى نصف ساعة. قمنا بها أربع عشرة مرة. يعنى عملية التثبيت إستغرقت سبع ساعات. بالإضافة إلى ثلاث ساعات و نصف للاستراحة. أى أن المجموع يصل إلى عشر ساعات و نصف. بما أننا بدأنا فى الساعة الواحدة، إذًا الساعة الآن قد تكون الحادية عشرة.

أما بالنسبة للعمق، بما أننا عقدنا الحبل أربع عشرة مرة وبما أن طول الحبل مائتى قدم، فهذا يعنى أننا وصلنا إلى عمق ألفين و ثمانمائة قدم.

فى هذه اللحظة صرخ «هانز» و كدت أدهس رأس عمى الذى صرخ قائلاً:

- وصلنا.

- أين؟

- إلى عمق الهاوية العمودية.

- إذًا لا يوجد فتحات أخرى؟

- بل يوجد فتحة من جهة اليسار. سنرى ذلك غدًا. الآن نتناول الطعام ثم النوم.

الظلام لم يكن شديدًا. فتحنا حقائب الطعام و أكلنا و نمنا على الصخور البركانية.

عندما استلقيت على ظهرى لمحت الضوء المبهر من فتحة الهاوية. إنه نجم بالتأكيد. حسب حساباتى هو نجم «سيجما».

ثم رحت فى سبات عميق.

●●●

(١٨)

فى الثامنة صباحًا أتى ضوء الشمس ليوقظنا. الجدران المتعرجة للهاوية استقبلت الضوء و بعثرته حتى كأنه حبات من المطر المتوهج. كان كافيًا لنرى بعض الأشياء حولنا. قال عمى وهو يفرك يديه:

- حسنا «أكسيل»، ما رأيك؟ هل قضيت ليلة أفضل من هذه فى منزلنا فى «كونجستراس»؟ هنا لا يوجد ضجيج العربات و لا صيحات الباعة و لا جعجعة المراكبية!

- بالتأكيد الصمت تام فى عمق هذا الجب، لكنه صمت مخيف.

قال عمى:

- إذا كنت تخاف الآن فماذا ستفعل فيما بعد؟ نحن لم نتوغل داخل الأرض و لا حتى بوصة واحدة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أننا لم نصل حتى الآن إلا إلى مستوى سطح الجزيرة. هذا النفق الرأسى الذى يبدأ من فوهة «سنيفيل» لم يصل بنا إلا إلى مستوى سطح البحر.

- متأكد من ذلك؟

- متأكد جدًا، البارومتر يؤكد ذلك.

بالفعل مستوى الزئبق فى الجهاز يتوقف عند تسع و عشرين بوصة. قال البروفوسير:

- ألا ترى أن الجهاز يشير إلى الضغط الجوى الطبيعى. فيما بعد سنستعمل المانومتر بدلاً من البارومتر.

بالفعل البارومتر لن يكون مجديًا عندما نصل إلى ضغط شديد يعادل ضغط المحيط كله. فسألت:

- لكن ألا يعتبر الضغط المتزايد مخيفًا؟

- لا، نحن نهبط ببطء و الرئة ستعتاد على الضغط الأعلى. المنطاد يصبح فارغًا من الهواء عندما يصل إلى طبقات الجو العليا. هذا ما سيحدث لنا. أحب ذلك. لا يجب أن نضيع وقتنا. أين الحقائب التى أنزلناها فى عمق الجبل؟

تذكرت أننى لم أرها منذ الأمس. سأل عمى «هانز» الذى برقت عيناه و هو يقول: فى الأعلى.

كانت الحقائب معلقة فى صخرة بارزة على إرتفاع مائة قدم فوق رؤوسنا. تسلق «هانز» بخفة قط و هبط إلينا بالحقائب خلال دقائق معدودة. قال عمى:

- الآن نتناول الإفطار. يجب أن نأكل جيداً لأن مشوارنا طويل.

مزجنا البسكويت و اللحوم المجففة مع بعض الخمور و تناولنا إفطارنا. أخرج عمى من جيبه دفتر الملاحظات و هو يرقب أجهزته و يدون: الإثنين ١ يوليو، الساعة ٨ و ١٧ دقيقة صباحًا، البارومتر ٢٩ بوصة، الترمومتر ٦ درجات. ثم دون الإتجاه الذى لاحظه فى البوصلة. ثم قال لى مبتهجًا:

- الآن «أكسيل» سنتعمق فى أحشاء الأرض. إنها اللحظة الحاسمة لبداية رحلتنا.

بعد أن قال ذلك ربط جهاز «رامكورف» حول رقبته و بيده الأخرى أوصل التيار الكهربائى و انتشر الضوء فى جنبات هذا النفق. و قام «هانز» بحمل الجهاز الثانى و توصيل الكهرباء. هذا الضوء الصناعى يسمح لنا بالهبوط كثيرًا و لا توجد أية مشكلة حتى وسط الغازات الأكثر اشتعالاً. قال عمى: إلى الأمام.

حملنا حقائبنا ودفع «هانز» بحقيبة الحبال و الملابس أمامه واقتحمنا النفق. قبل التحرك ألقيت نظرة إلى أعلى الهاوية لألمح سماء أيسلندا التى ربما لن أرها بعد ذلك.

الحمم الناتجة عن الانفجار الأخير فى عام ١٢٢٩ شقت طريقها خلال هذا النفق و فرشت طبقة سميكة متلألئة. الضوء ينعكس عليها ليكشف كثافتها.

كل مصاعب الطريق تتركز فى الانزلاق بسرعة شديدة على المنحدر الأملس بزاوية خمس و أربعين درجة تقريبًا. من حسن الحظ توجد بعض التجاويف و الحفر لتثبيت أقدامنا. لا نفعل شيئًا سوى الهبوط خلف حقائبنا المربوطة بحبل طويل.

هذه الحفر ما هى إلا رواسب كلسية متحجرة على الجدران. أحيانًا تكون الرواسب سائلة، أحيانًا فى شكل كروى، أحيانًا كريستالات من الكوارتز الشفاف، و أحيانًا تتجمع فى شكل عناقيد من الزجاج المزخرف مثل الثريا يومض أثناء مرورنا. نستطيع القول أن الجنى القابع هنا ينير قصره لإستقبال زوار باطن الأرض. هتفت رغمًا عنى:

- مشهد رائع! ما كل هذه الروعة يا عمى؟ ألا تلاحظ تدرج ألوان الحمم من الأحمر الداكن إلى الأصفر الفاقع بشكل متناسق منسجم؟ و هذه الكريستالات التى تبدو مثل كرات مضيئة؟

قال عمى:

- آه! هل لاحظتها؟ هل ترى ذلك رائعًا يا بنى؟ لكنى أعتقد أنك سترى ما هو أروع من ذلك. تحركوا إلى الأمام.

كان يجب أن يقول انزلقوا لأننا سننزلق على المنحدر دون أى مجهود. نظرت إلى البوصلة بحرص فرأيتها تشير إلى الجنوب الشرقى. هذا المنحدر لا ينحنى أبدًا بل يتجه فى خط مستقيم.

مـع ذلـك الحـرارة لا ترتفـع بشـكل ملحـوظ. هـذا يثبـت صحـة نظريـة «دافـى». كنت أراقب الترمومتر بذهـول. بعـد سـاعتين الترمومتـر لا يشـير إلا إلـى ١٠ درجـات. يعنـى أن الحـرارة إرتفعـت ٤ درجـات فقـط، لذلـك أعتقـد أن هبوطنـا بشـكل أفقـى و ليـس رأسـى. لا يوجـد مـا هـو أسـهل مـن تحديـد العمـق الـذى وصلنـا إليـه. عمـى يقيـس الزوايـا بدقـة و يراقـب كل شـىء لكنـه يحتفـظ بالملاحظـات لنفسـه.

فـى الثامنـة مسـاءً أمرنـا بالتوقـف. جلـس «هانـز» بعـد أن علـق المصبـاح فـى بـروز مـن الحمـم. كنـا فـى كهـف و الهـواء لا ينقصنـا. بـل العكـس، الهـواء يهـب نحونـا. مـا سـبب ذلـك؟ مـا مصـدر الهـواء هنـا؟ لا أشـغل نفسـى بهـذا السـؤال الآن. الجـوع و التعـب لا يسـمحان لـى بالتفكيـر. الهبـوط لمـدة سـبع سـاعات أمـر مرهـق جـدًا. أتـى «هانـز» بالطعـام و أكلنـا بشـراهة. مـع ذلـك هنـاك مـا يقلقنـى. لقـد اسـتهلكنا نصـف الميـاه التـى معنـا. كان عمـى يعتقـد أننـا سـنحصل عليهـا مـن مصادرهـا لكـن حتـى الآن لـم نجـد أى مصـدر للميـاه. لفـت نظـره إلـى هـذه المشـكلة فقـال:

- هـل غيـاب مصـادر الميـاه يدهشـك؟

- بالتأكيـد. بـل يزعجنـى. لا يوجـد معنـا ميـاه تكفـى إلا لخمسـة أيـام فقـط.

- لا تقلـق «أكسـيل»، سـنجد الميـاه أكثـر ممـا نحتاجهـا.

- متى؟

- بعد أن نترك هذه الحمم. كيف تنفذ المياه من هذه الجدران؟

- لكن ربما تكون المياه فى الأعماق البعيدة. يبدو لى أننا لم نهبط كثيرًا.

- لماذا تقول ذلك؟

- لو كنا توغلنا فى عمق الأرض لارتفعت الحرارة أكثر من ذلك.

- ما هى درجة الحرارة الآن؟

- ١٥ درجة، يعنى أنها ارتفعت ٩ درجات منذ بداية رحلتنا.

- ما هو استنتاجك؟

- ما أعلمه هو أن درجة الحرارة ترتفع بمقدار درجة مع كل مائة قدم فى العمق. لكن فى بعض الظروف يختلف المقياس. فى سيبريا ترتفع الحرارة كل ستة و ثلاثين قدم. هذا الاختلاف بسبب اختلاف الصخور فى امتصاص الحرارة. كما أعلم أنه فى بعض البراكين الخامدة ترتفع الحرارة كل خمسة و عشرين قدم. يجب أن نقيم حساباتنا على هذه الإفتراضات.

- احسب يا بنى.

قلت و أنا أدون الأرقام فى دفترى:

- لا يوجد ما هو أسهل من ذلك. ٩ × ٢٥ قدم يساوى ١١٢٥ قدم من العمق.

- غير صحيح.

- ما هو الصح.

- حسب ملاحظاتى وصلنا إلى عشرة آلاف قدم تحت مستوى البحر.

- هل هذا ممكن؟

- نعم، أرقامك خاطئة.

حسابات البروفوسير كانت دقيقة. لقد تجاوزنا الستة آلاف قدم و هذا أكبر عمق وصل إليه الإنسان. الحرارة التى من المفترض أن تكون ٨١ درجة الآن ما هى إلا ١٥ فقط. يجب أن نفكر بطريقة مختلفة.

●●●

(١٩)

اليوم التالى، الثلاثاء ٢ يوليو، فى السادسة صباحًا عاودنا الهبوط.

نتتبع دائمًا نفق الحمم، مسرح حقيقى للطبيعة، هادئ جدًا مثلما نشاهد السلالم الهادئة فى صور البيوت العتيقة. استمرينا فى الهبوط حتى الثانية عشر ظهرًا و سبعة عشر دقيقة. فى هذه اللحظة توقف «هانز» و صرخ عمى:

- وصلنا إلى نهاية النفق.

تلفت حول نفسى، كنا فى مكان يشبه الميدان بين طريقين معتمين ضيقين. ما هو الطريق الصحيح؟ لدينا مشكلة.

مع ذلك، عمى لا يريد أن يبدو مترددًا أمامى و لا أمام «هانز»، فحدد النفق الشرقى و اندفعنا إليه نحن الثلاثة.

فى الحقيقة التردد بين الطريقين لن يؤدى إلى نتيجة لعدم وجود أية علامات تعاوننا على الاختيار. يجب علينا الاستسلام لضربة الحظ.

الإنحـدار فـى هـذا النفـق الجديـد ليـس ملحوظًـا و أقسـامه غيـر متسـاوية. أحيانًـا نجـد تتابـع الأقـواس فـى طريقنـا مثـل قبـب الكاتدرائيـات الغوطيـة. مـن الممكـن أن نـدرس هنـا كل فنـون العمـارة فـى القـرون الوسـطى و التـى نرهـا فـى المبانـى الدينيـة. بعـد ميـل أحنينـا رؤوسـنا تحـت الأقـواس المنخفضـة بالأسـلوب الرومانـى والأعمدة المصمتة تحت الأسـقف المعلقـة. فـى بعض الأحيـان يصبـح الطريـق ضيقًـا جـدًا و ننزلـق فـى أمعـاء الأرض الضيقـة.

الحـرارة مازالـت محتملـة. دون وعـى منـى تخيلـت درجـة الحـرارة أثنـاء انفجـار البـركان مـن هـذا النفـق الـذى نـراه هادئًـا الآن. تخيلـت الجحيـم الـذى حـدث هنـا منـذ سـنوات طويلـة. أرجـو ألا يثـور البـركان اليـوم.

لـم أفصـح عـن هـذه الأفـكار للعـم «ليدنبـروك». لـن يفهمهـا. لا يفكـر إلا فـى التقـدم إلـى الأمـام. يسـير، يتزحلـق و أحيانًـا يزحـف. لا أنكـر إعجابـى بمهارتـه.

فـى السادسـة مسـاءً، بعـد جولـة مرهقـة قليـلاً، أصبحنـا علـى بعـد فرسـخين فـى اتجـاه الجنـوب لكننـا لـم نتعمـق إلا ربـع ميـل فقـط.

أمر عمى بالاستراحة. أكلنا دون أية كلمات و نمنا دون تفكير.

فراشـنا لقضـاء الليـل بسيط جـدًا: سـترة للرحـلات نتدثـر بهـا. هـذا هـو كل فراشـنا. لا نخشـى البـرودة و لا زيـارات الفضوليـين.

المسافرون فى صحراء أفريقيا أو فى عمق غابات العالم الجديد يضطرون لتعيين أحدهم للحراسة أثناء الليل. لكن هنا العزلة مطلقة و الأمان تام و لا نخشى الحيوانات المتوحشة.

استيقظنا فى اليوم التالى بنشاط و خفة و عاودنا الطريق. سرنا فى نفق من الحمم مثل الأمس. من المستحيل معرفة طبيعة الأرض التى نعبرها. النفق بدلاً من أن يغوص فى عمق الأرض أصبح أفقيًا تمامًا. أعتقد أنه يصعد إلى سطح الأرض. هذا الافتراض أصبح جليًا فى العاشرة صباحًا ثم أصبح مزعجًا. توقفت مترددًا فقال عمى بصبر نافد:

- ماذا بك «أكسيل»؟

- لا أستطيع الاستمرار.

- ماذا تقول؟ بعد السير لمدة ثلاث ساعات فقط على طريق سهل؟

- أعترف بسهولة الطريف لكنه مجهد.

- لماذا؟ لا نفعل شيئًا سوى الهبوط.

- تقصد الصعود.

هز عمى أكتافه و هو يسأل:

- الصعود؟

- بالتأكيد، لقد بدل الطريق إتجاهه منذ نصف ساعة. لو استمرينا فى ذلك سنصل إلى أرض أيسلندا.

هز البروفوسير رأسه كأنه لا يريد الاعتراف بالخطأ. حاولت استكمال المناقشة لكنه لم يتجاوب معى و أمر باستكمال السير ولاحظت أن صمته ناتج عن حالته النفسية السيئة.

مع ذلك حملت حقيبتى و اتبعت «هانز» الذى يلى عمى. كنت حريصًا على عدم الابتعاد عنهما. أرتجف من فكرة التيه فى جوف الأرض.

قلت فى نفسى: على كل حال، لو كان الطريق الصاعد مرهق لكنه فى النهاية سيقودنا إلى سطح الأرض. هذا هو أملى. أكدت لنفسى صعود الطريق وهذا يقربنى من صغيرتى «جروبن».

فى الثانية عشر ظهرًا بدأ شكل الجدران يتغير. لاحظت خفوت انعكاس الضوء الكهربائى على الجدران. أصبحت أعمدة الصخر تحتوى على بروزات رأسية. يبدو أننا فى عصر التحول، العصر السيلورى.

أكدت لنفسى أن هذه التكوينات تعود إلى العصر السيلورى. فى هذا العصر تكونت الرواسب المائية، إنه العصر الثانى للأرض حيث تكونت أحجار الشست و الطباشير و الصلصال. أدرنا ظهرنا للكتلة الجرانيتية و تأكدت فى نفسى أننا نتبع الطريق الخطأ. كان يجب أن احتفظ بملاحظاتى لنفسى لكنى عمى شعر بى فسأل:

- ماذا بك؟

أجبته و أنا أشير إلى تتابع الصخور الصلصالية و الطباشيرية:

- انظر.

- ماذا تقصد؟

- وصلنا إلى المنطقة التى نمت بها النباتات الأولية والحيوانات الأولى.

- آه! تعتقد ذلك؟

- افحص المكان حولنا.

أجبرت البروفوسير على تفحص جدران النفق. ترقبت أية كلمة منه لكنه لم يقل شيئًا و استكمل طريقه.

لا أدرى إن كان يفهمنى أم لا. لكنى أعرفه جيدًا، سيكمل الطريق حتى النهاية و أنا واثق من أننا تركنا طريق الحمم و هذا النفق لن يقودنا أبدًا إلى جوف «سنيفيل».

تساءلت فى نفسى إن كان يهتم بتغير شكل الأرض أم لا. هل يدرك أننا نسير فوق الصخور الجرانيتية؟ يجب البحث عن بقايا النباتات الأولية لأثبت له صحة ظنى.

بعد مائة خطوة فقط عثرت على البرهان الساطع. من المعلوم أن البحار فى هذه الحقبة كانت تحتوى على ألف و خمسمائة

نـوع مـن النباتـات أو الحيوانـات. و الآن تحـت أقدامـى، رأيـت بقايـا النباتـات و القواقـع. رأيـت علـى الجـدران بقايـا الأشـنة و النباتـات القديمـة. لـن يسـتطيع عمـى تجاهـل ذلـك. لكنـه أغمـض عينيـه واسـتكمل طريقـه بخطـوات ثابتـة.

عناده بـلا حـدود. جمعـت بعـض القواقـع تعـود إلـى حيـوان بدائى شـبه الحمـار الوحشـى ثـم قلـت لعمـى:

- انظر!

قال لى:

- حسـنًا، إنهـا حفريـات تعـود إلـى ثلاثيـة الفصـوص المنقرضـة و ليـس شـىء آخـر.

- ما الذى استنتجته من ذلك؟

- نفس استنتاجك. لقـد تركنـا الصخـور الجرانيتيـة و طريـق الحمم لكن لـن أتأكـد مـن الخطـأ إلا بعـد الوصـول إلـى نهايـة هـذا النفـق.

- أعذرك يا عمى. لكنى أحذرك من خطر أكبر يتهددنا.

- ما هو؟

- نقص المياه؟

- حسنًا، سنحل هذه المشكلة «أكسيل».

(٢٠)

بالفعل يجب أن نجد حل لهذه المشكلة. الطعام لن يكفينا أكثر من ثلاثة أيام. هذا ما اكتشفته اليوم أثناء تناول العشاء. و لا يوجد لدينا إلا أمل ضئيل في العثور على مصدر للحياة فى هذه الأرض المتحولة.

أمضينا اليوم التالي نتقدم بين الأقواس التى لا نهاية لها. نتقدم دون أن ينطق أى منا كلمة واحدة. يبدو أن صمت «هانز» أصابنا.

الطريق لا يصعد. على الأقل لا يصعد بشكل ملحوظ، بل يبدو كأنه يهبط فى بعض الأحيان لكن زاوية الهبوط صغيرة جداً و لا تسمح للبروفوسير للتأكد من ظنونه. طبيعة الأرض لا تتغير، يظهر عليها بوضوح مظاهر التحول.

الضوء الكهربائى ينعكس على أحجار الشست و الكالسية و الصلصالية العتيقة الحمراء فى الجدران. تبدو طبيعة الأرض هنا كما وصفها «دوفنشيز» الذى منح اسمه لهذا التركيب فى الأرض. توجد أشكال رائعة من الرخام تغطى الجدران، بعضها رمادى تتخلله عروق بيضاء، بعضها قرنفلى اللون أو أصفر يتزين

بالأحمر. فيما بعد وصلنا إلى صخر حمضى داكن اللون و هنا لا نستطيع التمييز بين الأحجار الكالسية المختلفة.

نجد في معظم الرخام آثار للحيوانات الأولية لكن منذ الأمس بدأت أشكال الحياة تتطور. بدلاً من ثلاثية الفصوص البدائية لمحت بقايا حيوانات متطورة مثل الأسماك البدائية التى يمكن أن تكون بداية ظهور الزواحف. من المعلوم أن البحار الديفونية كانت مأهولة بالكثير من هذه الأنواع و لذلك نجدها بالآلاف فى الصخور التى تكونت فى هذا العصر.

أصبح واضحًا أننا نصعد سلم الحياة الذى يتربع الإنسان على قمته، لكن البروفوسير «ليدنبروك» لا يهتم بذلك. إنه لا يهتم إلا بأمرين: إما أن يجد بئر رأسى يسمح له بالهبوط أو أن يجد حاجزًا يمنعه من التقدم. لكن هبط المساء دون أن يتحقق أى من الأمرين.

يوم الجمعة، بعد أن شعرت بالظمأ أثناء الليلة السابقة، استكملنا تقدمنا فى غياهب هذا النفق. بعد عشر ساعات من التقدم لاحظت خفوت انعكاس المصابيح على الجدران. اختفى الرخام و الشست والكالس و الصلصال فى الجدران و أصبحت معتمة دون وميض. فى لحظة ضيق المكان استندت بيدى اليسرى على الجدران و أصبحت شديدة السواد. تأملت الجدران عن كثب و صرخت:

- منجم فحم.

قال عمى:

- منجم دون عمال!

- نعم، من يدرى؟

شرح البورفوسير بصوت جاف:

- ما أعلمه أن مرور النفق وسط المنجم ليس بفعل الإنسان. لكن إذا كان بفعل الإنسان أو الطبيعة فهذا لا يهمنى. حان موعد العشاء.

أعد «هانز» الطعام. أكلت قليلاً و لم أشرب إلا قطرات قليلة من المياه بينما زمزمية المرشد ممتلئة إلى النصف. هذا كل ما تبقى لثلاثة رجال.

بعد الطعام غط «هانز» و البروفوسير فى نوم عميق نتيجة التعب الشديد أما أنا لم أستطع النوم و قضيت الليلة أعد الساعات حتى الصباح.

استكملنا طريقنا يوم السبت فى السادسة صباحًا. بعد عشرين دقيقة وصلنا إلى حفرة واسعة و علمت أن مرور النفق فى هذا المنجم ليس بفعل الإنسان. الأعمدة تتمايل بشكل عشوائى ولا يمكن حفظ هذا التوازن إلا بمعجزة.

مساحة الكهف تصل إلى مائة قدم و الإرتفاع مائة و خمسين قدمًا. الأرض مسحوقة تحت تأثير الهزات العنيفة و نجد بها بعض البقايا البشرية من الإنسان الأول الذى اقتحم المكان.

كل تاريخ العصر الفحمى محفور على هذه الجدران الداكنة و الجيولوجى يستطيع فهم هذه النقوشات جيدًا. الألواح الفحمية مفصولة عن بعضها البعض بالصلصال أو الطين.

في هذا العصر من عمر الكون الذى يلي العصر الثانى، كانت الأرض مغطاة بالنباتات الضخمة التى ترعرت بالحرارة الإستوائية و الرطوبة الشديدة. كان الجو عبارة عن ضباب يغلف الكوكب من كل ناحية تحت أشعة الشمس.

من هنا يأتى الاستنتاج أن الحرارة المرتفعة لا تأتى من باطن الأرض، و ربما لم تكن الكواكب مؤهلة لتلعب دورها فى هذا الزمن السحيق. لم يكن هناك طقس و الحرارة وصلت إلى خمسين درجة. من أين نتجت هذه الحرارة؟.. في عمق الأرض.

حسب نظريات البروفوسير «ليدنبروك»، الحرارة اقتحمت طبقات الأرض من الخارج، و لم تكن النباتات مزهرة فى هذه الحقبة لكن جذورها قوية جدًا فى عمق الأرض الملتهبة.

الأشجار لم تكن كثيرة، نباتات عشبية بالإضافة إلى أشجار الكازورينا الضخمة و أشجار رجل الذئب و الختمية و الأسطرية. هذه هي النباتات التي كانت منتشرة في هذا العصر.

إذا كان هذا أصل المنجم فهذا يعني أن القشرة الأرضية تأثرت بالكتلة السائلة التي تغمرها. هكذا تكونت الشقوق والحفر الكثيرة و النباتات المائية كونت هذا الركام.

هذه هي كيمياء الطبيعة في عمق البحار. سقطت الكتلة النباتية بتأثير الغازات، و بتأثير الحرارة الشديدة تكون هذا المنجم الضخم من الفحم الذي يكفي الإنسان لثلاث قرون.

هذه هي الأفكار التي طفت إلى ذهني و أنا أتأمل هذا المنجم الثري و الذي لم يُكتشف بعد. لكن كيف نكتشفه إذا كان تحت الصخور الأرضية و في أعماق بعيدة؟ لذلك أعتقد لن يكتشفه أحد حتى آخر لحظة من عمر الكون.

مازلنا نتقدم، لم أترك هذا المنجم إلا من أجل الرفاق فقط. مازالت الحرارة محتملة وسط الحمم و الشست لكني تشممت رائحة الهيدروجين و أعلم جيداً أن هذه الرائحة قد تؤدي إلى كوارث. في هذه اللحظة أدركت قيمة الضوء الكهربائي.

تقدمنا فى المنجم حتى المساء. عمى لا ينشغل بشىء إلا أن الطريق أفقى. في هذه العتمة لا نرى أمامنا إلا لمسافة عشرين خطوة فقط و بدأت أعتقد أن هذا النفق لا نهاية له. و فجأة، فى السادسة مساءً ظهر لنا جدار و لم نجد أى ممر فى اليمين و لا اليسار، لا فى الأعلى و لا فى الأسفل. وصلنا إلى نهاية النفق. قال عمي:

- حسنًا، كان يجب الوصول للنهاية. الآن أدركت أننا لا نسير فى طريق «ساكنوسم» و علينا التراجع. نستريح الليلة و سنعود إلى بداية النفق قبل ثلاثة أيام.

قلت ساخرًا:

- إن قدرنا على ذلك.

- لماذا تقول ذلك؟

- لأن غدًا لن يكون لدينا مياه أبدًا.

قال البروفوسير و هو ينظر إلىّ بحزم:

- هل فقدت شجاعتك.

لم أستطع الرد عليه.

●●●

(٢١)

فـى اليـوم التالـى بدأنـا رحلتنـا مبكـرًا، السـرعة مطلوبـة. بدأنـا فـى الخامسـة صباحًـا.

عانيـت كثيـرًا أثنـاء العـودة. عمـى يتحمـل كل المعانـاة بجلـد مثل أى رجـل قـوى عنيـد، أمـا «هانـز» فهـو هـادئ بطبعـه. لا أسـتطيع الشـكوى و لا الإفصـاح عـن يأسـى. لا أسـتطيع مواجهـة طباعـه العنيفـة.

حذرتـه مـن أول يـوم مـن نفـاذ المياه. هكذا لا نسـتطيع الشـرب إلا الخمـور لكـن هـذا يلهـب فمـى و لا أسـتطيع تحملـه. الإرهـاق أصابنـى بالشـلل. سـقطت أكثـر مـن مـرة. نسـير بسـرعة، عمـى و الأيسـلندى يتعاونـان معـى بقـدر إسـتطاعتهما لكنـى لا أسـتطيع نسـيان عـدم وجـود ميـاه معنـا.

أخيـرًا، الثلاثـاء ٨ يوليـو، وصلنـا زاحفـين علـى أرجلنـا و أيدينـا إلـى المـكان الـذى يتوسـط النفقـين. كنـا علـى وشـك المـوت. تمـددت مثـل كتلـة صامتـة فـوق الحمـم. كانـت السـاعة العاشـرة صباحًـا.

«هانـز» و عمـى اسـتندا إلـى الجـدار يحـاولان مضـغ بعـض البسـكويت بينمـا أنـا سـقطت فـى شـبه غيبوبـة.

بعد فترة اقترب عمى و حملنى و هو يغمغم فى شفقة:

- شاب مسكين!

هذه الكلمة تركت أثرًا كبيرًا فى نفسى. لم أعتد هذه المشاعر من البروفوسير الشرس. قبضت على يده بيدى فنظر إلىّ برفق و رأيت الدموع تتلألأ فى عينيه. دُهشت عندما وضع الزمزمية على فمى و قال:

- اشرب.

هل ما أسمعه صحيح؟ هل أصيب بالجنون؟ نظرت إليه مذهولاً فعاد يقول:

- اشرب.

ثم رفع الزمزمية و أفرغ كل ما بها فى فمى.

يا لها من متعة! قطرات المياه انسابت فى فمى الملتهب. قطرات قليلة لكنها أعادت لى الحياة. شكرته و أنا أقبض على يده فقال لى:

- مجرد قطرات قليلة! و هى الأخيرة! هل تسمعنى؟ الأخيرة! كنت أحتفظ بها فى عمق زمزميتى. عانيت الظمأ كثيرًا لكنى احتفظت بهذه القطرات من أجلك.

بكيت رغمًا عنى فقال:

- نعم يا بنى. كنت أعلم أنك ستسقط مغشيًا عليك عند وصولنا إلى هذا الميدان، و لذلك حافظت على هذه المياه القليلة لأروى عطشك.

- شكراً... شكراً...

ما أن ارتويت حتى عادت إلىّ قوتى و أصبحت قادرًا على الكلام. قلت:

- لا يوجد أمامنا الآن إلا طريق واحد لكن تنقصنا المياه. يجب العودة.

لاحظت أنه يخفض رأسه و يتجنب النظر إلىّ فأكملت:

- يجب العودة إلى «سنيفيل» و نطلب من الرب أن يعيننا للصعود إلى قمة الفوهة.

ردد بصوت منخفض كأنه يحدث نفسه:

- العودة!

- نعم العودة و بسرعة.

هبط الصمت كثيفًا لفترة طويلة ثم قال بصوت غامض:

- حسنًا «أكسيل»، ألم تساعدك قطرات المياه على إستعادة شجاعتك و منحك القوة؟

- الشجاعة!

- أرى أنك محبطًا مثلما كنت من قبل و تتحدث بيأس.

ما نوع هذا الرجل و كيف يفكر؟ لا يريد العودة. قال لى:

- تذكر المجد و الشهرة.

- لكن هنا سنموت.

- لا «أكسيل»، عد أنت، لا أريد لك الموت.«هانز» سيصحبك فى طريق العودة و سأظل وحدى. نتركك!

- قلت لك اتركانى. بدأت الرحلة و سأكملها للنهاية أو لن أعود. عد «أكسيل».

كان يتحدث بغضب و انفعال شديد. نبرات صوته تنخفض أحيانًا ثم تصبح حادة مهددة. إنه يصارع المستحيل بقوة غامضة. لا أريد أن أتركه فى هذه الهاوية، و من ناحية أخرى غريزة البقاء تدفعنى للهرب.

تأثر المرشد بهذا المشهد. رغم أنه لا يعرف لغتنا لكن يبدو أنه فهم حوارنا بإحساسه. يبدو أنه يشعر من خلال نبرات الصوت لكنه لا يعرف ما هو دوره فى هذه اللعبة. مستعد للعودة عند أية إشارة و مستعد للبقاء إذا أراد سيده ذلك.

أنا لا أعرف لغة هذا المرشد. كيف أتفاهم معه. وضعت يدى فوق يده لكنه لم يحرك ساكنًا. أشرت إلى طريق الفوهة و لم يتحرك أيضًا. من المؤكد أنه يشعر بمعاناتى و يفهم ما أقصده من تعبيرات وجهى لكنه هز رأسه فى رفض و هو يقول:

- السيد.

- السيد! ليس سيدًا على حياتك! يجب الهرب! يجب أن نسحبه معنا! هل تسمعنى؟ هل تفهمنى؟

حاولت دفعه للقيام دون جدوى فقال عمى:

- اهدأ «أكسيل». لن تستطيع إجباره على شىء. اسمع اقتراحى.

كتفت يداى و أنا أنظر إليه فى تحد فقال:

- العقبة الوحيدة لاستكمال مشروعنا هى نقص المياه. فى النفق الشرقى المكون من الحمم و الشست و الفحم لم نعثر على أى مصدر للمياه. لكن من الممكن العثور عليها فى النفق الغربى.

أشرت له برأسى مؤكدًا شكى فى ذلك فقال بقوة:

- اسمعني! أثناء سقوطك فى الغيبوبة درست مكونات هذا النفق. إنه يتجه إلى مركز الأرض مباشرة. سنصل إلى الكتلة

الجرانيتية خلال بضع ساعات. هناك سنجد المصادر المهجورة. طبيعة الصخر هنا مختلفة و بالمنطق من الممكن العثور على المياه. هذا هو افتراضى. اسمع، لقد طالب «كولومبوس» رجاله المجهدين بالصمود لمدة ثلاثة أيام و وافقوا على طلبه و هكذا نجح فى الوصول إلى العالم الجديد. أنا «كولومبوس» فى هذه المنطقة تحت الأرض. لا أطلب منك إلا يوم واحد فقط. لو مر هذا اليوم دون أن نصل للمياه أقسم لك أننا سنعود إلى سطح الأرض.

رغم كل غضبى إلا أننى احتفظت بالصمت أمام إرادته الحديدية و أسلوبه العلمى ثم صرخت:

- إن لم نصل إلى هدفك خلال بضع ساعات سنعود.

●●●

(٢٢)

عاودنا الهبوط فى النفق الآخر. «هانز» يسير أمامنا حسب العادة. قبل أن نكمل مائة خطوة راح البروفوسير يتجول بمصباحه على الجدران ثم صرخ:

- هذه هى الأرض الأولية. نسير فى الطريق الصحيح! إلى الأمام!

عندما بدأت الأرض تبرد شيئًا فشيئًا فى بداية تكونها، اضمحل حجمها و نتيجة لذلك تكونت على القشرة الشقوق و الكسور و الحفر. الممر الذى نعبره الآن من هذا النوع، منه خرجت الصخور الجرانيتية بالانفجار. المنحنيات الكثيرة تشكل متاهة فى هذه الأرض الأولية.

لأننا نهبط بالفعل أصبحت طبقات الأرض البدائية تتابع فى وضوح. العلوم الجيولوجية تعتبر هذه الأرض البدائية هى أساس القشرة المعدنية، و من المعلوم أنها تتكون من ثلاث طبقات مختلفة هى الشست و الصلصال و الطلق المنضد. كل هذا يترسب فى الصخور المسطحة التى نطلق عليها جرانيت.

المتخصصون فى المعادن لن يجدوا مكان أفضل من ذلك لدراسته. و لأن المجسات لا تستطيع التعمق فى الأرض فها نحن نرى كل شىء رؤية العين و نلمسه بأيدينا.

فى طبقات الشست المتدرجة فى اللون الأخضر نجد خيوط النحاس و الماغنسيوم بالإضافة إلى القليل من خيوط الأبلاتين و الذهب. تخيلت حجم هذا الكنز الضخم المختفى عن أيدى الإنسان. هذه الكنوز تمتزج و تختفى فى الأعماق البعيدة منذ بداية الخلق.

يلى طبقة الشست طبقة من حجر الصوان فى شكل مبهر بتموجاتها ثم نجد الطلق المنضد فى طبقات رقيقة تجذب العين بوميض الليكة.

ضوء المصباح يتجول فى جنبات الطبقات الصخرية و يكشف لنا من كل الزوايا نتائج الألعاب البركانية حتى أصبحت أشعر أننى أتجول داخل جوهرة مفرغة يتساقط عليها الضوء من كل إتجاه.

فى السادسة مساءً بدأت بهجة الضوء تضمحل حتى كادت أن تختفى. أصبحت الجدران مكسوة بالكريستال لكنه معتم. الليكة تمتزج بسليكات الألومونيوم و الكوارتز لتكوّن صخر مدهش. الصخور هنا فى غاية الصلابة و لا يمكن كسرها أبداً، و هى توجد فى أربع طبقات. أصبحنا داخل سجن ضخم من الجرانيت.

لـم نعثـر علـى المياه حتـى الثامنـة مسـاءً. الظمـأ شـديد. عمـى يتقدمنـى و لا يريـد التوقـف أبـدًا. يصغـى السـمع لالتقـاط صـوت أى مصـدر للميـاه دون جـدوى.

أشـعر بأقدامـى عاجـزة عـن حملـى. كتمـت معاناتـى حتـى لا أجبـر عمـى علـى الاسـراع. إنهـا لحظـة اليـأس بالنسـبة لـه. انتهـى اليـوم الـذى طالبنـى بـه. فقـدت قوتـى و سـقطت و أنـا أصـرخ:

- أنا أموت!

عاد عمى بضع خطوات يتأملنى مكتوف الأيدى ثم قال بحزم:

- كل شىء انتهى!

رمانى بنظرة غاضبة وأغلقت عينى.

عندمـا فتحـت عينـى رأيـت رفاقـى لا يتحـركان تحـت الغطـاء. هـل نامـا؟ بالنسـبة لـى لـم أغفـو لحظـة واحـدة. أتألـم كثيـرًا و أعلـم عـدم وجـود عـلاج لآلامـى. كلمـات عمـى الأخيـرة تتـرد فـى أذنـاى. كل شـىء انتهـى. طبعًـا، فـى مثـل هـذا الإعيـاء و الضعـف لـن نسـتطيع الوصـول إلـى سـطح الأرض. نحـن علـى عمـق فرسـخ و نصـف.

أشـعر بثقـل كل هـذه الصخـور فـوق أكتافـى. أشـعر بنفسـى مسـحوقًا.

مرت الساعات و الصمت كثيف حولنا، صمت القبور. لا يصل إلينا أى صوت عبر هذه الطبقات الأرضية السميكة.

فى هذه الحالة من الضعف، أعتقد أننى أسمع صوتًا. العتمة شديدة فى هذا النفق. تلفت فى حذر و بدا لى أن الأيسلندى يختفى و هو يحمل المصباح.

لماذا يرحل؟ هل «هانز» سيتركنا؟ عمى نائم. أريد أن أصرخ لكنى لم أستطع من شدة الوهن و الظمأ.

العتمة أصبحت أشد و أقسى. صرخت:

- «هانز» ستتركنا.. «هانز».. «هانز»!

صرختى كانت داخلية. الكلمات لم تخرج من فمى. و بعد لحظة الرعب الأولى خجلت من شكوكى فى هذا الرجل الذى لا نجد فى سلوكه أية شبهة. إنه لا يصعد النفق بل يهبط. كما أنه ترك متعلقاته جوارنا. ثم استعدت هدوئى و داهمتنى شكوك جديدة. ما الذى انتزع هذا الرجل الهادئ من نومه؟ هل ذهب لاستكمال الاكتشاف بمفرده بعد أن سمع همهمات عمى؟

●●●

(٢٣)

رحت أبحث عن دوافع المرشد لفعل ذلك. جالت فى خاطرى أفكار عبثية كثيرة حتى أصبحت على وشك الجنون. و أخيرًا سمعت حركات فى عمق الجب. «هانز» يصعد مسبوقًا بالضوء ينعكس على الجدران. إتجه إلى عمى و أيقظه و قال له كلمة غريبة باللغة الدنماركية. فى مثل هذه المواقف يضطر الإنسان لتعلم لغات كثيرة. صرخت و أنا أصفق بيدى:

- مياه! مياه!

أكد المرشد وجود المياه فى الأسفل. ضغطت على يده سعيدًا بينما هو يرقبنى بهدوء.

الاستعداد للتحرك لم يأخذ وقتًا طويلاً. هبطنا فى النفق بسرعة. هبطنا ألفى قدم خلال ساعة واحدة. فى هذا المكان سمعنا صوت الرعد القادم من العالم البعيد. تقدمنا فى النفق لمدة نصف ساعة دون العثور على المصدر المطلوب و دب اليأس فى نفسى، لكن عمى أكد لى:

- « هانز» على صواب. ما نسمعه هو صوت تيار المياه.

سألت:

- تيار؟

- بالتأكيد .. يوجد نهر تحت أرضى يجرى هنا!

هرولنا مدفوعين بالأمل. لا أشعر بالتعب. صوت المياه أصابنى بالحماس. فى البداية كان التيار يجرى فوق رؤوسنا و الآن يجرى خلف الجدران اليسرى. تيار مندفع بشدة. رحت أتلمس الصخور أملاً فى العثور على رشح أو رطوبة دون جدوى.

خلال نصف ساعة اقتحمنا فى النفق نصف فرسخ. يبدو أن المرشد لم يتعمق كثيرًا أثناء بحثه لكنه شعر بوجود المياه بحسه كمتسلق محترف للجبال. لكنه لم ير الماء بعينه.. بعد ذلك اكتشفنا أننا نبتعد عن مصدر المياه لأن الصوت ينخفض.

عدنا بضع خطوات ثم توقفنا فى مكان محدد حيث نعتقد أن الصوت هنا أقوى من أى مكان آخر. جلست مرهقًا جوار الجدار بينما المياه تجرى على بعد قدمين فقط. الجدار الجرانيتى يشكل حاجزًا منيعًا.

فقدت صوابى. فقدت عقلى كله. لا أجد أية طريقة للوصول إلى المياه و سقطت فى اليأس التام. بدا لى أن «هانز» يبتسم وهو يرقبنى.

أخذ المصباح و اقترب من الجدران و أنا أتبعه. لصق أذنيه على الصخر الجاف فى عدة أماكن منصتًا بانتباه شديد بحثًا عن المكان المحدد حيث يكون صوت التيار شديدًا. و عثر على المكان المحدد فى الجدار الأيسر على ارتفاع ثلاثة أقدام فوق رؤوسنا.

كنت غبيًا لأننى لم أفهم مقصده. ثم ضغطت على يده وصفقت له مشجعًا عندما رأيته يحاول حفر ثقب بالمعول. و صرخ عمى مرتجفًا:

- «هانز» على حق. لماذا لم نفكر فى ذلك؟

بالفعل لم نفكر فى هذه الطريقة لكن لا يوجد ما هو أخطر من ذلك عندما تكون فى باطن الأرض. أية ضربة خاطئة قد تجعل الصخور تنهار علينا و نُسحق تحتها، و ربما ينفجر النهر و يغرقنا. نحتاج إلى ساحر لمواجهة هذه الأخطار. الخوف من الانهيار أو الغرق لا يمنعنا. الظمأ الشديد يجعلنا مستعدين لإلقاء أنفسنا فى عمق المحيط.

بدأ «هانز» فى حفر الثقب دون معاونة منى و لا من عمى. نرتجف خوفًا من انفجار الصخور بينما «هانز» يعمل بهدوء، يحفر بدقة و حذر حتى وصلت مساحة الحفرة إلى نصف قدم. أصبح هدير التيار أكثر وضوحًا و بدأت أشعر بالارتواء.

استمر «هانز» فى الحفر لمدة ساعة حتى أصبح عمق الحفرة حوالى قدمين. كنت أرتجف من الذعر بينما عمى يرغب فى أسرع الطرق. أمسك المعول و هم لمعاونة «هانز» لكنى منعته. هذه العملية يجب أن تتم بدقة و مهارة. فى هذه اللحظة سمعنا الصفير و انفجرت المياه حتى وصلت إلى الجدار المقابل.

سقط «هانز» من الألم و صرخ. فهمت صرخته عندما لمست المياه بيدى و صرخت:

- المياه تغلى. مائة درجة تقريبًا.

قال عمى:

- حسنًا، ستبرد بعد قليل.

سرى البخار فى الممر بينما انساب النهر الصغير ليضيع فى الشقوق الأرضية و بعد ذلك ارتوينا.

يالها من متعة! بهجة غامضة! ما هذه المياه؟ ما مصدرها؟ هذا لا يهم. المهم إنها مياه. مهما كانت ساخنة لكنها تعيد لنا الحياة التى كانت على وشك الفرار. شربت كثيرًا دون أن أتذوق وبعد لحظات صرخت:

- يوجد بالمياه الكثير من الصدأ.

فسر عمى قائلاً:

- هذا جيد للمعدة. تحتوى كمية كبيرة من المعادن و هذه إحدى فوائد الرحلة.

- هل تعتقد هذا جيد؟

- أعتقد ذلك. و لن نجد أفضل من ذلك على عمق فرسخين تحت سطح الأرض. هذا النبع سيشتهر و سنطلق عليه اسم «هانز» الذى اكتشفه و أعتقد يجب اطلاق اسمه على هذا النهر الذى أنقذنا.

- حسنًا.

«هانز» لا يفخر بعمله بل انزوى فى أحد الأركان هادئًا و قلت لهما:

- لا يجب أن نترك هذه المياه تضيع منا.

سأل عمى:

- لماذا؟ أعتقد أن هذا النبع لن ينضب.

- فى كل الأحوال يجب أن نملأ الزمزميات ثم نعمل على سد الثقب.

اتبعـوا نصيحتـى وحـاول «هانـز» سـد الثقـب بالحجـارة الجرانيتيـة. لكـن المهمـة صعبـة لأن الميـاه المغليـة تحـرق يـده. قلـت:

- أعتقـد أن الطبقـة الصخريـة فـوق هـذا النبـع علـى ارتفـاع كبيـر، و هـذا مـا جعـل الميـاه تندفـع بقـوة.

فسر عمى:

- بالتأكيـد، الضغـط هنـا شـديد جـدًا طالما أننـا فـى عمـق اثنـين و ثلاثـين ألـف قـدم. لكـن لـدى فكـرة.

- ما هى؟

- لماذا نحاول سد الثقب؟

- لأن...

حاولت البحث عن سبب مقبول لكن عمى سأل:

- بعد أن تفرغ الزمزيات، هل نثق فى وجود نبع آخر للمياه؟

- بالتأكيد لا.

- إذًا نتـرك هـذه الميـاه تنسـاب بتلقائيـة و هـى التـى سترشـدنا فـى الطريـق.

قلت:

– فكرة جيدة، لو صاحبنا هذا النهر طوال رحلتنا سينجح مشروعنا.

قال البروفوسير و هو يضحك:

– فهمتنى يا بنى.

– أفهمك جيداً و لهذا أتبعك. و الآن يجب أن نستريح قليلاً.

فى الحقيقة أننا الآن فى المساء. لكنى علمت ذلك من الكرونومتر. و رحنا فى نوم عميق.

●●●

(٢٤)

فـى اليـوم التالـى نسـينا كل معاناتنـا السـابقة. لـم أعـد أشـعر بالظمـأ. المياه تنسـاب تحـت أقدامنـا. بعـد تنـاول الإفطـار شـربنا مـن المياه الممزوجـة بالصـدأ. شـعرت بالانتعـاش و قـررت اسـتكمال الرحلـة للنهايـة. مالـذى يمنـع رجـل واثـق مـن نفسـه مثـل عمـى مـن النجـاح طالمـا معـه مرشـد جيـد مثـل «هانـز» و ابـن أخ جـاد مثلـى؟ هكـذا انسـابت الأفـكار الجميلـة فـى رأسـى. لـو طلبـوا منـى العـودة سـأرفض بشـدة. أصبـح الهبـوط فـى عمـق الأرض مبهجًـا و قلـت فـى نفسـى: هيـا بنـا لاقتحـام باطـن الأرض.

عاودنـا مسـيرتنا يـوم الخميـس فـى الثامنـة صباحًـا. الممـر الجرانيتـى يلتـوى كثيـرًا و فـى كل الاتجاهـات مثـل المتاهـة. لكـن بصفـة عامـة يتجـه إلـى الجنـوب الشـرقى. عمـى لا يكـف عـن مراقبـة البوصلـة بدقـة لتحديـد طريـق العـودة.

النفـق يسـير بشـكل أفقـى تقريبًـا، الميـل بسـيط جـدًا، الميـاه تنسـاب تحـت أقدامنـا بهـدوء. قارنـت هـذا النهـر بالأنهـار الأرضيـة وسـط الحقـول و شـعرت بلمسـة يـد محبوبتـى الغضـة. أشـعر كأننـى أعيـش داخـل أسـطورة.

بالنسبة لعمى يضيق من أفقية الطريق، لا يرغب إلا فى الهبوط الرأسى. يرى الطريق طويلاً و بلا نهاية لكن لا يوجد أمامنا اختيارات. لا نستطيع التوجه إلى مركز الأرض إلا من هذا الطريق و لا يجب أن يشكو.

من حين لآخر تنحدر المياه بقوة و نتوغل أكثر فى عمق الأرض بصفة عامة، فى هذا اليوم و اليوم التالى كنا نسير على طرق أفقية و لا نهبط إلا قليلاً.

يوم الجمعة ١٠ يوليو، بعد الحسابات، يجب أن نكون الآن على بعد ثلاثين فرسخًا فى اتجاه الجنوب الشرقى من «ريكشواك» وفى عمق فرسخين و نصف.

رأينا تحت أقدامنا بئر مرعب. ارتبك عمى و هو يحاول قياس صلابة هذه المنحدرات ثم قال:

- هذا سيقودنا إلى أعماق أكبر. و من السهل هبوطه لأن بروزات الصخور تبدو كأنها سلم حقيقى.

قام «هانز» بإسقاط الحبال بنفس الأسلوب الذى نتبعه دائمًا و بدأنا الهبوط. لم أشعر بالغضب لأننى اعتدت هذا المجهود.

هذا البئر عبارة عن شق ضيق جداً وسط الكتلة الصخرية، تكوّن فى الأزمان السحيقة عندما بدأت الأرض تبرد. لا يبدو أن

الحمم البركانية مرت من هنا أثناء الانفجار لأننى لا أجد لها أى أثر. نهبط بشكل لولبى كما لو أن هذا البئر بفعل الإنسان.

نتوقف كل ربع ساعة للاستراحة و التقاط النفس. نجلس فوق بعض الصخور البارزة و نلقى أرجلنا فى عمق البئر الذى لا نهاية له. نتحاور أثناء تناول الطعام و نشرب من المياه المنسابة.

المياه تندفع مثل شلال صغير لكنها كافية لتروى ظمأنا. أحيانًا يكون الشلال قويًا عنيفًا مثل عمى القوى المتعجل و أحيانًا يكون هادئًا مثل المرشد الأيسلندى.

استمر الهبوط يومى ١١ و١٢ يوليو فى شكل لولبى. تعمقنا فرسخين آخرين داخل القشرة الأرضية. يعنى خمس فراسخ تحت سطح البحر. لكن فى يوم ١٣ يوليو انحنى البئر بزاوية ٤٥ درجة تقريبًا.

أصبح الطريق مملاً لكن يصعب التوغل به فى بعض الأحيان. يوم الأربعاء ١٥ يوليو أصبحنا فى عمق سبعة فراسخ تحت سطح الأرض و على بعد خمسين فرسخ من قمة «سنيفيل». الإجهاد شديد جدًا لكننا جميعًا فى حالة صحية جيدة و لم نستخدم أى من الأدوية حتى الآن.

عمى يتابع كل ساعة البوصلة، الكرونومتر، المانومتر والترمومتر و يدون ملاحظاته لنشرها فى كتابه العلمى بعد ذلك. هكذا يستطيع تحديد موقعنا بدقة و لم أندهش عندما أخبرنى أننا نبعد أفقيًا خمسين فرسخًا. سألنى:

- ماذا بك؟

- لا شىء لكن لدى اعتقاد.

- ما هو يا بنى؟

- لو كانت حساباتك صحيحة فهذا يعنى أننا لسنا تحت أيسلندا.

- ماذا تعتقد؟

- من الممكن التأكد من صحة رأيى.

فحصت الخريطة بالبرجل ثم قلت:

- لست مخطئًا. لقد تجاوزنا رأس «بورتلاند» و نحن الآن تحت قاع البحر.

فرك عمى يده و هو يردد:

- تحت قاع البحر.

قلت:

- نعم! المحيط كله فوق رؤوسنا.

- حسنا «أكسيل». هذا أمر طبيعى. ألا تعلم بوجود مناجم للفحم تحت المياه فى «نيوكاستل»؟

البروفوسير يرى الأمر طبيعى بينما فكرة أن المحيط كله فوقنا تزعجنى. لكن فى النهاية لا يوجد فرق كبير بين الكتل الصخرية و الجبال فى أيسلندا أو مياه المحيط الأطلنطى. الأمر يتوقف على مدى صلابة القشرة الأرضية فوقنا. أما الهبوط فى البئر ليس مزعجًا، أحيانًا يكون البئر ضيقًا جدًا و أحيانًا نجد منحنيات كثيرة لكن بصفة عامة نتجه نحو الجنوب الشرقى وهذا يقودنا بسرعة إلى الأعماق البعيدة.

بعد أربعة أيام، يوم السبت ١٨ يوليو، فى المساء، وصلنا إلى كهف كبير. عمى منح «هانز» أجره و قرر أن الغد للاستراحة.

●●●

(٢٥)

استيقظت يوم الأحد دون أن أستعد للترحال بسرعة مثلما كنا نفعل فى الأيام السابقة. لكن الشعور بوجودك فى عمق الهاوية ليس لطيفًا، رغم أننى اعتدت حياة الكهوف. لم أعد أفكر فى الشمس و لا النجوم و لا القمر و لا الأشجار و لا البيوت و المدن ولا أى شىء يوجد على سطح الأرض. فى موقفنا هنا نرى كل هذه الأشياء غير ضرورية.

الكهف يتكون من ردهة كبيرة. النهر مازال يتبعنا برفق على الأرضية الجرانيتية، ولأننا ابتعدنا عن المنبع بمسافة كافية انخفضت حرارة المياه وأصبح من السهل الارتواء بها.

بعد الإفطار جلس البروفوسير لمدة ساعات يدون ملاحظاته اليومية. قال لى:

- فى البداية يجب بعض الحسابات لتحديد موقعنا. أريد رسم خريطة لرحلتنا بعد العودة. مقطع رأسى لقشرة الأرض أصف به تفاصيل اكتشافنا.

- الأمر مجهد جدًا ياعمى. هل ستكون ملاحظتنا دقيقة بالقدر الكافى؟

- نعم، دونت بدقة الزوايا و المنحدرات حتى لا يكون هناك أى خطأ. لنرى موقعنا. ماذا تقول البوصلة؟

فحصت البوصلة بدقة ثم قلت:

- الشرق - ربع - جنوب شرق.

قال البروفوسير بعد أن قام ببعض الحسابات السريعة:

- حسنًا، أستنتج من ذلك أننا قطعنا خمسة و ثمانين فرسخًا من بداية رحلتنا.

- هكذا، نحن الآن تحت الأطلنطى؟

- بالتأكيد.

- و ربما تكون هناك عاصفة الآن و السفن فوقنا تتخبط بين الأمواج العاتية؟

- ممكن.

- و الحيتان تضرب بذيلها جدران السجن المحيط بنا؟

- اهدأ «أكسيل». لن تحطم القشرة الأرضية. نعود إلى حساباتنا. نحن على بعد خمسة و ثمانين فرسخًا من قاعدة «سنيفيل» فى إتجاه الجنوب الشرقى. حسب حساباتى أرغب فى التعمق الرأسى إلى ستة عشر فرسخًا.

صرخت فى فزع:

- ستة عشر فرسخًا!

- بالتأكيد.

- هذا هو السمك الذى حدده العلم للقشرة الأرضية.

- أعلم ذلك.

- حسب القوانين العلمية ستصل الحرارة إلى ألف و خمسمائة درجة.

- ربما يا بنى.

- و ستنصهر كل هذه الصخور الجرانيتية؟

- كما ترى هذا لم يحدث رغم بعض النظريات العلمية.

- مضطر لموافقتك لكن هذا يدهشنى.

- ماذا يقول الترمومتر؟

- سبعة و عشرين درجة و ستة من عشرة.

- إذًا نظرية إرتفاع الحرارة خاطئة. «هامفرى دانى» على صواب و يجب تصديقه. ما رأيك؟

- لا شىء.

فـى الحقيقـة كنـت أريـد قـول أشـياء كثيـرة. لا أصـدق نظريـة «دافـى» أبـدًا، مازلـت أخشـى الحـرارة رغـم كل الشـواهد. يجـب أن أعتـرف أن الحـرارة فـى مدخنـة هـذا البـركان الخامـد المكسـوة بالحمـم لا ترتفـع. أبحـث عـن أى برهـان جديـد دون جـدوى. يجـب علـىّ قبـول الواقـع كمـا هـو. قلـت:

- عمـى، أتفـق معـك فـى دقـة حسـاباتك. لكنـى أسـتخلص منهـا نقطـة هامـة.

- ما هـى يا بنـى؟

- هنـا، تحـت أيسـلندا، ألا يصـل نصـف قطـر الأرض إلـى ١٥٨٣ فرسـخًا تقريبًـا؟

- ١٥٨٣ فرسـخًا و ثلث.

- تقريبـا ألـف و سـتمائة فرسـخ. حسـب حسـاباتك لـم نتوغـل حتـى الآن إلا سـتة عشـر فرسـخًا فقـط.

- هـذا صـحيح.

- خلال عشرون يومًا؟

- نعم عشرون يومًا.

- لـم نتعمـق إلا عشـر المطلـوب فـى عشـرين يومًـا، إذًا نحتـاج إلـى ألفـى يـوم لنصـل إلـى العمـق الـذى تريـده. يعنـى خمـس سـنوات.

لم يجبني البروفوسير. كنت محقًا فى حساباتى لأننا نهبط على طرق شبه أفقية، زاوية الإنحدار ضعيفة جدًا. ثم قال البروفوسير غاضبًا:

- فلتذهب حساباتك إلى الجحيم. فلتذهب افتراضاتك إلى الجحيم. ما هو دليلك؟ من قال لك أن هذا الطريق لن يقودنا إلى هدفنا مباشرة؟ أنا لدى البرهان. قام غيرنا بما نقوم به الآن. و كما نجح سأنجح أنا أيضًا.

- آمل ذلك، لكن هل تسمح لى...

- أسمح لك بالصمت «أكسيل».

أصبح عمى فى غاية العصبية و يجب الحذر منه ثم قال:

- الآن افحص المانومتر.

- الضغط شديد.

- حسنًا، أرأيت أننا اعتدنا الضغط الشديد لأننا نهبط ببطء. لا نعانى أى شىء.

- لكن الطنين فى أذنى.

- ليست مشكلة كبيرة. عليك أن تكتم أنفاسك بضع لحظات ليختفى هذا الطنين.

لا أريد مضايقته لكنى سألته:

- أفعل ذلك، لكن ألا تعلم أن الطنين سيزداد مع التعمق أكثر؟

- بالتأكيد لكن حسب القوانين المعروفة قليلاً، قوة الجاذبية تنخفض مع الهبوط. تعلم أن هذه القوة تظهر بوضوح على سطح الأرض لكن فى مركز الأرض الأشياء لاتزن شيئًا.

- أعلم ذلك، لكن ألن يختفى الهواء بتأثير كثافة الماء؟

- بالتأكيد، تحت ضغط ٧٠٠.

- و فى الأسفل؟

- فى الأسفل الكثافة ستزداد.

- كيف نهبط إذًا؟

- حسنًا، سنضع الطوب فى جيوبنا.

- أنت تجد إجابة لكل سؤال.

لا أستطيع أبدًا الاستمرار فى الحوارات العلمية معه. أعلم جيدًا أنه تحت الضغط الشديد سيتحول الهواء إلى الحالة الصلبة و لن تستطيع أجسادنا تحتمل ذلك. يجب التوقف حسب كل النظريات العلمية لكن عمى معجب جدًا بـ «ساكنوسم». لم أفصح عن شكوكى رغم أن لدى البرهان.

فـى القـرن السـادس عشـر لـم يكـن هنـاك بارومتـر و لا مانومتـر. كيـف أدرك «سـاكنوسـم» أنـه وصـل إلـى مركـز الأرض. احتفظـت بهـذه الفكـرة لنفسـى و نـرى مـا سـيحدث.

أمضينـا بقيـة اليـوم فـى الحسـابات و الملاحظـات. تحـاورت معـه كثيـرًا بينمـا «هانـز» يتبعنـا مثـل الأعمـى و يجهـل مصيـره.

●●●

(٢٦)

يجب الاعتراف أن الأمور تسير بشكل جيد حتى الآن و لا يجب أن أشكو. لو لم تتضاعف المصاعب سنصل إلى هدفنا. يا له من مجد! بدأت أعذر البروفوسير «ليدنبروك». لكن هل يجب أن نعيش فى هذا الجو الغريب من أجل الحصول على المجد؟ ربما.

هبطنا بعض المنحدرات السريعة لعدة أيام، بعضها رأسىٌ مرعبٌ يقودنا إلى عمق الصمت الداخلى. فى بعض الأيام نقترب فرسخ و نصف أو فرسخين من مركز الأرض.

فى هذا الهبوط المرعب أدركت أهمية «هانز». أدركت أهمية قوة أعصابه و ثباته. هذا الأيسلندى يتعامل بهدوء غامض وبفضله نجحنا فى التغلب على مصاعب كثيرة.

على سبيل المثال، صمته ينمو يوم وراء يوم حتى اعتقدت أنه أصابنا بالصمم. العالم الخارجى له تأثير كبير على عقولنا. المسجون بين أربعة جدران يجد صعوبة فى ترتيب أفكاره وكلماته. لهذا يصاب المساجين بالبله، إن لم يكن الجنون.

بعد أسبوعين من محاورتنا الأخيرة لم تحدث أحداث هامة. لا أجد فى نفسى إلا ذكرى ضخمة أليمة و لا أستطيع نسيان أدق تفاصيلها.

يوم ٧ أغسطس، بعد الهبوط المتتالى وصلنا إلى عمق ثلاثين فرسخًا. يعنى يوجد فوقنا ثلاثين فرسخًا من الصخور و المحيط و القرى و المدن. من المفترض أننا الآن على بعد مائتى فرسخ من أيسلندا.

فى هذا اليوم بدأ النفق فى الميل قليلاً. كنت أسير فى المقدمة. عمى يحمل إحدى المصباحين و أنا أحمل المصباح الآخر و أتفحص الصخور الجرانيتية. و فجأة التفت لأجد نفسى وحدى. قلت فى نفسى: حسنًا، أنا أسير بسرعة أو ربما «هانز» و عمى توقفا فى الطريق. يجب اللحاق بهما. من حسن الحظ أن الطريق لا يصعد بشدة.

رجعت بضعة خطوات. سرت لمدة ربع ساعة و لم أجد أحد. ناديت عليهما و لم يجبنى أحد. ضاع صوتى و هو يتردد بين الصخور و الكهوف. بدأت أشعر بالخوف و سرت الرجفة فى جسدى.

قلت فى نفسى بصوت مرتفع: بعض الهدوء، ستعثر عليهما. لا يوجد طريقين. و بما أننى فى المقدمة لا يجب إلا العودة.

صعدت لمدة نصف ساعة و أنا أنصت بحذر لأى نداء منهما. فى هذا الضغط الجوى الكثيف سيصلنى نداءهما مهما كان بعيدًا. الصمت ثقيل جدًا فى هذه الهاوية الضخمة.

توقفت. لا أستطيع تصديق هذه العزلة. أفضل أن أكون تائهًا و ليس مفقودًا. التائه سيعود.

كررت فى نفسى: طالما أنه لا يوجد إلا طريق واحد فقط سأعثر عليهما. لابد من الاستمرار فى الصعود لكن من الممكن أنهما يعتقدان فى وجودى خلفهما و بدأا هما أيضًا فى العودة. لكن حتى فى هذه الحالة لو سرت بسرعة سألحق بهما. هذا مؤكد.

شجعت نفسى بهذه الافتراضات لكن ترتيب هذه الأفكار البسيطة بشكل منطقى يحتاج إلى وقت طويل. ثم بدأت أشك فى نفسى. هل كنت فى المقدمة فعلاً؟ بالتأكيد، «هانز» يتبعنى يليه عمى. لقد توقف لحظات ليحكم ربط أمتعته على كتفه. تذكرت هذه الواقعة فجأة و استكملت طريقى.

يوجد طريقة جيدة تحفظنى من التيه، خط يرشدنى، إنه النهر الذى يتبعنا فى هذه المتاهة. يجب تتبع هذا النهر و سأعثر بسرعة على آثارهما. هذه الفكرة أنعشتنى و رحت أسير بسرعة.

كانت فكرة عمى رائعة عندما منع المرشد من سد الثقب. نرتوى من هذا النبع كما أنه يقودنا فى طبقات القشرة الأرضية.

قبل الصعود يجب الاغتسال بهذه المياه لكنى لم أجد إلا الجرانيت الجاف المتجعد. اختفى النهر من تحت أقدامى.

(٢٧)

لا أستطيع التعبير لكم عن يأسى. لا أجد كلمات مناسبة. دُفنت حيًا و أنا أتخيل معاناة الجوع و الظمأ.

رحت أتلمس الأرضية بيد مرتجفة. الصخور جافة تمامًا. كيف ابتعدت عن مجرى المياه؟ الآن فهمت سبب الصمت الكثيف عندما ناديت على رفاقى. لكنى لم أشعر باختفاء المياه من تحت أقدامى إلا الآن. من المؤكد أن فى هذه اللحظة ظهرت أمامى فتحة جديدة فى النفق بينما انسابت المياه فى المنحدر الآخر مع رفاقى إلى أعماق مجهولة.

كيف أعود إليهم؟ لا يوجد أى أثر لهما. الأقدام لا تترك أى أثر على الجرانيت. كادت رأسى أن تتحطم بحثًا عن حل لهذه المشكلة التى لا حل لها. لا أشعر إلا أننى مفقود!

نعم! مفقود فى أعماق سحيقة! أشعر بثقل الثلاثين فرسخًا من الصخور فوق أكتافى، أشعر بنفسى مسحوقًا تحت هذا الوزن الرهيب.

حاولت التفكير فى الأشياء الأرضية. تذكرت بالكاد «هامبورج»، منزل «كونجستراس» و المسكينة «جروبن». طفت كل الذكريات فى

ذهنـى و أنـا أعانـى التيـه أسـفل هـذا العالـم. تذكـرت بعـض أحـداث الرحلـة، عبـور البحـر، أيسـلندا، السـيد «فريد ريكسـون» و «سـنيفيل».
فـى مثـل هـذا الموقـف لـو ظـل لديـك ظـل مـن الأمـل فهـذا نـوع مـن الجنـون. مـن الأفضـل الاستسـلام لليـأس. مـن القـادر علـى إخراجـى مـن هـذه الصخـور الضخمـة للوصـول إلـى سـطح الأرض؟ مـن القـادر علـى أن يقودنـى لرفاقـى؟ صرخـت فـى يـأس: لا يسـتطيع ذلـك إلا عمـى! فـى هـذه اللحظـة تضاعـف همـى لأننـى أعلـم مـدى معانـاة عمـى عندمـا يكتشـف غيابـى.

عندمـا رأيـت نفسـى بعيـدًا عـن أى إنقـاذ بشـرى، عاجـزًا عـن العـودة بأمـان، بـدأت أفكـر فـى الإنقـاذ السـماوى. عـادت إلـىّ ذكريـات الطفولـة، أمـى الحنونـة. تذكـرت بعـض الصلـوات الدينيـة و رحـت أرددهـا. العـودة للـرب أعـادت لـى بعـض الهـدوء و بـدأت أركـز كل فكـرى للخـروج مـن هـذا المـأزق.

يوجـد معـى طعـام يكفـى لثلاثـة أيـام، يوجـد ميـاه فـى الزمزميـة. مـع ذلـك لا أسـتطيع البقـاء وحيـدًا كثيـرًا. هـل يجـب الصعـود أو الهبـوط؟ الصعـود بالتأكيـد! دائمًـا الصعـود!

يجـب الوصـول إلـى نقطـة اختفـاء النهـر، إلـى المكان الـذى ظهـرت بـه الفتحـة المهلكـة، و عندمـا أعثـر علـى النهـر سيسـهل الصعـود إلـى قمـة «سـنيفيل».

كيف لم أفكر فى ذلك من قبل؟ ربما توجد فرصة للنجاة. يجب العثور على النهر بسرعة.

تلمست الأرضية بالعصا الحديدية و أنا أصعد النفق. الأرضية مجعدة كثيرًا. تقدمت و أنا أشعر بالأمل و بدون أى تردد. لا يوجد أمامى طريق آخر.

لم أجد أية عقبة أمامى لمدة نصف ساعة. أحاول البحث بين الصخور البارزة عن أية علامات واضحة، لكنى لم أعثر على علامات مميزة فى ذهنى. أدركت أن هذا النفق لن يقودنى إلى الفتحة المنشودة. لا يوجد أى مخرج من هذا النفق. اصطدمت بصخرة و سقطت.

لا أستطيع أن أصف لكم مدى الرعب و اليأس. كانت هذه الصخرة هى آخر أمل لى.

ضعت فى هذه المتاهة المتعرجة فى كل الاتجاهات. لا يوجد أى أمل فى النجاة. يجب أن أموت بأبشع طريقة. ثم داهمتنى فكرة غريبة. لو عثروا ذات يوم على جثتى المتحجرة فى عمق ثلاثين فرسخًا تحت سطح الأرض ستصبح مشكلة علمية خطيرة.

أريد التحدث بصوت مرتفع لكن الكلمات تقف فى حلقى وألهث.

وسـط كل هـذه الآلام ظهـرت لـى مشـكلة جديـدة. سـقط مصباحـى و تلـف. لا أجـد أيـة طريقـة لإصلاحـه. بـدأ الضـوء يخفـت و الظـلال تتحـرك علـى الجـدران. لـم أسـتطع إغـلاق عينـى حتـى لا أفقـد الضـوء الهـارب.

أخيرًا ارتجف أخر شعاع ضوء و اختفى. أصبح الظلام كثيفًا.

صرخـت فـى هلـع. هـذا الشـعاع مهمـا كان ضعيفًـا إلا أنـه فـى غايـة الأهميـة فـى غيـاب الأرض. كان يجـب أن يسـتمر. العتمـة المطلقـة سـتصيبنى بالعمـى.

دارت رأسـى. مـددت يـدى أمامـى محـاولاً الهـرب مـن هـذه المتاهـة. أشـعر أننـى أهبـط، أعيـش وسـط الكائنـات التحـت أرضيـة صاحبـة الصرخـات المفزعـة بـين الصخـور. هـذه الكائنـات سـترتوى بدمـى. رحـت أتلمـس الجـدران بحثًـا عـن أيـة فتحـة.

إلـى مـاذا سـينتهى هـذا السـباق اللعـين؟ أجهـل كل شـىء. بعـد سـاعات طويلـة سـقطت فاقـد الوعـى بـين الجـدران.

●●●

(٢٨)

عندما عدت إلى الوعى كان وجهى مبتلاً بالدموع. لا أعرف كم من الوقت مضى. لا أجد أية طريقة لحساب الوقت. لم أشعر بمثل هذه الوحدة من قبل. معزول عن كل العالم.

عندما سقطت سالت الدماء من جراحى و أغرقتنى. الحمد لله أننى ما زلت حيًا. لا أحب التفكير فى الموت. رتبت أفكارى واتجهت إلى الجدار المقابل. يبدو أن عقلى بدأ يتلف. أسمع ضجة تسرى بين الصخور مثل الرعد، تموجات تضيع بعيدًا فى أعماق الأرض. ما هذه الضجة؟ ما الظاهرة التى تحدث الآن فى باطن الأرض؟ انفجار الغازات أم سقوط الطبقات الأرضية؟

تنصت بحذر لأعرف إن كان الصوت سيعود. خيم الصمت لمدة ربع ساعة فى النفق. لا أسمع حتى نبضات قلبى.

عندما استندت إلى الجدار، التصقت به أذنى بالمصادفة وسمعت كلمات مبهمة من بعيد. إرتجفت. بالتأكيد هلاوس.

لكن لا. عندما انتبهت سمعت أصوات حقيقية، ذهنى لا يسمح لى بالفهم لكنى واثق من الصوت.

تشككت أن يكون هذا الصوت صدى صوتى. ربما تخرج الكلمات من فمى دون وعى. أغلقت فمى تمامًا و لصقت أذنى بالجدار. نعم يتحدثون.

تجولت على الجدار للتنصت فى أماكن مختلفة أكثر دقة. سمعت كلمات غريبة مبهمة كأنه همس. سمعت كلمة «فورلوراد» تتردد عدة مرات و الألم واضح فى نبرة الصوت.

ماذا يعنى هذا؟ من المتحدث؟ عمى أو «هانز». طالما أننى أسمعهما فمن الممكن أن يسمعا صوتى. صرخت بكل قوتى:

- أنا هنا... أنا هنا...

تنصت لالتقاط الإجابة، أية صرخة، أى نفس. لا أسمع شيئًا. مرت بضع دقائق و دارت رأسى فى كل الأفكار.

قلت فى نفسى: بالتأكيد هما عمى و «هانز». لا يوجد أى إنسان على عمق ثلاثين فرسخًا غيرنا. عاودت التنصت فى أماكن كثيرة على الجدار بحثًا عن المكان المناسب حيث يكون الصوت أوضح. سمعت كلمة «فورلوراد» مرة أخرى ثم صوت الرعد الذى ألهب عقلى.

لا. الصوت لا يسرى فى هذه الصخور. الجدار من الجرانيت و لا يمكن للصوت أن يعبره أبدًا مهما كان قويًا. هذا الصوت يأتى عبر النفق نفسه، من هنا. عاودت التنصت. نعم، هذه المرة

سمعت اسمى يتردد فى النفق. إنه عمى يتحدث مع «هانز» و يبدو أن كلمة «فورلوراد» دنماركية.

فهمت كل شىء الآن. لكى يسمعانى يجب التحدث إليهما جوار هذا الجدار الذى يعمل مثل السلك الكهربائى. لا يوجد متسع من الوقت حتى لا يبتعدا عنى. اقتربت من الجدار و قلت بصوت واضح جدًا:

- عمى «ليدنبروك».

انتظرت فى لهفة. الصوت هنا لا يسير بسرعته المعتادة، كثافة الصخور تعوقه. بعد بضع ثوانى مرت كأنها قرون سمعت:

- «أكسيل»! «أكسيل»! أهذا أنت؟

أجبت:

نعم.

- أين أنت يا بنى؟

- تائه فى الأعماق المظلمة.

- أين مصباحك؟

- فسد.

- و النهر؟

- اختفى.

- مسكين. تشجع.

- انتظر قيلاً، أنا مجهد جداً و لا أستطيع الكلام. لكن حدثنى.

قال عمى:

- تحلى بالشجاعة. لا تتكلم. اسمعنى. بحثنا عنك بالهبوط و الصعود فى النفق و لم نعثر عليك. بكيت كثيراً من أجلك. كنت أعتقد أنك جوار النهر و أطلقنا بعض النيران من البندقية. إذا كنت تسمعنى فهذا بسبب تردد الصوت فى الهواء. لا تيأس «أكسيل».

دب الأمل فى نفسى و تذكرت شيئًا مهمًا. اقتربت من الجدار و صرخت:

- عمى؟

جاء الرد بعد برهة:

- ابنى.

- يجب أن نعرف المسافة التى تفصل بيننا.

- هذا سهل. هل معك الكرونومتر؟

- نعم.

- حسنًا، انطق اسمى و أنت تراقب الجهاز فى نفس اللحظة و عندما أجيبك راقب الكرونومتر بدقة. نصف هذا الوقت يحدد المسافة بيننا.

- سأفعل عمى.

- هل أنت جاهز؟

- نعم.

بعد أن قمنا بهذه التجربة حدد عمى الزمن بأربعين ثانية، وبما أن الصوت يسير بسرعة ألف و عشرين قدمًا فى الثانية فهذا يعنى أن المسافة فرسخ و نصف.

غمغمت: فرسخ و نصف.

قال عمى:

- الأمر سهل «أكسيل».

- لكن هل أصعد أم أهبط؟

- إهبط و سأقول لك السبب. وصلنا إلى كهف واسع يؤدى إلى أنفاق كثيرة و شعاع الشمس يأتى من كل الأنفاق إلا النفق الذى سرت به. تقدم فى طريقك. لو كان المكان ضيق إزحف على

المنحدرات الشديدة و ستجدنى فى انتظارك فى نهاية الطريق. تقدم يا بنى.

هذه الكلمات أنعشتنى فصرخت:

- إلى اللقاء عمى. سأتحرك. صوتى لن يصل إليك عندما أغادر مكانى. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء «أكسيل».

هذه هى آخر كلمات سمعتها. هذه المحاورة الغريبة حدثت عبر طبقات القشرة الأرضية و منحتنى الكثير من الأمل. ابتهلت إلى الله بكل خشوع لأنه أرشدنى إلى المكان الوحيد الذى يسمح بنقل الصوت. الفراغ الهوائى الذى أحدثه عمى بالطلقات النارية هو ما سمح للصوت بالتنقل. هذا ما يحدث فى الأنفاق الداخلية فى كنيسة «سان بول» فى لندن، و هذا ما يحدث فى كهوف سيسيل و سيرافوس. تذكرت كل هذا و تأكدت طالما أن صوت عمى يصلنى لن يكون هناك أى حاجز بيننا. باتباع طريق الصوت سأصل إليه إن لم أُسحق فى الطريق.

لم يكن من الممكن السير لأن الانحدار شديد. انزلقت و زادت سرعة الهبوط بشكل مخيف دون أن أتحكم بها و فجأة لم أشعر بالأرضية تحتى و شعرت بنفسى أهوى فى نفق رأسى. اصطدمت بصخرة و فقدت الوعى.

(٢٩)

عندما عدت إلى الوعى رأيت نفسى ممددًا فى ظلام خفيف تحت غطاء كثيف بينما عمى يجلس جوارى قلقًا. ما أن فتحت عينى حتى صرخ فى نشوة:

- إنه حى! إنه حى!

أجبت بصوت ضعيف:

- نعم.

قال و هو يربت على صدرى:

- ابنى، نجوت من الموت المؤكد.

تأثرت كثيرًا بكلماته و تأثرت أكثر برعايته و اهتمامه. كان يجب أن نمر بهذه التجربة القاسية لأشعر بحقيقة مشاعرة.

فى هذه اللحظة وصل «هانز» و لمحت السعادة فى عينيه عندما رأى عمى يربت علىّ برفق. ألقى علينا تحية الصباح فقلت:

- صباح الخير. و الآن أخبرنى يا عمى أين نحن الآن؟

- غدًا «أكسيل»، غدًا. اليوم أنت ما زلت ضعيفًا. لا يجب تحريك الكمادات التى وضعتها فوق رأسك. نم يا بنى و غدًا ستعرف كل شىء.

عدت أسأل:

- لكن على الأقل كم الساعة؟ و فى أى يوم نحن؟

- الحادية عشرة مساءً، و اليوم الأحد ٩ أغسطس و لن أسمح لك بأى سؤال قبل الغد.

فى الحقيقة كنت ضعيفًا و أغلقت عينى رغمًا عنى. أحتاج إلى ليلة هادئة بعد أن أمضيت يومين معزولاً.

عندما استيقظت فى اليوم التالى تلفت أتأمل المكان حولى. فراشى الذى يتكون من كل الأغطية التى معنا موضوع فى حفرة مبهجة و الأرضية مفروشة بالرمال الناعمة. العتمة ليست شديدة و لا يوجد أى مصباح فى المكان. الضوء يأتى من الخارج خلال فتحة ضيقة. أسمع هدير الأمواج المتعاقبة إلى ما لا نهاية و ربما صفير الرياح.

تساءلت فى نفسى إن كنت متيقظًا بالفعل أم أنه مجرد حلم. ربما يكون قد فسد عقلى من السقوط لكنى أرى و أسمع بوضوح. إنها أشعة الصباح التى تهبط علينا من هذا المنحدر. إنها بالفعل

اضطرابات الموج. إنه بالفعل صفير الرياح! أين نحن؟ هل عدنا إلى سطح الأرض؟ هل تراجع عمى عن مشروعه أم أتمه بنجاح؟ فى هذه اللحظة أتى عمى و قال مبتهجاً:

- صباح الخير «أكسيل». أرى أنك فى حالة أفضل.

قلت و أنا أجلس فى فراشى:

- نعم.

- لأنك نمت جيداً. تناوبت أنا و «هانز» السهر على رعايتك طوال الليل و نلاحظ تحسن حالتك الآن.

- بالفعل أشعر بالتحسن و الدليل أنى سألتهم الإفطار الذى ستقدمونه لى.

- ستأكل يا بنى! لقد ذهبت الحمى. «هانز» دهن جراحك بمرهم غريب لا أعرفه و يبدو أن الأيسلنديين يحتفظون بسره. مرشدنا رجل نبيل.

وضع الطعام أمامى و رحت ألتهمه بشراهة و أنا ألقى عليه بالأسئلة و أجبره على الإجابة.

علمت أن سقوطى بالعناية الإلهية قادنى إلى نفق شبه عمودى و سقطت مثل الصخرة. كان من المرجح أن أُسحق فى هذا

النفق لأننى اصطدمت بصخرة ضخمة انزلقت معى. و فى النهاية سقطت داميًا على ذراعى عمى. ثم قال لى:

- فى الحقيقة نجوت بمعجزة. إنها إرادة الرب. إنه يرغب ألا نفترق.

«ألا نفترق»! لم تنته الرحلة إذًا. فتحت عينى فى ذهول فقال عمى بسرعة:

- ماذا بك «أكسيل»؟

- ألم تقل أننى كنت أعانى الجوع و الظمأ؟

- بالتأكيد.

- و قلت أن كل أعضاء جسدى كانت سليمة؟

- بالتأكيد.

- و رأسى؟

- رغم بعض الجروح إلا أن رأسك ما زالت فوق أكتافك.

- حسنًا، أخشى أن يكون فسد عقلى.

- فسد؟

- نعم. ألم نصل إلى سطح الأرض؟

- بالتأكيد لا!

- إذًا أصابنى الجنون لأننى أرى ضوء الشمس و أسمع صفير الرياح و موجات البحر!

- آه هذا ما يزعجك؟

- أريد تفسيرًا.

- لن أفسر لك لأن هذا لا يُفسر . لكنك سترى كل شىء بنفسك و ستعرف أن علوم الجيولوجية لم تقل كلمتها النهائية حتى الآن.

- نخرج إذًا.

- لا «أكسيل» الرياح الشديدة قد تضرك.

- رياح شديدة؟

- نعم، الرياح شديدة جدًا. لا يجب أن تخرج الآن.

- لكننى فى حالة جيدة.

- اصبر يا بنى. انتكاسة المرض قد تسبب لنا مشاكل و لا يجب أن نضيع الوقت لأن العبور قد يأخذ وقتًا طويلاً.

- العبور؟

- نعم، استرح اليوم أيضًا و سنبحر غدًا.

- سنبحر؟

هذه الكلمة الأخيرة جعلتنى أقفز فى ذهول. ماذا؟ سنبحر؟ هل يوجد أمامنا نهر أو بحيرة أو بحر؟ هل يوجد موانئ فى باطن الأرض؟

حاول عمى تهدئتى دون جدوى. تدثرت بالغطاء و خرجت بسرعة.

●●●

(٣٠)

فى البداية لم أر شيئًا. لقد اعتادت عينى الظلام فأغلقتهما بسرعة من النور. عندما تمكنت من الرؤية ذُهلت و صرخت: البحر.

أجاب عمى:

- نعم. بحر «ليدنبروك». أعتقد لم تبحر أية سفينة من قبل فى هذا البحر و نلت شرف اكتشافه، و لذا يجب أن أُطلق عليه اسمى.

بقعة كبيرة من المياه تتمدد إلى ما لا نهاية. كأنها بداية بحيرة أو بداية محيط. الشاطئ فسيح يتكون من الرمال الناعمة الذهبية و يحتوى القواقع حيث تعيش أول الكائنات التى ظهرت على سطح الأرض. صوت الأمواج المعروف يتردد فى المكان ويتطاير الزبد فى الهواء الخفيف. بعض الرزاز أصاب وجهى. الأمواج تأتى من العالم البعيد لتموت فوق الصخور التى تصل إلى ارتفاعات شاهقة جدًا. بعض الموجات تعبر الشاطئ و تحطم الصخور. من بعيد نلمح الأعماق الداكنة فى الأفق. إنه محيط بالفعل مثل كل المحيطات فوق سطح الأرض لكن الشاطئ صحراوى موحش.

استطعت التجول ببصرى فوق هذا البحر لأن هناك ضوء خاص يكشف أدق التفاصيل. لكنه ليس ضوء الشمس الذهبى المعروف و لا ضوء نجوم الليل الشاحب الخالى من أية انعكاسات و لا أية حرارة. هذا الضوء يتمدد فى اضطرابات، يتمتع باللون الأبيض الواضح و الجاف و درجة حرارته منخفضة. وميضه مثل القمر أو يشبه الضوء الكهربائى مثل الشفق. ظاهرة غريبة فى هذا الكهف الذى يحوى المحيط.

فى السقف الممدد فوق رأسى، السماء لو أردتم ذلك، نجد مثل سحابة ضخمة، مجرد ضباب يتحرك و يتشكل بصور غريبة، و ربما يتحول إلى مطر بفعل الكثافة. كنت أعتقد أن بخار الماء لا يتكون تحت هذا الضغط الجوى الشديد. مع ذلك توجد سماء واسعة تتمدد فى الهواء، و هى سماء جميلة متوهجة بالضوء الكهربائى. فى هذه السماء نلمح الظلال المتحركة. من بين السحب يتساقط الضوء علينا بكثافة شديدة. لكنها ليست الشمس لأن الضوء بلا حرارة. المكان حزين و مربك. بدلاً من النجوم ألمح الكتل الجرانيتية التى يمكنها أن تسحقنى بوزنها. التجول فى هذا المكان مذهل.

تذكرت نظرية القبطان الإنجليزى الذى يشبه الأرض بكرة ضخمة مفرغة و فى داخلها يكون الهواء مضيئًا تحت الضغط الشديد بينما يكون هناك كوكبين غامضين. هل نظريته صحيحة؟

فـى الحقيقـة نحـن محبوسـون داخـل حفـرة ضخمـة و لا نسـتطيع تحديـد مسـاحتها طالمـا أن الشـاطئ يتمـدد علـى مرمـى البصـر. و لا نسـتطيع معرفـة مسـاحة الشـاطئ لأن البصـر يتوقـف عنـد جبـال ضخمـة. بالنسـبة لارتفـاع الحفـرة قـد يصـل إلـى فراسـخ كثيـرة. مـا هـو موقـع هـذه الحفـرة وسـط الصخـور الجرانيتيـة؟ لا أحـد يعـرف. لكـن يوجـد سـحب فـى الجـو علـى ارتفـاع شـاهق و هـى تشـبه الضبـاب الأرضـى و بنفـس الكثافـة بـلا شـك.

لـم تـأت إلـى ذهنـى كلمـة «كهـف» لوصـف هـذا المكـان الضخـم. لا يوجـد كلمـات بشـرية لوصـف الغمـوض الموجـود فـى باطـن الأرض. لا أعـرف مـا هـى الظواهـر الجيولوجيـة التـى أدت إلـى تكـون هـذا المكـان. هـل تكـوّن بفضـل بـرودة الأرض؟ أعلـم بوجـود كهـوف مماثلـة شـهيرة مـن قصـص الرحالـة لكنـى لـم أسـمع أبـدًا عـن كهـف بهـذا الاتسـاع.

إذا كانـت حفـرة «جـو شـارا» فـى كولومبيـا الـى اكتشـفها السـيد «هامبولـت» لـم تفصـح عـن سـر عمقهـا للعلمـاء الذيـن قدروا مسـاحتها بألفـى و خمسـمائة قـدم، فهـى فـى الحقيقـة ليسـت أضخـم مـن هـذه الحفـرة. كهـف الماموث الضخـم فـى «كونتاكـى» لـه أهميـة كبيـرة لأن سـقفه علـى ارتفـاع خمسـمائة قـدم و هـو موجـود فـوق بحيـرة لا قـرار لهـا يقدرهـا الرحالـة بأكثـر مـن عشـرة فراسـخ. لكـن كل هـذا

لا يساوى شيئًا بالمقارنة مع هذا المكان المهيب بسمائه الضبابية وضوئه الكهربائى و البحر الفسيح.

تأملت المكان فى صمت. لا أجد كلمات لوصف مشاعرى. أشعر كأننى فى كوكب آخر مثل يوارنوس أو نبتون لأن ما أشاهده لا ينتمى إلى كوكبنا الأرضى. يجب البحث عن كلمات جديدة. المكان مذهل و مرعب.

من المدهش أنه تم علاجى بمكونات هذه البيئة. من الغريب أن الهواء يحتوى على الكثير من الأكسجين الذى عاونى على إستعادة صحتى بسرعة. لاحظ عمى ذهولى و سألنى:

- هل تشعر أنك قادر على التجول قليلاً؟

أجبت:

- بالتأكيد، لا يوجد ما هو ألطف من ذلك.

بدأنا الجولة. من ناحية اليسار نجد الصخور الوعرة متكدسة فوق بعضها البعض لتشكل ركام ضخم يتخلله شلالات كثيرة. الدخان يتصاعد من بين الصخور يؤكد مصدر الحرارة و المياه تنحدر بهدوء إلى الحوض المشترك. أحد هذه الشلالات هو المياه التى كانت تصحبنا طوال الطريق. يبدو أن هذه المياه تنساب هنا منذ بداية الخلق. قلت:

- يبدو أن هذا النهر لن يتركنا أبدًا.

أجاب البروفوسير:

- ليس هذا مهمًا. المهم أن نكون جوار مصدر المياه.

شعرت من كلماته نكران الجميل لهذا النهر الذى أنقذ حياتنا. فى هذه اللحظة رأيت مشهدًا غير متوقع أبدًا. على بعد خمسمائة خطوة، عند منحنى شاهق، رأيت غابة ضخمة كثيفة من أشجار متوسطة الطول منحوتة على شكل الشمسية بشكل هندسى دقيق، و أوراق الشجر ساكنة تمامًا لا تتأثر بالهواء أبدًا، تبدو كأنها متحجرة. هرولت نحو الغابة. لا أعرف اسم هذه النباتات لأنها ليست من الألفى نوع التى نعرفها حتى الآن، لكن بعد أن عثرنا عليها يجب تصنيفها. زادت دهشتى عندما وصلت إلى الغابة.

رأيت نباتات أرضية لكن بأحجام ضخمة. قال عمى بسرعة:

- إنها غابة من عش الغراب.

كان محقًا فى رأيه. هذه النباتات الثمينة لا تنمو إلا فى وسط حار و رطب. أعلم بوجود أنواع عملاقة منها يصل ارتفاعها إلى ثمانية أو تسعة أقدام لكن عش الغراب هنا أبيض و يصل ارتفاعه إلى ثلاثين أو أربعين قدم. أعدادها كثيرة. الضوء لا يستطيع

اختـراق كثافتهـا و لا نجـد إلا الظـلام التـام أسـفلها مثـل الأسـقف الدائريـة الإفريقيـة.

مـع ذلـك كنـت أريـد التقـدم فـى هـذه الغابـة و سـقط البـرد قاتـلاً تحـت هـذه النباتـات. تقدمنـا لمـدة نصـف سـاعة فـى هـذه العتمـة الرطبـة و سـعدت كثيـرًا عندمـا رأيـت شـاطئ البحـر.

النباتـات التحـت أرضيـة هنـا لا تقتصـر علـى عـش الغـراب. رأينـا بعـد ذلـك عـدد ضخـم مـن الأشـجار تتمتـع بـأوراق عديمـة اللـون. مـن السـهل التعـرف عليهـا، إنهـا الأجمـة الأرضيـة لكـن أحجامهـا ضخمـة، بالإضافـة إلـى شـجيرة رجـل الذئـب يصـل ارتفاعهـا إلـى مائـة قـدم والسـرخس الضخـم الـذى يشـبه أشـجار الصنوبـر. هتـف عمـى:

– تحـف رائعـة مذهلـة. هـذه هـى كل النباتـات فـى العصـر الثانـى للكـون، عصـر التحـول. هـذه النباتـات كانـت موجـودة علـى الأرض فـى القـرون الأولـى. أنظـر «أكسـيل» لا يوجـد مـا هـو أعجـب مـن ذلـك.

– معـك حـق عمـى. احتفظـت العنايـة الإلهيـة بهـذه النباتـات التـى يبحـث عنهـا العلمـاء فـى هـذا المشـتل.

– قلت الصدق يا ولدى. إنه مشتل لكنه أيضًا مسكن.

– مسكن!

- نعم، بالتأكيد. انظر إلى التراب الذى تحت أقدامنا. هذه العظام تطفو على سطح الأرض.

صرخت:

- عظام! نعم عظام الحيوانات السابقة لعصر الفيضان.

تفحصت هذه الفضلات من الفوسفات الكلسى و دون تردد منحت لكل قطعة اسمًا. قلت:

- هذا هو الفك الداخلى لفيل قديم، و هذه ضروس دينوتريوم، أما هذه عظام فخذ أضخم الحيوانات، الديناصور. نعم إنه مأوى للحيوانات البائدة. لا يمكن انتقال هذه العظام إلى هنا بالزلزال. هذه الحيوانات البائدة كانت تعيش على شاطئ هذا البحر التحت أرضى فى ظل هذه النباتات. ألاحظ وجود هياكل عظمية كاملة. و مع ذلك...

سأل عمى:

- و مع ذلك؟

- لا أفهم سبب وجود هذه الحيوانات ذوات الأربع فى هذا الكهف الجرانيتى.

- لماذا؟

- لأن الحياة الحيوانية لم تظهر على سطح الأرض إلا فى العصر الثانى بعد أن بدأت الأرض تترسب و تأخذ الشكل الذى نعرفه الآن.

- حسنًا «أكسيل». الإجابة بسيطة و أنت اكتشفتها. هذه الأرض رسوبية.

- كيف؟ فى كل هذا العمق تحت سطح الأرض؟

- بلا شك، و يمكن تفسير ذلك من الناحية الجيولوجية. فى العصور القديمة، عندما كانت قشرة الأرض لدنة و تخضع لحركات متبادلة من أعلى و من أسفل، و هكذا تكونت. و هكذا ترسب أجزاء من الأرض فى هذه الأعماق.

- ممكن. لكن إذا كانت الحيوانات السابقة للفيضان قد عاشت فى هذا المكان التحت أرضى فمن المحتمل أنها مازالت موجودة فى هذه الغابة أو خلف الصخور.

قلت ذلك و أنا أرقب الأفق فى رعب، لكن لا توجد أية مخلوقات هنا.

كنت مجهدًا فجلست على حافة المياه. من بعيد لمحت ما يشبه الميناء بين الصخور، المياه ضحلة بدون رياح و الميناء يتسع لثلاث سفن. توقعت خروج أية سفينة تبحر بالرياح الجنونية.

لكن هذا الخيال اختفى بسرعة. نحن الكائنات الحية الوحيدة فى هذا المكان تحت سطح الأرض. الصمت أكثر كثافة من صمت الصحراء. أفكر فى اختراق هذا الضباب البعيد، تمزيق عمق هذا الغموض فى الأفق. الأسئلة كثيرة فى ذهنى. ما نهاية هذا البحر؟ إلى أى مكان يقودنا؟ هل نستطيع الوصول إلى الشاطئ الآخر؟

عمى يرغب فى اكتشاف ذلك، و أنا أرغب فى ذلك و أخشى ذلك.

بعد أن أمضينا ساعة نتأمل هذا المكان الرائع عدنا إلى الحفرة. رغم الأفكار الغريبة فى رأسى رحت فى نوم عميق.

●●●

(٣١)

استيقظت فى اليوم التالى بصحة جيدة. أعتقد أن الاستحمام مفيد جداً للصحة، فذهبت للغطس فى مياه هذا البحر.

عدت لألتهم الإفطار بشهية. قام «هانز» بطبخ الطعام بشكل جيد. لأن المياه و النيران متوافرة استطاع تجديد قائمة الطعام. بالنسبة للحلو قدم لنا فناجين القهوة و لا أعتقد أننى تذوقت ما هو أشهى من ذلك. قال عمى:

- الآن حلت ساعة المد. لا يجب أن نترك الفرصة لدراسة هذه الظاهرة.

صرخت:

- كيف؟ المد؟

- بلا شك.

- هل تأثير الشمس و القمر يصل إلى هنا؟

- لما لا؟ ألا تخضع الأجسام إلى الجاذبية الكونية؟ هل تستطيع المياه الهرب من القانون العام؟ رغم الضغط الشديد سترى بنفسك ارتفاع المياه مثلما يحدث فى الأطلنطى.

فى هذه اللحظة كنا نتجول على رمال الشاطئ و بدأت الأمواج تضطرب فصرخت:

- المد بدأ.

- نعم «أكسيل»، بهذه الأمواج المترددة سيرتفع مستوى البحر عشرة أقدام تقريبًا.

- هذا مذهل!

- لا، هذا أمر طبيعى.

- لا أصدق ما أرى. من يتخيل وجود محيط حقيقى تحت سطح الأرض. موجات و رياح و عواصف.

- و لما لا؟ هل لديك برهان فيزيقى يعارض ذلك؟

- بدأت أشك فى نظرية ارتفاع الحرارة فى مركز الأرض.

- إذًا، حتى الآن نظرية «دافى» صحيحة؟

- بالتأكيد، و لا يوجد ما يعارض وجود بحار و مدن فى باطن الأرض.

- طبعًا، لكنها مهجورة.

- حسنًا! هل من الممكن وجود أسماك معينة فى هذه المياه؟

– على كل حال لم نلمح شيئًا حتى الآن.

– يجب تجربة الصيد فى هذا المحيط التحت أرضى.

– سنحاول «أكسيل» لأنه يجب اكتشاف كل أسرار هذه المناطق الجديدة.

– لكن أين نحن يا عمى؟ بالتأكيد تستطيع أجهزتك الإجابة على هذا السؤال.

– أفقيًا على بعد ثلاثمائة و خمسين فرسخًا من أيسلندا.

– هذا كثير.

– أثق فى استنتاجى.

– و هل البوصلة تشير دائمًا إلى الجنوب الشرقى؟

– نعم، مع ميل غربى ١٩ درجة و٤٢ دقيقة مثلما يحدث فوق سطح الأرض تمامًا. لكنى لا حظت شىء غريب أراقبه بحذر.

– ما هو؟

– الإبرة! بدلاً من الإتجاه الغربى نحو القطب مثلما يحدث فوق سطح الأرض تتجه إلى العكس.

– إذًا، لا تفسير لذلك إلا أن الجاذبية المغناطيسية توجد فى مكان وسط بين سطح الأرض و المكان الذى نحن به الآن؟

- صحيح. لو كنا فى المنطقة القطبية التى وصل إليها «جمس روس» حيث اكتشف القطب المغناطيسى سنرى الإبرة تتحرك بشكل رأسى. إذًا الجاذبية الغامضة لا توجد فى أعماق بعيدة.

- هذا الاكتشاف لم يدرسه العلم حتى الآن.

- يوجد الكثير من الأخطاء فى العلوم يا بنى و يجب دراستها لأنها ستقودنا إلى الحقيقة خطوة بعد خطوة.

- و فى أى عمق نحن؟

- فى عمق خمسة و ثلاثين فرسخًا.

نظرت إلى الخريطة و قلت:

- إذًا نحن الآن تحت جبل «ايكوس» الضخم المغطى بالجليد.

قال البروفسير و هو يضحك:

- نعم، إنه ثقيل جدًا لكن القشرة الأرضية صلبة. المهندس العظيم الذى شيد هذا الكون استخدم مواد جيدة و لا يستطيع إنسان القيام بهذا العمل أبدًا. من يصدق وجود الجسور والأقواس و الكاتدرائيات فى هذا المكان تحت المحيط العاصف؟

- أخشى أن تسقط السماء فوق رأسى. الآن عمى ما هى مشاريعك؟ ألا تفكر فى العودة إلى سطح الأرض؟

- العودة! لماذا؟ كل الأمور تسير بشكل جيد حتى الآن.

- مع ذلك لا أعرف كيف سنقتحم أسفل هذا المحيط؟

- ألا تعلم أن المحيطات مهما بلغت مساحتها فما هى إلا بحيرات لأنها محاطة بالأرض. ألا يوجد نهاية لهذا المحيط؟

- بالتأكيد.

- حسناً، أنا واثق من العثور على المكان المناسب على الشاطئ الآخر.

- ما مدى إتساع هذا المحيط فى رأيك؟

- ثلاثين أو أربعين فرسخًا.

- آه! لكن تخمينك قد لا يكون صحيحًا.

- لذلك ليس لدينا وقت لإضاعته. سنبحر غدًا.

بحثت على السفينة التى ستحملنا ثم قلت ساخرًا:

- حسنًا، أين السفينة التى ستحملنا؟

- لن نبحر بسفينة يا بنى لكن بعوامة جيدة و صلبة.

صرخت:

- عوامة! كيف نبنى عوامة و أنا لا أرى...

- أنت لن ترى «أكسيل» لكن! اسمع.

- أسمع!

- نعم، ألا تسمع ضربات المطرقة لأن «هانز» ينهمك فى عمله؟

- يبنى عوامة؟

- نعم.

- كيف؟ هل يقتلع الأشجار؟

- آه! كل هذه الأشجار كئيبة و لا جدوى منها. تعالى و سترى العمل.

بعد أن سرنا لمدة ربع ساعة على الصخور الشاطئية التى تكوّن الميناء رأيت «هانز» ينهمك فى العمل و ذُهلت عندما رأيت جواره عوامة من أخشاب خاصة تحت الإنشاء. يوجد حوله كمية ضخمة من الأخشاب المختلفة تكفى لإنشاء أسطول كامل. قلت:

- عمى، ما نوع هذه الأخشاب؟

- الصنوبر، التنوب و القضبان و كل أنواع المنطقة الشمالية.

- هل هذا ممكن؟

- هذا ما نطلق عليه الأخشاب المتحجرة.

- طالما أنها فى صلابة الحجارة لن تعوم.

- بعض الأشجار تحولت إلى فحم و بعضها لم يتحجر بعد.

ثم ألقى قطعة من الخشب فى البحر و قال:

- انظر.

غطست قطعة الخشب ثم طفت فوق السطح محاطة بالدوامة. قال عمى:

- هل اقتنعت؟

- اقتنعت رغم أن هذا لا يُصدق.

فى مساء الغد سينتهى هذا المرشد الجيد من بناء العوامة. سيصل طولها إلى عشرة أقدام و عرضها إلى خمسة أقدام وستكون قوية بدرجة جيدة لتبحر بنا فوق بحر «ليدنبروك».

●●●

(٣٢)

استيقظنا مبكرًا يوم ١٣ أغسطس للتحرك بأغرب وسيلة مواصلات رأيتها فى حياتى.

الصارى يتكون من ملابسنا على قطعتين من الخشب بالطول و الثالثة بالعرض. لدينا الكثير من الحبال و يبدو أن العوامة صلبة بدرجة كافية.

فى السادسة صباحًا أمر البروفوسير بالتحرك و حمّلنا الأمتعة و الأسلحة و المعدات بالإضافة إلى كمية كبيرة من المياه الصافية فوق العوامة.

جلس «هانز» جوار الدفة التى صنعها من لوح خشبى بسيط و قمت بفك الحبال التى تربطنا بالشاطئ و وجهت القلاع فى إتجاه الريح.

فى هذه اللحظة أتى عمى بالخريطة التى رسمها للمكان واقترح اطلاق اسمى على هذا الميناء فقلت:

- أنا أقترح اسمًا آخر.

- ما هو؟

- «جروبـن». ميـنـاء «جروبـن» سـيكون اسـمًا رائعًـا علـى هـذه الخريطـة.

- لك ما تريد.

هكـذا نجحـت فـى تسـجيل ذكـرى محبوبتـى الملائكيـة فـى هـذ الاكتشـاف الرائـع.

الريـاح تهـب مـن الشـمال الشـرقى. تحـت الضغـط الشـديد أصبـح الشـراع يتحـرك بعنـف مثـل المروحـة. لاحـظ عمـى سـرعتنا فـى أول سـاعة فقـال:

- لـو إسـتمر الحـال هكـذا سـنقطع ثلاثـين فرسـخًا خـلال أربـع و عشـرين سـاعة و سـنصل بسـرعة للشـاطئ الآخـر.

لـم أجبـه و جلسـت فـى مقدمـة العوامـة. السـاحل الشـمالى يبتعـد و المسـافة تتسـع بـين الرصيفـين الجانبيـين لتسـهل لنـا بدايـة الرحلـة، و رأيت بحـرًا شاسـعًا. الأمـواج شـديدة عاليـة تلقـى بالظـلال الرماديـة علـى صفحـة الميـاه. الأشـعة الفضيـة للضـوء الكهربائـى تنعكس هنـا وهنـاك فـى قطـرات الميـاه فتبـدو مثـل البيـض المتوهـج فـى العوامـة. اختفـت الأرض بسـرعة و شـعرت كأن العوامـة لا تتحـرك مـن مكانهـا.

فـى لحظـة الظهيـرة رأيت الطحالـب الضخمـة تتمـوج علـى سـطح المياه. أعلـم قـدرة هـذه النباتـات علـى الحيـاة فـى عمـق أكثـر مـن إثنـى عشـر ألـف قـدم و هـى تتكاثـر بسـرعة تحـت ضغـط المياه حتـى تصبـح عائقًـا للسـفن فـى بعـض الأحيـان. لكنـى لـم أر طحالـب بهـذه الضخامـة أبـدًا إلا فـى بحـر «ليدنبـروك».

رأيت جـوار عوامتنـا فوقس يصـل طولـه إلى ثلاثـة أو أربعة آلاف قـدم، مـن فـرط ضخامتـه لا يصـل البصـر إلـى نهايتـه. اسـتمريت فـى متابعـة هـذه المخلوقـات الغريبـة الضخمـة و أصبـح فضولـى ينمـو بمـرور السـاعات.

مـا هـى القـوة الطبيعيـة التـى أنتجـت هـذه النباتـات الغامضـة؟ كيـف كان شـكل الأرض تحـت تأثيـر الحـرارة و الرطوبـة فـى القـرون الأولـى مـن تكونهـا؟

أتـى المسـاء و لـم تنخفـض شـدة الضـوء مثلمـا لاحظـت بالأمـس. يبـدو أن هـذه الظاهـرة موجـودة فـى كل مـكان تحـت الأرض.

أثنـاء تنـاول العشـاء تمـددت أسـفل الصـارى و رحـت أسـبح فـى الأحـلام لا إراديًـا بينمـا «هانـز» يجلـس ثابتًـا جـوار الدفـة.

منـذ أن خرجنـا مـن مينـاء «جروبـن» أمرنـى البروفوسـير «ليدنبـروك» بتدويـن يوميـات الرحلـة. يجـب إذًا تدويـن كل ملحوظـة،

كل ظاهـرة مثيـرة، إتجاهـات الريـح، السـرعة، الطريـق الـذى نسـلكه. باختصــار يجــب تدويــن كل أحــداث الرحلــة.

يــوم الجمعــة ١٤ أغســطس. الريــاح هادئــة مــن الشــمال الغربــى. الســاحل علــى بعــد ثلاثــين فرســخًا. لا يوجــد شــىء فــى الأفــق. شــدة الضــوء لا تتغيــر. الجــو صحــى، يعنــى الســحب بعيــدة و ليســت كثيفــة، تسبح فى جو أبيض مثل الفضة المصهورة. الحرارة أكثر من ٣٢ درجة.

فــى الظهيــرة ربــط «هانــز» ســنارة فــى طــرف الحبــل بعــد أن طعمهــا بقطعــة لحــم و ألقــى بهــا فــى البحــر. لــم يحــدث شــىء لمدة ســاعتين. هــل هــذه الميــاه غيــر مأهولــة؟ لا . ارتجــف الحبــل و جذبــه «هانــز» ليجــد ســمكة تتلــوى بعنــف. صــرخ عمــى:

- ســمكة!

صرخت بدورى:

- سمكة الحفش، صغيرة.

راقــب البروفوســير الســمكة بدقــة و لــم يتفــق معــى فــى الــرأى. رأس هــذه الســمكة مفلطــح، جســدها مســتدير و هــى مكســوة بالقشــور، فمهــا بــلا أســنان، زعانفهــا الصدريــة تصــل إلــى الذيــل. علمــاء الأحيــاء قــد يعتقــدون أنهــا ســمكة الحفــش. لكــن هنــاك اختلافــات واضحــة. عمــى لا يخطــئ لأنــه بعــد أن فحصهــا بســرعة قــال:

- هـذه السـمكة تنتمـى إلـى أسـرة منقرضـة منـذ قـرون بعيـدة ولا نجـد لهـا حفريـات فـى الأرض الديفونيـة.

سألت:

- كيف ذلك؟

استكمل البروفوسير:

- نعـم، و سـترى أن الحفريـات علـى سـطح الأرض تختلـف عـن هـذه السـمكة. الحصـول علـى هـذه الكائنـات يسـعد أى عالـم أحيـاء.

- ما هو أصل هذه السمكة؟

- «بترشـيت» و هـى تتمتـع بصفـات خاصـة لا نجدهـا إلا فـى الأسـماك التحـت أرضيـة.

- ما هى هذه الصفات؟

- إنها عمياء.

- عمياء؟

- ليست عمياء فقط بل ليس لها عيون.

تفحصـت السـمكة بدقـة و تأكـدت مـن صـدق رأيـه. ربمـا تكـون حالـة خاصـة. ألقينـا الحبـل فـى البحـر مـرة أخـرى. يبـدو وجـود أسـماك كثيـرة فـى هـذا المحيـط، عثرنـا علـى كميـة كبيـرة مـن

«بترشيت» خلال ساعتين بالإضافة إلى أنواع أخرى من أسماك منقرضة و لم أجد عيون فى أية سمكة. تناولنا طعامنا من هذه الأسماك الغامضة. هذا البحر لا يحتوى إلا الأسماك العتيقة المنقرضة.

رفعت نظارتى متفحصًا البحر و لم أجد أى شىء أمامى. من المؤكد أننا مازلنا بالقرب من الشاطئ.

توجهت إلى السماء و تساءلت لماذا لا يوجد طيور هنا؟ ستجد الكثير من الطعام فى هذه المياه.

رغم ذلك ذهبت خيالاتى بعيدًا. رأيت على صفحة المياه السلاحف الضخمة القديمة تبدو مثل الجزر. بدت لى مثل الحفريات القديمة التى عثر عليها العلماء فى كهوف البرازيل و سيبريا. رأيت كائنات غامضة تختفى خلف الصخور، بعضها يشبه الحصان أو الجمل، مثل المخلوقات التى نسمع عنها فى الأساطير. هذه هى الكائنات الأولى على سطح الأرض. رأيت الديناصورات تتصارع بين الصخور و سمعت صدى صوتها يتردد فى المكان. رأيت الطيور الخرافية تحلق فى السماء تتصارع بين الجبال الشاهقة.

رأيت كل هذه المشاهد فى ذهنى و عدت إلى العصور الأولى قبل الإنسان. كل تفاصيل تطور الأرض طافت فى ذهنى بينما

قلبى يرتجف فى هلع. فى هذه الأزمان لم يكن هناك الفصول الأربعة، لم يكن هناك طقس محدد، لا يوجد إلا الحرارة الشديدة تلهب سطح الأرض، و بعد أن بردت الحرارة ظهرت النباتات الأولى و رأيت نفسى أتجول فى هذه الغابات.

مرت كل هذه القرون الطويلة فى ذهنى كأنها أيام سريعة متلاحقة. رأيت الأرض السائلة المصهورة تتحول إلى الحالة الصلبة و تظهر النباتات . رأيت المياه تنفجر من باطن الأرض. من المؤكدة كانت تغلى فى البداية ثم بردت بالتدريج. رأيت الضباب يغلف الأرض ثم يبرد و يتكاثف و يتحول إلى سحب. شعرت بنفسى مجرد ذرة تافهة فى هذا الكون الملتهب.

غبت عن الوعى و أنا أدون كل هذه الأحلام فى اليوميات ثم سمعت عمى يصرخ:

- ماذا بك «أكسيل»؟

كنت أنظر إليه بثبات دون أن أراه فصرخ:

- انتبه «أكسيل»، ستسقط فى البحر.

ثم شعرت بيد «هانز» تقبض علىّ بقوة لتنقذنى من السقوط. صرخ البروفوسير:

- هل جُننت؟

قلت بعد أن عدت إلى الوعى:

- ماذا حدث؟

- هل أنت مريض؟

- لا، مجرد لحظة هلوسة و مرت. هل الأمور تسير بشكل جيد؟

- نعم، الرياح مناسبة، البحر هادئ، و نبحر بسرعة. لو تخمينى صحيح سنصل إلى هدفنا بسرعة.

التفت أتأمل الأفق و السحب البعيدة.

●●●

(٣٣)

السبت ١٥ أغسطس. مازال البحر هادئًا و لا تبدو أى أرض فى الأفق.

مازال رأسى ثقيلاً بالأحلام و الأوهام بينما عمى لا يعانى أبدًا من هذه الهواجس. مع ذلك أصبح فى حالة سيئة. يتابع الأفق من جميع الجهات بنظارته ثم يكتف يديه فى قلق.

لاحظت أن البروفوسير «ليدنبروك» عاد إلى تعجله و دونت هذه الملحوظة فى اليوميات. يجب أن أعانى المخاطر و الآلام حتى أشعر بإنسانيته. منذ أن شُفيت عاد إلى طباعه الأولى. لماذا كل هذا الضيق؟ ألن يصل إلى هدفه فى مثل هذه الظروف الجيدة؟ أليست العوامة تبحر بسرعة مذهلة؟ سألته:

- لماذا القلق يا عمى؟

- لست قلقًا.

- لماذا التعجل إذًا؟

- أريد الوصول بسرعة.

- نبحر بسرعة جيدة...

- هذا لا يهمنى، السرعة معقولة لكن البحر شاسع جداً.

تذكرت أن البروفوسير قدر مساحة هذا البحر التحت أرض بثلاثين فرسخًا، و قد قطعنا ثلاثة أضعاف هذه المساحة دون العثور على أى شاطئ. قال البروفوسير:

- نحن لا نهبط! كل هذا الوقت ضائع. لم آت إلى هنا من أجل نزهة بالمركب.

يعتبر هذه المغامرة مجرد نزهة بحرية. سألته:

- لكن أخبرنى، طالما أننا نسير فى الطريق الصحيح المحدد من «ساكنوسم»..

- هذا ما يقلقنى. هل نسير فى الطريق الصحيح؟ هل وصل «ساكنوسم» إلى هذا البحر؟ هل عبره؟ هل المياه المنسابة أضلتنا عن الطريق الصحيح؟

- على كل حال لا يجب الندم على وصولنا إلى هنا، المشهد رائع و..

- لا يهمنى المشهد. لدى هدف و يجب الوصول إليه. لا تحدثنى عن انبهارك بالمكان بعد ذلك.

تركته لأسمح له بإعادة ترتيب أفكاره و فى السادسة مساءً دفع لـ «هانز» راتبه.

الأحد ١٦ أغسطس. لا يوجد جديد. الجو صحو. الهواء خفيف، ناعم و طازج. عندما استيقظت راقبت شدة الضوء بحذر. أخشى من خفوته ثم العتمة. لكن هذا لم يحدث. ظل العوامة ينعكس على المياه ثابتًا.

فى الحقيقة يبدو البحر بلا نهاية. كأنه فى اتساع البحر المتوسط و ربما الأطلنطى. لما لا؟

عمى يفكر فى أشياء كثيرة. ربط أثقل قطعة حديد معنا فى طرف الحبل ثم ألقاه فى البحر حتى وصل إلى عمق مائتى قامة. لا يوجد قرار لهذا البحر و جاهدنا كثيرًا لنستعيد قطعة الحديد.

أشار «هانز» إلى وجود آثار قوية على الحديدة. قال كلمة دنماركية غريبة لم أفهمها. التفت لعمى أستفسر منه لكنه كان شاردًا فى أفكاره. اتجهت للأيسلندى و عندما فتح فمه و أغلقه عدة مرات فهمت مقصده. قلت بذهول و أنا أراقب قطعة الحديد.

- أسنان!

نعم. أثار أسنان على الحديدة. لابد أن هذا الفك يمتلك قوة مرعبة. هل هو وحش ضال فى عمق هذه المياه أكثر شراهة من كلب البحر و أكثر قوة من الحوت؟ لا أستطيع رفع عينى عن الحديدة النصف محطمة. هل ما حلمت به بالأمس سيتحقق

اليوم؟ ظلت الهواجس تطاردنى طوال اليوم و لم أعد إلى الهدوء إلا بعد أن نمت من الإجهاد رغم أنفى.

الاثنين ١٧ أغسطس. حاولت تذكر كل المعلومات عن الحيوانات السابقة لعصر الفيضان فى العصر الثانى، السابقة للرخويات والأسماك التى سبقت الثدييات إلى سطح الأرض. فى هذه الحقبة كان العالم مسكونًا بالزواحف و كانت سيدة البحار حيث تناسبها هذه البيئة تمامًا. يالها من وحوش مرعبة، عظائيات وتماسيح. أخطر و أشرس الحيوانات ظهرت فى العصور الأولى.

ارتجفت لتذكر هذه الوحوش. لم يشاهدها أحد و هى حية. ظهرت على الأرض قبل الإنسان بألف قرن لكن نجد حفرياتها فى الأراضى الإنجليزية و أمكن إعادة تركيبها لمعرفة أشكالها.

رأيت فى متحف «هامبورج» هيكل لأحد العظائيات يصل طوله إلى ثلاثين قدمًا. هل قُدر لى مواجهة هذه الحيوانات السابقة للفيضان؟ هذا مستحيل. مع ذلك آثار الأسنان على الحديد تؤكد وجود هذه الكائنات هنا. تأملت البحر فى ذعر خوفًا من خروج إحدى هذه الحيوانات من الكهوف البحرية.

أعتقد أن البروفوسير «ليدنبروك» يشاركنى أفكارى، و ربما مخاوفى. بدأ يفحص الحديدة ثم يتأمل البحر. قلت فى نفسى: عليك اللعنة، أفكارك أزعجت هذه الحيوانات البحرية.

ألقيت نظرة على السلاح و تأكدت من سلامته و شجعنى عمى على ذلك. ثم حدثت حركات عنيفة فى المياه تؤكد اقتراب الخطر. يجب الانتباه.

الثلاثاء ١٨ أغسطس. هبط المساء، أو حان موعد النوم لأن الظلام لا يهبط أبدًا على هذا المحيط. الضوء المستمر يجهد العيون، كأننا نبحر تحت الشمس فى البحار المطاطية. يجلس «هانز» على الدفة و أنا نمت جواره.

استيقظت بعد ساعتين على هزة عنيفة. قفزت العوامة فى الهواء و لم تهبط على السطح إلا على مسافة عشرين قامة. صرخ عمى:

- ماذا حدث؟ هل أصابنا شىء؟

أشار «هانز» إلى مسافة مائتى قامة، كانت هناك كتلة سوداء ترتفع و تنخفض. صرخت:

- خنزير البحر الضخم.

قال عمى:

- نعم، و هنا ثعبان البحر لم نر مثله.

- و هناك تمساح عملاق، أرأيت فكه و أسنانه المرعبة.آه! اختفى.

صرخ البروفوسير:

- حوت! حوت! رأيت زعانفه العملاقة. انظر إلى النافورة التى تخرج من أنفه.

بالفعل كان هناك نافورتان فوق سطح البحر. وقفنا ذاهلين مذعورين من وجود هذا السرب من الوحوش البحرية. أحجامها

غير طبيعية، يستطيع أضعفها سحق العوامة بقضمة من أسنانه. حاول «هانز» الفرار بتغيير اتجاه الدفة لكنه لمح حيوانات أخرى أكثر وحشية فى الجانب الآخر. رأى سلحفاة ضخمة يصل اتساع ظهرها إلى أربعين قدمًا و ثعبان طوله ثلاثين قدمًا يضع رأسه الضخمة أسفل المياه.

من المستحيل الفرار. الزواحف تقترب، تدور حول العوامة بنفس سرعتنا تقريبًا و ترسم حلقات فى المياه حولنا. أمسكت بندقيتى لكن ماذا تفعل الطلقات فى القشور السميكة التى تكسو ظهر هذه الوحوش؟

الرعب أصابنى بالصمت. الوحوش تقترب! التمساح من ناحية و الثعبان من الناحية الاخرى بينما اختفت بقية الوحوش. كدت أطلق النيران لكن «هانز» منعنى. الوحشان يتصارعان بينهما على بعد خمسين قامة من العوامة و هما لا يلاحظان وجودنا.

ابتعدت ساحة المعركة مائة قامة عنا و استطعنا تحديد ملامح الوحشين المتصارعين. لكن يبدو لى أن بقية الوحوش ستأتى للانضمام إلى المعركة لكن الأيسلندى أكد أنهما اثنان فقط. قال عمى و هو يتابع المعركة بدقة:

- إنه على حق.

قلت:

- لا أفهم شيئًا.

- نعم، الأول له فم خنزير البحر و رأس ثعبان و أسنان تمساح و لهذا أخطأنا التقدير، إنه أشرس حيوانات ما قبل الفيضان.

- و الثانى؟

- الثانى ثعبان يختفى فى درع سلحفاة.

«هانز» يقول الحق. كل هذا الاضطراب فى المياه ناتج عن وحشين فقط. إنها الحيوانات البدائية الزاحفة. بدت لى عين أحدهما فى حجم رأس الإنسان، يتمتع بقوة مهولة لتحمل الضغط الشديد فى هذا المكان. يطلقون عليه لقب «حوت العظائيات» بسبب سرعته و طوله الذى يصل إلى مائة قدم على الأقل وتأكدت من ضخامته عندما رأيت زعانفه العملاقة تطفو فوق سطح المياه، لمحت فى فكه ما لا يقل عن مائة و ثمانين ضرسًا.

أما الثعبان أسطوانى الشكل و له ذيل قصير و أرجله القصيرة فى شكل المجاذيف. كل جسده مكسو بالدروع و رقبته مرنة مثل البجع.

الوحشان يتصارعان بضراوة و ترتفع الأمواج مثل الجبال. كادت العوامة أن تنقلب أكثر من عشرين مرة.

مرت ساعة و ساعتين و الصراع مازال مستمرًا. أحيانًا يقترب الصراع منا و أحيانًا يبتعد و نحن صامتون مستعدون لإطلاق النيران فى أية لحظة.

ثم اختفى الوحشان فى عمق المياه و مرت دقائق كثيرة. هل انتهت المعركة فى الأعماق؟

تأكدنا من انتهاء المعركة بعد أن طفت على السطح رأس ضخمة لكن أين ذهب الوحش المنتصر؟ هل سيظهر لنا بعد ذلك.

●●●

(٣٤)

الأربعاء ١٩ أغسطس. من حسن الحظ أن الرياح الشديدة سمحت لنا بالهرب بسرعة من مسرح المعركة. «هانز» يقف بثبات على الدفة بينما عمى طرد من ذهنه أحداث المعركة و عاد يشكو من البحر الفسيح، و أنا كنت سعيدًا بالنجاة من مخاطر الأمس.

الخميس ٢٠ أغسطس. ما زالت الرياح مضطربة بينما الحرارة شديدة. نبحر بسرعة ثلاثة فراسخ و نصف فى الساعة.

فى الظهيرة سمعنا الضوضاء تأتى من بعيد. دونت هذه الملحوظة فى اليوميات و لا أعرف تفسيرها. إنه طنين مستمر. قال البروفوسير:

- يوجد فى البعيد بعض الصخور، أو جزيرة حيث تتخبط الأمواج.

صعد «هانز» فوق الصارى لكنه لم يلمح أى شىء. المحيط يتمدد حتى الأفق. بعد ثلاث ساعات أصبحت الضجة تشبه هدير سقوط المياه. لفت نظر عمى إلى ذلك لكنه لوى عنقه دون اهتمام. أخشى من صدق ظنى. هل نتجه نحو شلال ليسقطنا فى الهاوية؟ إذا كان هذا يروق للبروفوسير لأنه يرغب فى السقوط الرأسى إلا أنه يثير مخاوفى.

على كل حال من المعلوم أن الصوت يسرى فى الهواء لبضعة فراسخ و أصبح عنيفًا الآن. هل هذا الصوت يأتى من السماء أم من المحيط؟

تفحصت الضباب فى الجو و حاولت دراسة سمكه. السماء صافية و السحب عالية جدًا، تبدو ثابتة و تضيع بين أشعة الضوء. يجب البحث عن سبب هذه الظاهرة.

تفحصت الأفق المغلف بالضباب و لم ألحظ أى تغيير. يبدو كأنه صوت شلال. لو كان المحيط يندفع للسقوط فى شلال فمن المؤكد أن هذا يزيد من سرعة التيار، و هذا يعنى وجود تهديدات كبيرة. فحصت التيار دون الوصول إلى نتيجة. الزجاجة الفارغة التى ألقيتها فى المحيط تتحرك بشكل طبيعى تحت تأثير الرياح.

فى الرابعة عصرًا صعد «هانز» إلى قمة الصارى. لا يبدو فى تعبيرات وجهه أية دهشة لكن اقشعر شعر رأسه. قال عمى بهدوء:

- لقد رأى شيئًا.

- أعتقد ذلك.

بعد أن هبط أشار «هانز» إلى الجنوب فأخذ عمى النظارة وراح يتفحص بدقة دقائق بدت لى كأنها قرون. ثم صرخ:

- نعم.

- ماذا ترى؟

- كتلة ضخمة تطفو على سطح المياه.

- حيوان بحرى آخر؟

- علينا الاتجاه نحو الغرب لأن المخاطر شديدة عند مواجهة هذه الوحوش السابقة للفيضان. لنتحرك.

اتجه «هانز» إلى الدفة ينفذ الأمر بحرص شديد. مع ذلك لو كانت المسافة التى تبعدنا عن هذا الحيوان تقدر بإثنى عشر فرسخًا يجب أن نشاهد الآن نافورات المياه المندفعة من خياشيمه، من المؤكد أنها ستصل إلى ارتفاع كبير لنلحظها. من الحكمة الابتعاد عن المواجهة. لكننا لم نأت إلى هنا لنتعلم الحكمة. لذا قرر البروفوسير التقدم.

كلما تقدمنا كلما بدا الوحش أضخم. ما هو هذا الوحش الذى يحتوى كل هذه الكمية من المياه و يدفعها بشكل مستمر؟

فى الثامنة مساءً أمسينا على بعد فرسخين فقط من الوحش. أسود، ضخم، متوحش، يتمدد على المياه مثل جزيرة. هل هذه هلاوس؟ هل هذا مرعب؟ يبدو لى أن طوله يزيد على مائة قامة! ما هو هذا الوحش الذى لم يشاهده أحد من قبل؟ إنه ثابت

تمامًا، كأنه نائم. لا يبدو أنه يسبح فوق البحر بل الأمواج تتحطم فوق ظهره و يصل ارتفاعها إلى خمسمائة قدم ثم تهوى بضجة مرعبة. اقتربنا من هذه الكتلة التى يزيد حجمها على مائة حوت.

ارتعبت. لا أستطيع التقدم أكثر من ذلك. لو أستطيع لمزقت شراع العوامة. ثرت على عمى لكنه لم يجبنى و فجأة هب «هانز» واقفًا وهو يقول:

- جزيرة.

صاح عمى:

- جزيرة!

قلت بدورى و أنا أهز أكتافى:

- جزيرة؟

جلجلت ضحكة عمى و هو يقول:

- طبعًا جزيرة.

- و ما سبب اندفاع المياه؟

- إنها عين مثل تلك الموجودة بكثرة فى أيسلندا.

يجب علىّ إذًا الاعتراف بالخطأ، يجب كتم مخاوفى، ما هى إلا ظاهرة طبيعية.

كلما اقتربنا كلما تضخمت العين. بدت لى الجزيرة كأنها حوت ضخم ترتفع رأسه فوق المياه بمقدار عشر قامات. عيون المياه فى أيسلندا تطلق أصوات شديدة مرعبة و تدفع المياه بقوة وعنف و يصل الدخان إلى عنان السماء. أما هذه العين فهى وحيدة بدون أية ملحقات حولها، لا يوجد حولها أى مصدر للحرارة لكنها تحوى القوة البركانية. أشعة الضوء الكهربائى تتساقط على العين فتتلألأ بكل ألوان الطيف. قال البروفوسير:

- لنقترب.

تفادى «هانز» اضطرابات المياه حول العوامة و نجح فى أن يصل بنا إلى طرف الجزيرة.

قفزت فوق الصخر يتبعنى عمى بينما ظل «هانز» ثابتًا ذاهلاً فى مكانه فوق العوامة.

تجولنا على الصخور المختلطة بالأحجار المسامية. الأرض ترتجف تحت أقدامنا و تشتعل مثل المداخن التى تطلق البخار الساخن. وصلنا إلى الحوض المركزى حيث توجد العين. وضعت الترمومتر فى المياه المغلية و سجل مائة و ثلاثة و ستين درجة.

إذًا هذه المياه تأتى من مركز مشتعل. هذا يناقض نظريات البروفوسير «ليدنبروك» و أبديت ملاحظتى. فقال:

- هل تعتقد أن هذا ينفى نظريتى؟

قلت بحدة خوفًا من عقله:

- لا أقصد شىء.

مع ذلك أعلنت أننا أتينا إلى هنا على أساس نظريات معينة. لكن يبدو لى أننا سنصل يومًا إلى أماكن شديدة الحرارة حتى أن الترمومتر لن يستطيع القياس.

سنرى. هذه هى كلمة البروفوسير دائمًا. ثم سجل هذه الجزيرة باسمى فى خرائط الرحلة.

تأملت العين لعدة دقائق. لاحظت أن النافورة فى المنتصف تمامًا و أنها تهدأ لحظات ثم تعود إلى فورانها. أعتقد أن ذلك يعود إلى اختلاف ضغط البخار فى باطن الأرض.

أخيرًا اتجهنا فوق الصخور الوعرة جدًا نحو الجنوب و نجح «هانز» فى إعادة العوامة إلى طريقها.

لكن قبل الرحيل قمت ببعض الحسابات لمعرفة المسافة التى قطعناها حتى الآن و تدوينها فى اليوميات. قطعنا مائتين و سبعين فرسخًا من ميناء «جروبن» و نحن الآن على بعد مائة و عشرين فرسخًا من أيسلندا، تحت إنجلترا.

(٣٥)

الجمعة ٢١ أغسطس. اختفت العين فى اليوم التالى و أصبح الهواء طازجًا. ابتعدنا بسرعة من جزيرة «أكسيل» و بدأ الصوت يخفت شيئًا فشيئًا.

الجو، إذا كانت هذه الكلمة مناسبة، بدأ يتغير قليلاً. أصبح محملاً بالبخار و الشحنات الكهربائية الناتجة عن تبخر الماء المالح. انخفضت السحب بشكل ملحوظ و أصبحت فى لون الزيتون و الأشعة الكهربائية تجاهد للنفاذ من هذه الغمامة لتلعب دورها فى مأساة العاصفة.

تأثرت بكل المخلوقات الغريبة المنقرضة التى تعيش هنا. السحب المستديرة تتكاثر فى الجنوب بشكل حزين. تبدو قاسية. هذا ما نلحظه دائمًا فى بداية العواصف. الهواء ثقيلٌ و الجو هادئ.

فى البعيد تبدو السحب مثل كرات قطنية مكدسة بشكل رائع. تتنفخ و تتبدد قبل أن تصل إلى الأفق لكنها داكنة بشكل خطير. من حين لآخر نلمح التوهج فى هذه السجادة الرمادية ثم يختفى فى الكتلة المعتمة.

لاحظت نشاط غريب فى الحالة الجوية. أشعر كأننى جريح، شعر رأسى يقف كأننى مصعوق بالكهرباء حتى أننى أعتقد لو لمسنى أحد الآن سيصعق بالكهرباء.

فى العاشرة صباحًا أصبحت مظاهر العاصفة أكثر وضوحًا، الهواء الرطب أصبح أسرع، يكاد يكون إعصار. لا أريد الاستسلام لهذه التهديدات لكنى لم أستطع منع نفسى من القول:

- العاصفة تستعد.

لم يجبنى البروفسير. يبدو مثل الذبيح و هو يرى المحيط يمتد أمامه إلى ما لا نهاية. ثم هز أكتافه و أشار إلى الأفق وقال:

- يوجد عاصفة. السحب تنخفض نحو البحر كأنها ستدهسه.

ثم هبط الصمت كثيفًا. توقفت الرياح. يبدو أن الطبيعة ماتت و تعجز عن التنفس. الشراع تهدل على الصارى. توقفت العوامة وسط بحر كثيف بلا أى موجات. إذا كنا لا نتحرك لماذا نحافظ على هذا الشراع الذى قد يقودنا إلى الجحيم مع أول ضربة من العاصفة؟

قلت:

- من الحكمة أن نسقط هذا الشراع.

صرخ عمى:

- لا و ألف لا. الهواء يدفعنا، العاصفة تحركنا، حتى لو كانت الصخور على الشاطئ ستحطم عوامتنا إلى ألف قطعة.

هذه الكلمات لا تعنى وجود شىء فى الأفق. البخار يذوب فى المياه، و الهواء يملأ الفراغ و يتكاثف لصنع الإعصار. الهواء يهب من أبعد مكان فى الكهف. الظلام يزداد حتى أصبحت لا أدون إلا بعض الملاحظات الناقصة.

ثم ارتفعت العوامة و قفزت و كاد عمى أن يسقط لولا أننى أسرعت لنجدته و بدا سعيداً بالمشاعر الإنسانية.

«هانز» لا يتحرك من مكانه. الهواء يدفع شعره ليغطى وجهه الثابت فبدا غامضًا لأن أطراف شعره بدت متوهجة. يبدو مخيفًا مثل إنسان ما قبل الطوفان يعيش وسط الوحوش البدائية.

الشراع عاد ينتفخ مثل طلقة على وشك الإنطلاق. العوامة تتحرك بشكل لا يمكن تحديده لكن بسرعة و تترك خلفها شريطًا واضحًا و مستقيمًا. قلت محذرًا:

- يجب أن نسقط الشراع.

أجاب عمى:

- لا.

و «هانز» أيضًا رفض اقتراحى.

انهمرت الأمطار مثل شلال هادر فى الأفق الذى نتجه إليه. تمزقت السحب قبل أن تصل إلينا الأمطار و بدأ البحر فى الغليان و التكهرب متأثرًا بالتفاعلات الكيميائية التى تحدث فى السماء. بدأت اللعبة. ومضات البرق تتردد فى كل مكان مع هدير الرعد. كتلات البخار أصبحت متوهجة. أصبحت أدواتنا المعدنية و أسلحتنا متوهجة. الأمواج تضطرب كأن البحر يغلى فوق النيران و فى قمة كل موجة نلمح النيران.

زاغ بصرى من شدة الومضات، تحطمت أذنى من الفرقعات. يجب الاستناد إلى الصارى لأحفظ توازنى.

(هنا أصبحت ملاحظاتى فى اليوميات ناقصة. لم أستطع إلا الاحتفاظ ببعض الملاحظات الهاربة لكنها مع ذلك تكشف بعض الأحداث التى احتفظت بها فى ذاكرتى).

●●●

الأحد ٢٣ أغسطس. العاصفة لا تهدأ. نعيش وسط الضجيج و الرعد المستمر. أذاننا أصيبت بالصمم و لا نستطيع التحاور فيما بيننا.

الومضات لا تتوقف. تتردد فى شكل زجزاج من أعلى أو من أسفل ثم تضرب الكهف الجرانيتى. لو تمهلنا قليلاً! بعض الومضات مثل كرات من النيران تنفجر مثل القنبلة. الضجيج العام لا يهدأ أبدًا. يبدو أنه تخطى حدود قدرة الأذن البشرية. لو انفجر كل بارود العالم فى لحظة واحدة لن يكون صوته أشد من ذلك.

الومضات الكهربائية تتردد بين السحب. المادة الكهربائية تتفاعل بكل ذراتها. مكونات الغازات فى الهواء تنفث، نافورات المياه كثيرة جدًا ثم تسقط بعنف.

إلى أين نذهب؟ ... عمى ينكمش داخل نفسه فى طرف العوامة. الحرارة شديدة. التفت إلى الترمومتر، إنه يسجل ...(الأرقام مُسحت).

الإثنين ٢٤ أغسطس. العاصفة لا تنتهى! ما سبب كثافة هذا الجو و لماذا لا يهدأ أبداً؟

الإرهاق يشل حركتنا أما «هانز» فى حالة طبيعية. العوامة تتجه نحو الجنوب الشرقى. قطعنا أكثر من مائتى فرسخ من جزيرة «أكسيل».

فى منتصف الليل أصبحت العاصفة أشد. يجب ربط كل أدواتنا فى العوامة و ربط أنفسنا أيضًا. المياه تقفز فوق رؤوسنا.

عجزنا عن الكلام لمدة ثلاثة أيام. نفتح أفواهنا و لا ينتج أى صوت. حتى لو اقترب أحدنا من أذن الآخر لا يسمعه. اقترب عمى منى و حدثنى فى أذنى. أعتقد أنه قال لى: ضعنا. لست متأكدًا من ذلك كتبت له: يجب إسقاط الشراع.

قبل أن يجيبنى ظهرت النيران فى مقدمة العوامة. الصارى و الشراع تفحما و رأيتهما و هما يطيران فى الهواء إلى ارتفاع شاهق، يبدوان مثل طائر خرافى فى القرون الأولى.

تجمدت دماؤنا من الذعر. القذائف نصفها أبيض و نصفها لازوردى، فى حجم قنبلة وزنها عشر إنشات. تتجول ببطء وأحيانًا تدور بسرعات مذلة بتأثير الإعصار. النيران تأتى من هنا و هناك، تسقط على طرف العوامة، تسقط على حقائب الطعام و أحيانًا تهبط بخفة ثم تنفجر مثل البارود. يا له من رعب! سنقفز! لا ! هبطت أسطوانة ملتهبة و اقتربت من «هانز» الذى يرقبها بثبات. ثم اقتربت منى و انفجرت بالضوء و الحرارة. انفجرت بالقرب من قدمى التى حاولت انتزاعها لكنى لم أستطع.

رائحة الغازات النيتروجينية عبأت المكان، دخلت الرئة وأصبحنا نسعل.

لماذا لا أستطيع سحب قدمى؟ هل هى مربوطة بالعوامة؟ آه! هذه الكتلة الكهربائية مغنطت كل الحديد فى العوامة. كل أدواتنا

الحديدية و الأسلحة أصبحت تتحرك بصوت حاد. المسامير التى فى حذائى التصقت بقطعة من الحديد بين خشب العوامة.

أخيرًا استطعت انتزاعها بقوة بعد أن ابتعدت الكتلة الكهربائية.

الضوء شديد جدًا! الكوكب ينفجر! كل الألعاب النارية تحوم فوق رؤوسنا.

ثم اختفت كل الومضات. رأيت عمى ممددًا على العوامة بينما «هانز» ما زال حول الدفة يسعل و النيران تخرج من فمه بتأثير الصعقة الكهربائية التى أصابته.

إلى أين نذهب؟ إلى أين نذهب؟..

الثلاثاء ٢٥ أغسطس. فقت من حالة الإغماء. العاصفة ما زالت مستمرة، الومضات تتجول فى الجو فى شكل ثعبانى.

هل مازلنا فى البحر؟ نتحرك بسرعة كبيرة. لقد جاوزنا أسفل إنجلترا، أسفل المانش، أسفل فرنسا، أسفل أوروبا كلها، ربما! ..

ثم سمعنا ضجة جديدة! بالتأكيد البحر يتحطم على الصخور!... لكن ماذا بعد...

●●●

(٣٦)

هنا تنتهى ما أطلق عليه «يوميات الرحلة». من حسن الحظ نجونا من الغرق و سأعود لأقص عليكم بأسلوبى القديم.

ما حدث عند اصطدام العوامة بصخور الشاطئ لا يمكن وصفه. شعرت بنفسى أطفو فوق المياه. لم أنج من الموت و لا التمزق على الصخور الحادة إلا بفضل «هانز» الذى انتشلنى من الهاوية.

الأيسلندى الشجاع حملنى بعيدًا عن الغموض و وضعنى على الرمال الملتهبة جوار عمى. ثم عاد إلى الصخور لينقذ بعض أدواتنا . لم أكن قادرًا على الكلام من شدة التعب. أحتاج إلى ساعات طويلة لاستعادة الوعى.

مازالت الأمطار تهطل بغزارة لكن هذا يعلن نهاية العاصفة. عثرنا على ملجأ من السماء المرعبة بين الصخور و أعد «هانز» الطعام الذى لم أتذوقه. سقطنا جميعًا فى نوم عميق بعد السهر لمدة ثلاث ليال متواصلة.

فى اليوم التالى كان الجو رائعًا . السماء و البحر فى حالة هدوء كأنهما على إتفاق معًا . كل مظاهر العاصفة اختفت. استقبلنى البروفسير بكلماته المبتهجة فور الاستيقاظ. فقال:

- حسنًا يا بنى، هل نمت جيدًا.

يحدثنى ببهجة غريبة كأننا فى منزلنا فى «كونجستراس» و أنا أهبط السلم بهدوء لتناول الإفطار و فى هذه الليلة ستتم مراسم زواجى من المسكينة «جروبن».

من سوء الحظ أن العاصفة الشديدة دفعت العوامة فى اتجاه الشرق. هذا يعنى أننا تحت ألمانيا، تحت مدينتى الجميلة «هامبورج» تحت الشوارع حيث توجد كل الأشياء التى أحبها. إذًا لا يفصلنا عن وطننا إلا أربعين فرسخًا. لكن أربعين فرسخًا تحت الصخور الجرانيتية و لم نصل إلى هنا إلا بعد أن قطعنا أكثر من ألف فرسخ. كل هذه الأفكار المؤلمة طافت فى ذهنى قبل أن أجيب عمى فعاد يسأل:

- آه! لا تريد أن تخبرنى إذا كنت نمت جيدًا.

أجبته:

- جيد جدًا، لكنى مازلت متعبًا. ليس هذا مهم.

- طبعًا ليس مهم. بعض الإرهاق. هذا كل ما فى الأمر.

- تبدو لى مبتهجًا جدًا هذا الصباح.

- سعيد يا بنى! سعيد! وصلنا.

- نهاية اكتشافنا.

- لا، وصلنا نهاية هذا البحر الشاسع. سنغوص الآن فى أعماق الأرض بشكل رأسى.

- عمى، اسمح لى بسؤال.

- أسمح لك «أكسيل».

- و العودة؟

- العودة! تفكر فى العودة و نحن لم نصل بعد؟

- لا. أسال فقط كيف سنعود؟

- بأبسط أسلوب ممكن. عندما نصل إلى مركز الأرض أو عندما نجد طريقًا جديدًا يقودنا إلى السطح، أو سنعود من نفس الطريق الذى أتينا منه. لا أعتقد أن كل الطرق ستغلق أمامنا.

- إذًا يجب الحفاظ على العوامة.

- طبعاً.

- لكن هل سيكفى الطعام الذى معنا؟

- نعم، بالتأكيد. «هانز» شاب ذكى و أنا واثق من أنه أنقذ معظم ما كان فى العوامة. هيا بنا لنتأكد من ذلك.

تركنا هذه الحفرة المفتوحة على كل نسمات الهواء. كان لدى أمل و مخاوف. من المستحيل الاحتفاظ بكل ما كان معنا فوق العوامة بعد هذا الاصطدام المرعب. لكنى كنت مخطئًا. عندما وصلنا إلى الشاطئ رأيت «هانز» وسط كل حقائبنا. ضغط عمى على يده مشجعًا. هذا الرجل غير طبيعى، لا نجد مثيل له أبدًا. كان يعمل أثناء نومنا و أنقذ كل الأشياء الهامة للحفاظ على حياتنا. لكننا فقدنا أشياء هامة. على سبيل المثال فقدنا السلاح لكن مازلنا نحتفظ بكل الذخيرة حتى الآن. قال البروفوسير:

- حسنًا، طالما فقدنا بنادقنا لن نستطيع الصيد.

- و الأجهزة؟

- ها هو المانومتر و هو الأهم، يمكن الاستغناء به عن بقية الأجهزة، بهذا الجهاز نحسب العمق و نعرف أننا وصلنا إلى المركز. بدونه سنفقد هدفنا.

بدت لى بهجته وحشية. سألت:

- و البوصلة؟

- ها هى على هذه الصخرة و فى حالة جيدة. و كذلك الكرونومتر و الترمومتر. مرشدنا رجل حازم.

بالنسبة للأدوات لم نفقد شيئًا. لدينا الحبال و المطرقة وأوتاد الحديد للتسلق. لكن يبقى السؤال الأهم فقلت:

- و الطعام؟

أجاب عمى:

- لنرى طعامنا.

كانت حقائب الطعام مرصوصة بشكل جيد على الصخور، تحتوى البسكويت، اللحوم المملحة، الخمور و الأسماك الجافة. هذا يكفى لأربعة أشهر. قال البروفوسير:

- أربعة أشهر فترة كافية للذهاب و العودة و سأقيم وليمة فاخرة لزملائى فى «جوهانيوم» بالمتبقى.

رغم أننى اعتدت تقلبات عمى و طباعه الغريبة إلا أنه يدهشنى دائمًا. قال:

- الآن سنطهو طعامنا بمياه الأمطار المحفوظة فى كل هذه الأحواض الجرانيتية. هكذا لن نشعر بالظمأ. بالنسبة للعوامة أمرت «هانز» بإصلاحها رغم أننى أعتقد أننا لن نحتاج إليها بعد ذلك.

سألت:

- كيف ذلك؟

- لدى فكرة يا بنى. أعتقد لن نعود من نفس الطريق.

نظـرت إلـى البروفوسـير فـى ذعـر و قلـق. تسـاءلت فـى نفسـى إذا كان أصابـه الجنـون لكنـه قـال بسـرعة:

- هيا بنا نتناول طعامنا.

تبعته إلـى تبة مرتفعة بعد أن أعطـى الأجهزة للمرشد. هنـاك رأيت الوجبة كاملة مكونة من اللحوم الجافة، البسكويت و الشاى. أكلت بشـراهة. الجـوع، الهـواء المفتـوح، الهـدوء، كل هـذا فتـح شـهيتى. أثنـاء ذلـك سـألت عـن موقعنـا ثـم قلـت:

- يبدو لى أن الحسابات صعبة.

فقال:

- الحسـابات الدقيقـة مسـتحيلة بعـد ثلاثـة أيام مـن العاصفة ولا أسـتطيع معرفـة سـرعتنا و اتجاه العوامة. لكن نسـتطيع التخمين.

- بالفعل آخر ملاحظتنا كانت فى جزيرة «أكسيل».

- بالنسـبة لجزيـرة «أكسـيل» لا تنسـى شـرف أننـى منحتهـا اسـمك.

- أشـكرك! بعـد جزيـرة «أكسـيل» قطعنـا مائتـين و سـبعين فرسـخًا فـى البحـر، و نحـن الآن علـى بعد ألـف فرسـخ مـن أيسـلندا.

- حسنًا. من هذه الملاحظة مع الوضع فى الاعتبار أربعة أيام من العاصفة، ربما أن سرعتنا لم تزد على أربعة و عشرين فرسخًا لمدة أربع و عشرين ساعة.

- أعتقد ذلك. لذا يجب إضافة ثلاثمائة فرسخ.

- نعم، و هكذا يصل اتساع بحر «ليدنبروك» إلى سبعين فرسخًا تقريبًا. هل تعلم «أكسيل» أنه فى مثل اتساع البحر المتوسط؟

- نعم، إذا كنا عبرناه بالعرض.

- و هذا هو الأرجح.

- و من المدهش لو كانت حساباتنا دقيقة فنحن الآن أسفل البحر المتوسط.

- حقًا.

- لأننا نبتعد تسعمائة فرسخ عن «ريكشواك».

- هذا هو طرف الطريق يا بنى. لكننى لا أستطيع تحديد إن كنا تحت تركيا أم فى الجانب الآخر من البحر المتوسط.

- لا، الرياح تبدو ثاتبة. أعتقد أننا فى الجنوب الشرقى من ميناء «جروبن».

- حسنًا. من الممكن التأكد من ذلك من البوصلة أين هى؟

هب يقفز بنشاط إلى الصخرة التى عليها البوصلة. بدا لى شابًا صغيرًا و تبعته لأتأكد من صدق ظنى. فرك يديه و عينيه فى ذهول فسألته:

- ماذا ترى؟

أشار لى بفحص البوصلة فصرخت رغمًا عنى. البوصلة تشير إلى أن اتجاه الشمال هناك فى المكان الذى كنا به فى الظهيرة. تتجه إلى الكهف بدلاً من شاطئ البحر.

فحصت البوصلة و تأكدت أنها سليمة. أصبح من الواضح أن العاصفة أعادتنا إلى الشاطئ الذى بدأنا منه.

●●●

(٣٧)

لا يمكن وصف المشاعر التى بدت فى وجه البروفوسير «ليندبروك». الدهشة، الشك ثم الغضب. لم أر رجلاً فى مثل هذه الحالة من الإحباط قبل الآن. يجب العودة إلى متاعب العبور والمخاطر. لقد رجعنا بدل التقدم. ثم صرخ قائلاً:

- القدر يلعب معى لعبته! كل الظروف ضدى! الرياح، النيران و التيارات العنيفة تقف فى وجهى! حسنًا! إنه اختبار لإرادتى. لن أتراجع خطوة واحدة و سنرى من المنتصر، الإنسان أم الطبيعة؟

بدا جافًا عنيفًا و هو يقف على الصخور. إنه يتحدى الرب. يجب علىّ كبت حماسته فقلت بحزم:

- اسمعنى. هنا يوجد حدود لكل الطموحات. لا يجب تحدى المستحيل. كانت الرحلة خطيرة جدًا فى البحر و إمكانياتنا بسيطة جدًا لمواجهة هذه الأخطار. لم نستطع التحكم فى أى شىء. كنا لعبة فى يد العاصفة و من الجنون التفكير فى إعادة عبور هذا البحر.

رحت أحدثه عن المصاعب و المشكلات لمدة عشر دقائق متصلة و هو صامت تمامًا كأنه لا يسمعنى ثم صرخ:

- إلى العوامة.

حاولت إقناعه بشتى الطرق لكنى عاجزٌ عن مقاومة إرادة أشد صلابة من الجرانيت.

بدأ «هانز» فى إعداد العوامة. يبدو أن هذا المخلوق الغريب مقتنع تمامًا بمشروع عمى. أتى ببعض الأخشاب و صنع صارى جديد و وضع الشراع يرفرف فى الهواء.

قال البروفوسير بضعة كلمات للمرشد و بدأ «هانز» تحميل كل حقائبنا. كان الجو صافيًا و الرياح الخفيفة تهب من الشمال الغربى.

ما الذى أستطيع فعله؟ مقاومة الرجلين؟ مستحيل. لو كان «هانز» فى صفى لأقنعت عمى بالتراجع. يبدو أن الأيسلندى مستعد للتضحية بكل شىء. لم أجد خادمًا أكثر وفاءً و إخلاصًا منه.

يجب التوجه إلى مكانى المعتاد فى العوامة، لكن عمى أوقفنى بيده و قال:

- لن نرحل إلا غدًا؟

استسلمت لكل أوامره. ثم قال:

- لا يجب إهمال أى شىء. طالما أن القدر دفعنى إلى هنا لن أغادر المكان قبل استكشافه تمامًا.

كان مـن الممكـن تفهـم موقفـه لـو كنـا وصلنـا إلـى الشـاطئ الشـمالى لكننـا عدنـا إلـى نقطـة البدايـة. مـن المفتـرض أن مينـاء «جروبـن» فـى الغـرب. لكـن مـن الحكمـة استكشـاف هـذا المكان الـذى عدنـا إليـه اضطراريًـا. قـال عمـى:

- هيا بنا لاستكشاف المكان.

تركنـا «هانـز» يتـم عملـه و تحـركنـا. المسـاحة بـين البحـر و التلـة واسـعة جـدًا. مشـينا لمـدة نصـف سـاعة قبـل أن نصـل إلـى بدايـة الصخـور. جرحـت أقدامنـا بالقواقـع مـن كل الأشـكال و الأحجـام. هنـا تعيـش حيوانـات العصـور الأولـى. لمحـت صدفـات ضخمـة يزيـد قطرهـا عـن خمسـة عشـر قدمًـا. إنهـا تخـص الكيبتـدون التـى كانـت تعيـش فـى العصـر البيلوسـينى و منهـا إنحـدرت السـلحفاة الحديثـة التـى تبـدو ضئيلـة بالمقارنـة مـع أجدادهـا. بالإضافـة إلـى ذلـك توجـد كميـة ضخمـة مـن فتـات الصخـور و الحصـوات حـادة مثـل الشـفرة. مـن البديهـى أن هـذه الحيوانـات تعيـش فـى هـذا البحـر.

هـذا يفسـر سـبب وجـود هـذا المحيـط فـى عمـق أربعـين فرسـخًا تحـت سـطح الأرض. لكـن حسـب ظنـى هـذا المحيـط سـيضيع بالتدريـج بـين طبقـات القشـرة الأرضيـة. و أصـل هـذا المحيـط، بالتأكيـد، هـو ميـاه المحيطـات الأرضيـة التـى تتدفـع بـين الشـقوق. مـع ذلـك يجـب الاعتـراف أن كل هـذه الشـقوق مسـدودة لأنـه مـن الممكـن مـلء كل

هـذا الكهـف فـى وقـت قصيـر. و مـن الممكـن أيضًـا أن هـذه الميـاه تصـارع ضـد النيـران الداخليـة و تتبخـر جزئيًـا. هـذا يفسـر سـبب وجـود السـحب فوقنـا و يفسـر أيضًـا الصعقـات الكهربائيـة التـى ظهـرت أثنـاء العاصفـة.

هـذه النظريـة تبـدو لـى مقنعة لأن كل الظواهر مفسـرة بالبراهين الفيزيائيـة.

إذًا نسـير علـى أرض رسـوبية تكونـت بحركـة الميـاه مثـل كل الأراضـى فـى هـذه الحقبـة. البروفسـير يفحـص بدقـة كل فاصـل بـين الصخـور. يرغـب فـى اقتحـام هـذه الكتلـة.

تجولنـا لمسـافة ميـل علـى شـاطئ بحـر «ليدنبـروك» ثـم بـدأت الأرض تغيـر هيأتهـا. أصبحـت منفوشـة، مقلوبـة. رأينـا بعـض الحفـر الصغيـرة تحـوى فتـات مـن الكتـل الأرضيـة.

مشـينا بصعوبـة علـى هـذا الفتـات المخلـوط بالصـوان و الكوارتـز و بقايـا الطمـى حتـى بـدا لنـا حقـل ملـئ بالعظـام. نسـتطيع قـول مقبـرة ضخمـة تحـوى رفـات مخلوقـات مضـى عليهـا عشـرين قرنًـا. فـى الأفـق تبـدو تـلال ضخمـة مـن بقايـا الكائنـات. ربمـا نجـد هنـا علـى مسـاحة ثلاثـة أميـال مربعـة تاريـخ كل الحيوانـات التـى ظهـرت فـى الكـون كلـه.

الفضـول دفعنـا للتقـدم، العظـام تُسـحق تحـت أقدامنـا بصـوت حـاد. هنـا نجـد بقايـا حيوانـات مـا قبـل التاريـخ التـى لا وجـود لهـا فـى أشـهر المتاحـف الطبيعيـة.

ذُهلـت. أشـار عمـى إلـى السـقف السـميك الـذى يعتبـر بالنسـبة لنـا سـماء. فتـح فمـه فـى ذهـول و برقـت عينيـه تحـت النظـارة و راح يتأمـل المـكان مـن أعلـى لأسـفل و مـن اليمـين لليسـار. إنـه هيـكل عظمـى لوحـش سـابق للفيضـان. يبـدو علـى وجهـه كأنـه عثـر علـى كنـز ثمـين أو ربمـا عثـر علـى مكتبـة الإسـكندرية المحروقـة.

هـب الهـواء محمـلاً بالتـراب البركانـى و شـعرنا بحركـة غريبـة فقـال عمـى:

- «أكسيل»! «أكسيل»، رأس بشرية.

قلت مذهولاً:

- رأس بشرية؟

- نعـم يـا بنـى. أتمنـى أن يكـون معـى الآن السـيد «ملـين إدوارد» و السـيد «دى كاترفـاج». أنـا «أوتـو ليدنبـروك».

●●●

(٣٨)

لكـى نفهـم سـبب تذكـر عمـى لهـؤلاء العلمـاء الفرنسـيين الكبـار يجـب أن أقص لكم مـا حـدث قبـل رحيلنـا بوقـت قصيـر. إنهـا أحـداث هـامـة فـى علم الحفريات.

فـى يـوم ٢٨ مـارس ١٨٦٣ حـدثـت عمليـة تنقيـب تحـت إشـراف السـيد « بوشـيه دى بيـرت» فـى منطقـة «مـولان كينيـون» بالقـرب مـن «أبفيـل» فـى فرنسـا . عثـروا علـى فـك بشـرى فـى عمـق أربعـة عشـر قدمًـا تحـت سـطح الأرض. إنهـا أول حفريـة مـن هـذا النـوع و كشـفت للعلمـاء أشـياء كثيـرة. عثـروا علـى الفـؤس الحجريـة و حجـر الصـوان المصقـول منتظمـة بشـكل جيـد حـول الفـك.

حدثـت ضجـة كبيـرة، ليسـت فـى فرنسـا فقـط، بـل فـى إنجلتـرا وألمانيـا . اهتـم علمـاء الجامعـات الفرنسـية بالأمـر. مـن بينهـم السـيدة «ميـلان إدوارد» و«دى كاترفـاج». اشـتهر الموضـوع فـى الأوسـاط العلميـة باسـم «قضيـة الفـك».

أصبح كل عالم يدلى برأيه، مثل «روديون»، السيدة «فالسونير»، «بوسـك» و «كاربنتـر» و غيرهـم. و اشـترك العلمـاء الألمـان فـى الحـوار و مـن بينهـم عمـى «ليدنبـروك» الـذى كان أكثرهـم صرامـة و جديـة.

وجود حفرية بشرية تعود إلى العصر الرباعى تثير الجدل.

أعلن العالم «إيلى بومو» أن أرض هذه المنطقة ليست رسوبية لكنها تعود إلى طبقة أحدث. و اتفق «كوفى» معه فى الرأى، يرفض أن يكون الجنس البشرى معاصرًا لحيوانات العصر الرباعى. عمى، الذى يعتبر من أشهر الجيولوجين تناقش و تحاور كثيرًا حتى بدا أن السيد «إيلى دى بومو» هو المعارض الوحيد.

نعلم كل هذه التفاصيل من القضية لكننا نجهل التطورات الجديدة. عثروا على فكوك أخرى فى أماكن متفرقة من فرنسا و سويسرا و بلجيكا، كما عثروا على أسلحة و أدوات. عثروا على حفريات لأطفال و مراهقين، رجال و عواجيز. فكرة أن الإنسان كان يعيش فى العصر الرباعى أصبحت تتأكد يوم وراء يوم.

ليس هذا كل ما فى الأمر. من خلال حفريات أخرى فى أراضى تعود إلى العصر البيلوسونى أصبح العلماء المخضرمين يعتقدون أن عمر الإنسان على الأرض أكثر مما كانوا يعتقدون. هذه الحفريات الجديدة ليست بقايا بشرية لكنها من صنع الإنسان بالإضافة إلى عظم القصبة و أفخاذ الحيوانات منحوتة بدقة، مما يعنى أنها تحمل بصمات الإنسان.

هكذا تراجع عمر الإنسان على الأرض إلى قرون كثيرة للخلف. إنه يسبق الماستدونت و ربما يعود تاريخه إلى مائة ألف سنة لأن العلماء حددوا أن هذا هو عمر الأرض البيلوسينية.

هذه هى حالة علم الحفريات فى هذا الوقت، و هذا يكفى لنفهم أهمية المكان الذى وصلنا إليه. نفهم الآن سبب سعادة عمى عندما رأى أمامه حفريات إنسان يعود إلى العصر الرباعى.

إنه جسد إنسان مكتمل. هل هذه الأرض تمتاز بطبيعة خاصة مثل مقابر «سان ميشال» فى «بوردو» لتحفظ لنا هذه الحفرية لمدة قرون طويلة؟ لا أعرف. لكن الجسد متماسك و فى حالة جيدة، الأعضاء ناعمة – بالنظر على الأقل – الأسنان لم يمسها أحد، الشعر غزير، مفاصل و أصابع اليد و القدم كبيرة بشكل مخيف لتكشف لنا حياة هذا الإنسان القديم.

ذُهلت فى صمت من هذه الحفرية و عمى الذى اعتاد إلقاء المحاضرات التزم الصمت أيضًا. انتشلنا الجسد من الأرض فبدا كأنه يرانا و ارتجفنا.

بعد لحظات الدهشة و الصمت استعاد عمى صفة البروفوسير. نسى ظروف رحلتنا، نسى المكان الذى نحن به، نسى الكهف الضخم المحيط بنا. بلا شك تخيل نفسه فى «جوهانيوم» يدرس لطلابه لأنه قال بكلمات علمية رصينة:

– أيها السادة، أتشرف بتقديم إنسان العصر الرباعى لكم. يوجد علماء أجلاء ينكرون وجوده و آخرون ليسوا واثقين من رأيهم. لو كان علماء الحفريات موجودين هنا و لمسوه سيكتشفون فداحة

خطأهم. يجب على العلم ألا يعارض هذا النوع من الاكتشافات. أعلم ما يقوله المشعوذون حول هذه الحفريات و قرأت تقارير على حفرية «تربانى» التى عثروا عليها فى القرن الرابع عشر. أعلم تاريخ العمالقة الذى عثروا عليهم فى «بالرم» فى القرن السادس عشر. و أنتم تعلمون كل ذلك يا سادة. لقد تم تحليل هذه الحفرية فى عام ١٥٧٧ على يد الطبيب «فيليكس بلاتر» وأعلن أن هذا العملاق فى التاسعة عشر من العمر. قرأت تفاصيل «كاسانيون» و كل مذكراته و كل محاوراته المنشورة حول حفرية «سمبر» الذى قهر بلاد الغال. و عارضت أراء «بيار كامبى» حول حفرية «شيشزر». نعم أيها السادة، أعلم كل هذه التفاصيل و أعلم أيضًا أن «كوفى» و«بلومنباش» اكتشفوا عظام الماموس و حيوانات أخرى تنتمى إلى العصر الرباعى. لكن هذا الشك يصبح إهانة للعلم. الجثة هناك. تستطيعون رؤيتها و لمسها. ليست مجرد هيكل عظمى بل جثة كاملة محفوظة لنقوم بدراسة الأنثروبولوجيا.

لو قمت بغسلها بالأحماض ستختفى بقايا الأرض و القواقع التى تتلألأ فيها. إنى أحتاج إلى منظف جيد. و على كل حال هذه الجثة تحكى لنا قصة صاحبها.

أشار البروفوسير إلى الجثة بثقة و أكمل:

- كما ترون، طوله لا يصل إلى ستة أقدام، لا يبدو عملاقًا. من هيأته يبدو أنه قوقازى، إنه الجنس الأبيض، من نفس جنسنا.

هـذا يدفعنـى إلـى استنتاج أنـه ينتمـى إلـى الأسـرة التـى كانت منتشـرة مـن الهنـد إلـى حـدود أوروبـا الغربيـة. لا تضحكـوا يـا سـادة.

لـم يضحـك أحـد لأنــه لا يوجـد مسـتمعين. لكـن البروفوسـير يعتقـد دائمًـا أن المسـتمعين يضحكـون أثنـاء الحديـث العلمـى.

أكمل البروفوسير بحماس:

- نعـم، إنهـا حفريـة إنسـان معاصـر للماسـتودنت. لكـن عليكـم أن تقولـوا كيـف وصلـت إلـى هنـا. كيـف انزلقـت تحـت كل هـذه الكتـل الصخريـة. لا شـك أبـدًا فـى حـدوث اضطرابـات أرضيـة عنيفـة فـى العصـر الرباعـى.

استـمرار الأرض فـى البـرودة أنتـج شـقوق كثيـرة التهمـت أجـزاء مـن سـطح الأرض. أنـا لا أسـعى إلـى إثـارة الضجـة.

الجثـة هنـاك وسـط الأدوات التـى تعـود إلـى العصـر الحجـرى. و مـن المؤكـد أنـه لـم يـأت إلـى هنـا للسـياحة مثلـى. مـن وجهـة نظـر العلـم لا نشـك فـى أصلـه القـديم.

عندمـا صمـت البروفوسـير صفقـت لـه مشـجعًا. إنـه عالـم كبيـر و لا أحـد يسـتطيع مهاجمـة منطقـه العلمـى.

يوجـد ملحوظـة أخـرى. هـذه الحفريـة ليسـت الوحيـدة هنـا. لقـد عثرنـا علـى حفريـات كثيـرة فـى كل خطـوة. اختـار عمـى أفضلهـا ليقنـع المتشـككين.

فـى الحقيقـة كان المشـهد مذهـلاً. كميـة كبيـرة مـن بنـى الإنسـان و الحيـوان محفوظـة فـى هـذه المقبـرة. لكـن ظهـر لنـا سـؤال بـلا جواب. هـل هـذه المخلوقات هبطت إلى هنا جوار بحـر «ليدنبـروك» خـلال شـق أرضـى؟ أم أنهـا كانـت تعيـش تحـت سـطح الأرض تحـت هـذه السـماء الكاذبـة؟ حتـى الآن لـم نعثـر علـى أى كائـن حـى هنـا إلا الوحـوش البحـريـة و الأسـمـاك الغريبـة.

●●●

(٣٩)

الفضول دفعنا للتقدم لمدة نصف ساعة، ندهس العظام تحت أقدامنا. ماذا يحوى هذا الكهف من الكنوز العلمية؟ أراقب كل شىء بدهشة، ما أراه يفوق الخيال.

اختفت شواطئ البحر منذ فترة طويلة خلف تلال العظام. البروفوسير الماهر بدأ يقلق من ابتعادنا. نسير فى صمت تحت الضوء الكهربائى. لا أجد تفسيرًا لهذه الظاهرة. هذا الضوء الغامض يضئ كل الأشياء من جميع الجوانب. لا نجد له مصدر محدد و لا ينتج عنه أية ظلال. إنه مثل ضوء الظهيرة فى منتصف الصيف، مثل المنطقة الإستوائية حيث تكون أشعة الشمس عمودية على الأرض. اختفى الضباب تمامًا و بدت فى الصخور و الجبال البعيدة بعض الكتلات مثل الغابات الممتدة، و تبدو غامضة تحت هذا الضوء الغريب. أصبحنا مثل شبح «هوفمان» الذى ضاع فى الظلال.

بعد أن تقدمنا لمسافة ميل بدت لنا غابة شاسعة لكنها ليست من عش الغراب الموجود فى ميناء «جروبن».

إنها نباتات العصر الثلثى بكل روعتها. نخيل شاهق لا يوجد منه الآن، طقسوس، صنوبر، سرو و كل الأنواع المخروطية تتشابك

فيما بينها بحيث لا يمكن اختراقها. تكسو الأرض سجادة من الطحالب و الحشائش. بعض الأغصان تتخبط فى الظلال. و هذه الكلمة غير دقيقة لأنه لا يوجد هنا أية ظلال. تبدو مثل المشاتل الموجودة على سطح الأرض لكن كل هذه النباتات تفتقد اللون الذى ينتج من ضوء الشمس. كلها باهتة حتى الزهور بلا ألوان ولا رائحة كأنها مصنوعة من أوراق صناعية.

غامر عمى باقتحام الغابة و تبعته مرتجفًا. طالما أن الطبيعة سمحت بنمو هذه النباتات هنا أليس من الممكن أن نلتقى بعض الثديات المتوحشة؟ لمحت بين الأشجار بعض الثمار و الأشواك وآلاف من الشجيرات تنتمى لكل العصور. ثم ظهرت لنا أشجار تنتمى إلى كل المناطق المختلفة فوق سطح الأرض. نباتات المناطق الإستوائية تجاور النباتات الأسترالية تجاور صنوبر النرويج وأشجار الجنوب. مجموعة ضخمة من كل نباتات العالم. و فجأة توقفت و جذبت يد عمى.

الضوء المنساب يسمح برؤية كل شىء فى عمق الغابة. أعتقد أننى رأيت.. لا، لا أصدق عينى. رأيت أشباح ضخمة تتحرك تحت الأشجار! بالفعل إنها حيوانات عملاقة، سرب من الماستودونت، ليست مجرد حفريات بل أحياء، تشبه الحفريات التى عثروا عليها فى سهل «أوهيو». راقبت سرب الأفيال الضخمة التى تتحرك فى

طابـور ثعبانـى أسـفل الأشـجار. سـمعت صيحاتهـم تأتـى مـن بـين أنيابهـم العاجيـة المخيفـة و تسـاقطت فـروع الأشـجار تحـت هجومهـم و راحـوا يأكلـون بشـراهة.

هـل سـيتحقق حلمـى و نلتقـى كل الحيوانـات المتوحشـة للعصـور السـابقة؟ لا يوجـد غيرنـا هنـا. كيـف سـنواجه هـذه الوحـوش؟ قـال عمـى مندفعًـا:

- هيا بنا. إلى الأمام، إلى الأمام.

صرخت:

- لا، ليـس معنـا سـلاح، كيـف سـنواجه هـذه الوحـوش؟ نعـد ياعمـى، نعـد. لا يسـتطيع إنسـان مقاومـة هـذه الوحـوش.

قال عمى بصوت منخفض:

- لا يسـتطيع إنسـان! أنـت مخطـئ يـا «أكسـيل». انظـر. يبـدو أننـى لمحـت كائـن حـى هنـا يشـبهنا! إنسـان!

حاولـت تكذيـب ظنـه لكنـى دُهشـت ممـا رأيـت. بعـد أن تقدمنـا لمسـافة ربـع ميـل لمحـت مخلـوق بشـرى بـين الأشـجار. إنسـان تحـت أرضـى يحـرس هـذا القطيـع مـن الماسـتودونت.

ليس مثل الحفرية التى رفعناها منذ قليل. إنه إنسان ناضج قوى قادر على التحكم فى هذه الوحوش. يتجاوز طوله إثنى عشر قدمًا. رأسه ضخمة مثل الجاموسة، ملامح وجهه تختفى تحت شعر كثيف مجعد. يهش بعصا ضخمة على هذه الحيوانات السابقة للفيضان.

تثبتنا فى مكاننا ذاهلين، لكن قد يلمحنا فى أية لحظة. يجب الفرار. قلت و أنا أدفع عمى:

- هيا بنا... هيا.

أطاع أمرى لأول مرة فى حياته و بعد ربع ساعة أصبحنا بعيدًا عن أنظار العدو.

الآن بعد أن استعدت هدوئى بدأت أفكر بالعقل. تساءلت عن ماهية هذا المخلوق الغريب، ماذا يكون؟ لا! مستحيل! هل هى مجرد خيالات و أوهام؟ لا يستطيع أى إنسان الحياة فى هذا الكهف تحت سطح الأرض. إنها خيالات.

أعلم بوجود حيوانات تشبه الإنسان فى تركيبها مثل قرود العصور الجيولوجية القديمة التى اكتشفها السيد «لارتيت». لكن المخلوق الذى رأيته الآن أضخم من كل هذه الحفريات. ليس هذا مهمًا! قرد، نعم إنه قرد لكن إنسان مثلنا يتحكم فى كل هذه الوحوش تحت الأرض! مستحيل!

تركنا الغابة المضيئة ذاهلين صامتين. جرينا رغمًا عنا. إنه هروب حقيقى مثلما يحدث فى الكوابيس. وصلنا إلى بحر «ليدنبروك» متلهفين. تأملت المكان حولنا و لم أعثر على أية علامة مميزة أعرفها. الأرض تحت أقدامنا غريبة عنى رغم أنها تشبه أرضية ميناء «جروبن» و تأكدت من صدق ظنى عندما فحصت البوصلة. أصبحنا فى شمال بحر «ليدنبروك». المكان رائع، نهيرات، شلالات تنساب بين شقوق الجدران.

ربما تكون مياه النهر الذى اتبعناه من البداية. لكنى تشككت فى الأمر بعد ذلك. بعد مناقشة مع عمى علمت أنه هو أيضًا لا يعرف هذا المكان. قلت له:

- من المؤكد أن العاصفة دفعتنا إلى مكان آخر غير نقطة البداية. قد تكون دفعتنا إلى مكان بالأسفل و إذا تتبعنا الساحل سنعود إلى ميناء «جروبن».

أجاب عمى:

- فى هذه الحالة ليس من المفيد استكمال كشف هذا المكان و يجب العودة إلى العوامة. لكن هل أنت واثق من رأيك «أكسيل»؟

- من الصعب التأكد من ذلك لأن كل الصخور متشابهة. لكن يبدو لى أننى أرى أثر أقدام «هانز». نحن بالقرب من الميناء الصغير. ربما يكون هنا.

أشـرت إلـى المـكان الـذى أفتـرض وجـود الميـنـاء بـه لكـن عمـى قـال:

- لـو رأيـك صحيـح «أكسـيل» كان يجـب أن نجـد آثـار أقدامنـا أيضًـا، و أنـا لا ألمـح...

أشرت بيدى إلى شىء يتلألأ وسط الرمال و صرخت:

- لكنى أرى!

- ماذا ترى؟

- هذا.

قدمت لعمى الخنجر الذى التقطه من الأرض فقال:

- هل كان هذا ضمن سلاحك؟

- أنا؟ لا! ربما سلاحك أنت...

قال البروفوسير:

- لا، لم يكن لدى مثل هذا الخنجر أبدًا.

- الأمر غريب.

- الأيسلنديون يحبون هذه الأسلحة. ربما يكون سلاح «هانز».

أكدت له أنه ليس سلاح «هانز» ثم قلت:

- هل هو سلاح أحد المحاربين السابقين للفيضان المعاصرين لهذا الراعى العملاق؟ لكن لا، لم يكن هذا السلاح معروفًا فى العصر الحجرى و لا العصر البرونزى! هذا السلاح من الصلب...

قاطعنى عمى بصوت جاف بارد و قال:

- اهدأ «أكسيل». فكر بالعقل. هذا الخنجر يعود إلى القرن السادس عشر و كان النبلاء يستخدمونه كثيرًا. إنه أسبانى و هو لا يخصك و لا يخصنى و لا يخص المرشد و لا يخص الكائنات البشرية التى ربما تعيش تحت سطح الأرض.

- ماذا تقصد؟

- هذا السلاح لم يُستخدم فى القتل. الشفرة حادة و صدأة و لا نجد عليها التاريخ.

بدأ البروفوسير يسرح فى خيالاته ثم قال:

- «أكسيل». نحن نسير فى الطريق الصحيح. هذا السلاح هنا منذ مائة أو مائتين أو ثلاثمائة سنة. و هو متروك هنا عمدًا.

- لكنه لم يأت إلى هنا بمفرده. يوجد من تركه هنا...

- نعم، رجل.

- و من هو هذا الرجل؟

- هذا الرجل حفر اسمه بالخنجر ليشير لنا إلى مركز الأرض. لنبحث..

تجولنا على الجدران نبحث عن أى أثر حتى وصلنا إلى ممر بين الجدران عرضه قامة واحدة و لمحنا مدخل نفق معتم. و هنا لمحنا الحروف محفورة بطريقة غامضة «أ.س».

صرخ عمى: «أرن ساكنوسم».

●●●

(٤٠)

دُهشت كثيرًا منذ بداية الرحلة حتى أننى أصبحت أعتقد أننى لن أُدهش بعد ذلك. لكننى دُهشت أكثر عندما رأيت الحروف المحفورة منذ ثلاثمائة عام. دُهشت لدرجة البله. ليس فقط بسبب الحروف التى نحتها الكيميائى بخط يده لكن لأن هذا يعنى أنه قام بهذه الرحلة بالفعل.

بينما كانت هذه الأفكار تدور فى رأسى كان البروفوسير «ليدنبروك» يتأمل المكان الذى حل به «أرن ساكنوسم» بإعجاب شديد. ثم قال:

- عالم عبقرى! كشف لنا الطريق فى القشرة الأرضية، رسمت لنا الخطوات منذ ثلاثمائة عام لنصل إلى أعماق الأرض المعتمة. أُكن لك كل الاحترام و التقدير. اسمك هنا يشهد بكل خطواتك لكى نتبعها للوصول إلى مركز كوكبنا. و أنا أيضًا سأحفر اسمى فى آخر الصفحة الجرانيتية. لكن من الآن يجب أن نطلق اسمك على الصخرة القريبة من بحر «ليدنبروك». سيظل اسمها صخرة «ساكنوسم» إلى الأبد.

هذه هى الصيحات المبهجة التى سمعتها و ثارت الحماسة فى صدرى. نسيت كل شىء، نسيت مخاطر الرحلة و مشقة العودة. أستطيع فعل ما فعله غيرى. الأمر ليس مستحيلاً. قلت مبتسمًا:

- إلى الأمام! إلى الأمام.

اندفعت إلى النفق لكن عمى منعنى. رغم تعجله الدائم إلا أنه نصحنى بالصبر و الهدوء. قال:

- يجب أن نعود إلى «هانز» و نأتى بالعوامة إلى هنا.

صبرت لكن فى ضيق و بدأت أهرول على الشاطئ و قلت:

- هل تعلم عمى أننا لم نصل هنا إلا بالمصادفة؟

- آه! أتعتقد ذلك «أكسيل»؟

- بالتأكيد، العاصفة هى التى قادتنا إلى هذا المكان. عاصفة مباركة! العاصفة أرشدتنا بينما الجو الصحو أضلنا. هل تتخيل ما كان سيحدث لو وصلنا إلى الشاطئ الآخر من البحر؟ كنا لن نرى اسم «ساكنوسم».

- نعم «أكسيل»، العناية الإلهية قادتنا إلى الشمال و إلى الصخرة «ساكنوسم». هذا يدهشنى و لا أجد له تفسيرًا.

- ليس هذا مهمًا، التفسير لا يهم، المهم أن نستغل الظروف.

– بالتأكيد يا بنى لكن...

– سنتخذ طريق الشمال و نمر تحت السويد، روسيا و سيبيريا بدلاً من التعمق تحت الصحراء الأفريقية أو تحت المحيط. أعتقد أن هذا أفضل.

– نعم «أكسيل». معك حق. هذا أفضل لأننا تركنا هذا البحر الأفقى الذى لن يقودنا إلى شىء. سنهبط، و سنهبط دائمًا. أتعلم أنه لا ينقصنا إلا ألف و خمسمائة فرسخ للوصول إلى مركز الأرض؟

– هذا لا يهمنى. هيا بنا. هيا بنا.

استمر حوارنا حتى وصلنا إلى المرشد. تم إعداد كل شىء للتحرك فورًا. حملنا كل شىء. اتخذ كل منا مكانه فى العوامة وارتفع الشراع و راح «هانز» يوجه الدفة إلى صخرة «ساكنوسم».

لم تكن الرياح مناسبة للإبجار و لذلك جدفنا بالعصيان الحديدية. فى بعض الأحيان تجبرنا الصخور على الالتفاف ووصلنا إلى هدفنا بعد ثلاث ساعات. يعنى فى السادسة مساءً ورسونا فى مكان مناسب.

قفزت إلى الأرض يتبعنى عمى ثم الأيسلندى. هذا الإبحار البسيط لم يعيدنى إلى الهدوء. اقترحت إحراق العوامة حتى نقطع على أنفسنا كل طرق التراجع. لكن عمى رفض فقلت له:

- يجب التحرك دون أن نضيع أية لحظة.

- نعم يا بنى، لكن يجب فحص هذا النفق الجديد لنعرف إذا كان علينا إعداد السلم.

ربطنا العوامة فى الشاطئ و أدار عمى جهاز «رامكورف» واتجهنا إلى فتحة النفق التى تبعد عشرين خطوة.

الفتحة مستديرة، قطرها حوالى خمسة أقدام، النفق المعتم يمتد داخل الصخور الحية مُبطن بالمواد الملتهبة لكنه يسمح لنا بالمرور. لا يوجد أية عقبات فى جدرانه الداخلية.

اتبعنا طريقًا أفقيًا و بعد ست خطوات اصطدمنا بصخرة ضخمة. صرخت فى غضب عندما رأيت هذا الحاجز المنيع:

- صخرة ملعونة!

بحثنا بحرص فى اليمين و اليسار، فى الأسفل و الأعلى، و لا نجد أى ممر و لا أية حفرة. رغم ذلك لا أريد الاستسلام لليأس. نظرت أسفل الصخرة و لم أجد أية فتحة. دار «هانز» بالمصباح على كل أجزاء الصخرة و لم يعثر على أية فتحة. يجب الاستسلام.

جلست على الأرض بينما عمى يتجول فى الممر لاهثًا. صرخت:

- ماذا يريد «ساكنوسم»؟

قال عمى:

- نعم، هل توقف عند هذه الصخرة؟

قلت فى غضب:

- لا! لا! هذه الصخرة هبطت من القشرة الأرضية بالجاذبية و سدت الطريق. حدث هذا بعد مرور «ساكنوسم» بسنوات طويلة. أليس من الممكن أن يكون هذا النفق هو طريق الحمم و لذلك تتحرك المادة الملتهبة بنشاط؟ انظر، يوجد شقوق حديثة فى سقف الجرانيت. «ساكنوسم» لم يلتق هذه الصخرة. يجب تدميرها للوصول إلى مركز الأرض.

كان عمى يسمعنى بانتباه شديد. لقد بدأت أهتم بعبقرية وأهمية هذا الكشف. نسيت الماضى و أهملت المستقبل. لم يعد يهمنى أى شىء على سطح الأرض، و لا المدن و لا الحقول و لا «هامبورج» و لا «كونجستراس» و لا حتى المسكينة «جروبن» التى ستفقدنى فى أعماق الأرض. كل ما يهمنى هو استكمال الكشف. قال عمى:

- حسنًا، نحاول تحطيم الصخرة بالأوتاد و المعاول.

قلت:

- إنها صلبة جدًا على الأوتاد.

- و المعاول؟

- سيستغرق الأمر وقتًا طويلاً!

- لكن....

- حسنًا، البارود. هكذا نحطم الحاجز.

- البارود!

- نعم، البارود سيحطم الصخرة فى لحظة واحدة.

صرخ عمى:

- «هانز»، استعد.

ذهب «هانز» إلى العوامة و عاد حاملاً الأوتاد التى يستخدمها لحفر فرن من الفحم. العمل ليس هينًا. يجب حفر حفرة قطرها أربعة أضعاف قطر المدفع. كنت فى غاية الحماس بينما انهمك «هانز» بمعاونة عمى فى إعداد البارود الرطب و تغطيته بالقماش الغليظ. قلت مندفعًا:

- هكذا سنعبر الحاجز.

ردد عمى:

- سنعبر الحاجز.

انتهينا من العمل فى منتصف الليل. وضعنا الشحنة فوق الفرن. لا ينقصنا إلا شرارة البداية و قال البروفوسير:

- غداً. يجب علينا أن نتدبر الأمر جيدًا لمدة ست ساعات.

●●●

(٤١)

غـدًا، الخميـس ٢٧ أغسـطس هـو أهـم يـوم فـى الرحلـة حتـى عندما أتذكر هذا اليوم يرتجف قلبى فى رعب. منذ هـذه اللحظة سنفقد عقلنـا و إرادتنـا، سنصبح لعبـة فـى يد الظواهـر الأرضيـة.

استيقظنا فى السادسـة صباحًا. لحظـة تفجيـر البـارود تقتـرب لتدمير هـذا الجاحز الجرانيتـى.

اتفقنـا علـى الخطـة. نلت شـرف إشـعال النيـران ثم يجـب علـىّ اللحـاق برفقائـى فـى العوامـة لنبحـر بسـرعة بعيـدًا عـن الإنهيـارات الأرضيـة و الأخطـار الأخـرى غيـر المتوقعـة. وفقًـا للحسـابات، مـن المفترض أن الفـرن سيشـتعل لمدة عشـر دقائق قبل أن تنتقل الحـرارة إلـى البـارود. الوقت كافـى للذهـاب إلـى العوامـة.

بعـد الوجبـة السـريعة اتجـه عمـى و المرشـد إلـى العوامـة و كان معـى الشـعلة. قـال عمـى:

- إذهب يا بنى و الحق بنا فورًا.

قلت:

- لا تقلق عمى، لن أتلكأ أبدًا فى الطريق.

هبطت في فتحة النفق بينما عمى يمسك بالكرونومتر ويسألنى:

- مستعد؟

- أنا مستعد.

- حسنًا، نيران يا بنى!

غمست الشعلة فى الفرن الذى طقطق بسرعة ثم جريت نحو الشاطئ و أمر عمى:

- نبحر فورًا.

دفع «هانز» العوامة بقوة حتى ابتعدت لمسافة عشرين قامة.

كانت لحظات مرعبة. البروفسير يرقب إبرة الكرونومتر ويقول:

- باقى خمس دقائق. باقى أربعة. باقى ثلاثة.

ارتجف شعر رأسى و عمى يستكمل:

- باقى اثنان! واحدة! .. لتنهار أيها الجبل الجرانيتى.

ماذا حدث؟ أعتقد أننى لم أسمع الانفجار. لكن شكل الصخور تبدل تمامًا أمام عينيى. الجبل ينشق مثل ستار المسرح. لمحت هاوية فى البحر ثم تحولت إلى موجة واحدة ضخمة وارتفعت العوامة أفقيًا.

اصطدمنا ببعضنا البعض و فى أقل من ثانية سطع النور ليضئ العتمة الكثيفة. أشعر أننى أفقد التوازن، لا أقصد سيقانى بل العوامة. شعرت كأنها غرست فى وتد. لكن لا شىء. كنت أرغب فى التحدث مع عمى لكن هدير المياه منعه أن يسمعنى.

رغم الضجيج و المفاجأة و الذهول إلا أننى فهمت ما يحدث. ظهرت الهاوية بين الصخور المنهارة. الانفجار شق الأرض و انساب البحر بعنف فى الهاوية. ضعنا.

مرت ساعة أو ساعتين لا أدرى! ما زال التيار يجرفنا. كل منا يمسك بالآخر خوفًا من السقوط من العوامة. اصطدمنا بعنف عندما عبرنا الجدران الصخرية و بعد ذلك أصبحت الاصطدامات قليلة. هذا ما جعلنى أعتقد أن النفق يتسع. من المؤكد أن هذا هو طريق «ساكنوسم»، لكن بدلاً من الهبوط بمفردنا بحرص أخذنا البحر كله معنا.

كانت كل هذه الأفكار تضطرب فى ذهنى بشكل غامض. من المستحيل ترتيبها فى هذا السباق العنيف الذى يشبه السقوط. الهواء يلسع وجهى مثل الكرباج، سرعته تفوق سرعة كل الرياح الأرضية و من المستحيل طبعًا أن نضئ المصباح فى هذه الظروف، كما أن جهازنا الكهربائى المتبقى تعطل أثناء الانفجار.

دُهشت عندما تلألأ الضوء فجأة و أضاء وجه «هانز» الهادئ. لقد نجح فى إشعال الشعلة لكنها ترتجف و هى على وشك أن تخمد، و مع ذلك ترسل بأشعتها فى العتمة المرعبة.

النفق واسع جدًا و الدليل على ذلك أن ضوءنا الضعيف لا يسمح لنا برؤية الجدران. سرعة اندفاع المياه يفوق سرعة أخطر شلالات أمريكا، تتدفع بسرعة السهم. سقطت العوامة فى عدة دوامات و دارت حول نفسها. عندما اقتربنا من إحدى الجدران أدركت أن سرعتنا خطيرة جدًا. أعتقد أن سرعتنا وصلت إلى ثلاثين فرسخًا فى الساعة.

أنا و عمى نتبادل النظرات فى ذعر، نتمسك بالصارى رغم أن الشراع تمزق فى لحظة الانفجار. ندير ظهورنا للهواء الشديد الذى يعجز أى إنسان عن تحمله.

مرت الساعات و مازال الموقف كما هو، بل أصبح أسوء. عندما حاولنا ترتيب أمتعتنا اكتشفت اختفاء معظمها فى لحظة الانفجار، أو عندما جذبنا البحر بعنف. أريد أن أعرف بدقة المتبقى معنا و بدأت البحث تحت ضوء الشعلة. من الأدوات لا يبقى إلا البوصلة و الكرونومتر. السلم و الحبال التفت حول الصارى. لا يوجد أى معول و لا أى وتد و لا يوجد معنا طعام. بحثت فى كل مكان فى العوامة و لم أجد إلا قطعة واحدة من اللحم المجفف و بعض البسكويت.

ذُهلت! كيف سنعيش؟ و مع ذلك ما هى المخاطر التى تشغلنى؟ لو كان معنا طعام يكفى لشهور أو سنوات كيف سنخرج من هذه الهاوية؟ كيف ننجو من هذا التيار الرهيب؟ لماذا الخوف من معاناة الجوع طالما أن الموت قادم بأشكال أخرى؟ هل لدينا الوقت الكافى لنعانى الجوع؟

مع ذلك أخاف من فقدان الطعام. ربما نهرب من هذا التيار و نعود إلى سطح الأرض. كيف؟ لا أعلم. من أين؟ لا يهم! ربما ضربة حظ، لكن الجوع لن يسمح لنا بالاستمرار فى الحياة.

أردت أن أخبر عمى بما يدور فى رأسى ليحسب الوقت المتبقى لنا فى الحياة لكنى التزمت الصمت بشجاعة لأسمح له بالتفكير فى هدوء.

فى هذه اللحظة بدأ ضوء الشعلة يخفت شيئًا فشيئًا حتى خمد تمامًا، احترقت الشعلة عن آخرها و عادت العتمة المطلقة. لا يجب التفكير فى الضوء. ما زال لدينا بطارية لكن لا نستطيع إشعالها و فعلت مثل الأطفال، أغمضت عينيى حتى لا أرى العتمة.

بعد وقت طويل تضاعفت سرعتنا. اكتشفت ذلك من تخبط الرياح فى وجهى. انحدار المياه أصبح أشد. أعتقد لا ننزلق على المياه بل نسقط. أشعر أننا نسقط رأسيًا.

و فجـأة. اصطدمـت العوامـة بشـىء مـا و غاصـت تحـت الميـاه. شـعرت بالغـرق لكـن هـذا الشـعور لـم يسـتمر كثيـرًا لأننـى عـدت أتنفـس الهـواء و جـوارى عمـى و «هانـز» يمسـكان بـى.

●●●

(٤٢)

أعتقد أن الساعة الآن العاشرة مساءً. أول حاسة عادت إلىّ بعد الصدمة هى السمع. سمعت الصمت التام بعد الطنين. ثم سمعت عمى يغمغم:

- نصعد!

سألت:

- ماذا تقول؟

- نعم، نصعد! نصعد!

تلمست الجدران بيدى الدامية. نصعد بسرعة مذهلة. صرخ عمى:

- البطارية! البطارية!

قام «هانز» بإشعالها بسهولة ليضئ المكان كله ثم قال عمى:

- هذا ما كنت أظنه. نحن على جسر ضيق لا يزيد اتساعه عن ثلاث قامات. أتت المياه من عمق الحفرة و استعادت مستواها و رفعتنا معها.

- أين؟

- لا أعرف، لكن يجب أن نستعد لكل الاحتمالات. نصعد بسرعة أقدرها بثلاث قامات فى الثانية أو مائة و عشرين قامة فى الدقيقة، أو أكثر من فرسخ و نصف فى الساعة. كأننا فى قطار.

- نعم، لا شىء يوقفنا، هذا الجسر بلا هيكل، إنه مثقوب، الهواء المضغوط يدفع المياه، سنُدهس.

قال البروفوسير بهدوء شديد:

- «أكسيل» لا يبدو أى أمل لكن هناك ضربات حظ. هذا ما أعتمد عليه. كنا نختنق فى كل لحظة لكن نجونا. يجب أن نستغل كل الظروف.

- ماذا نفعل؟

- نستعيد قوتنا بالطعام.

نظرت إليه فى غضب و سألت:

- نأكل؟

- نعم، دون تأخير.

ثم أضاف بضعة كلمات بالدنماركية و هز «هانز» رأسه ثم صرخ عمى:

- ماذا! فقدنا طعامنا؟

- نعم، هذا ما تبقى من طعامنا، قطعة واحدة من اللحم المجفف لنا نحن الثلاثة.

نظر عمى إلىّ كأنه لا يفهمنى فسألته:

- هل تعتقد أننا سننجو؟

لم أحصل على إجابة.

مرت ساعة و بدأت أشعر بالجوع. و رفيقاى أيضًا يشعران بالجوع و لم يجرؤ أى منا على لمس المتبقى من الطعام.

مع ذلك مازلنا نصعد بسرعة مذهلة حتى أن الهواء يكتم أنفاسنا فى بعض الأحيان. من المفترض أن يبرد الهواء بالتدريج مع صعودنا لكن ما يحدث هو العكس. الحرارة ترتفع بشكل يثير القلق، ربما وصلت إلى أربعين درجة.

هل نظرية «دافنى» و«ليدنبروك» صحيحة؟ حتى الآن اكتشفنا صخور و ظواهر كهربائية و مغناطيسية عكس قانون الطبيعة، وظاهرة الحرارة أيضًا غير طبيعية لأننى ما زلت مقتنعًا بوجود

النيـران فـى باطـن الأرض. هـل سنصل إلـى المكان الـذى تنصهـر فيـه كل الصخـور. أخشـى ذلـك. قلـت للبروفوسـيـر:

– طالمـا أننـا نجونـا مـن الغـرق و مـن الانسـحاق و مـن الجـوع أعتقـد أننـا سـنموت محروقـين.

اكتفى بهز أكتافه و غرق فى تأملاته.

مـرت سـاعة و لـم يحـدث أى شـىء سـوى ارتفـاع الحـرارة، و لـم يتغيـر الموقـف ثم قـال عمـى:

– لنرى، يجب أن نفعل شيئًا.

سألت:

– نفعل شيئًا؟

– نعـم. يجـب أن نسـتعيد قوتنـا. قطعـة اللحـم قـد تحفـظ حياتنـا لعـدة سـاعات و إلا سـنعانى الضعـف حتـى النهايـة.

– نعم، النهاية التى لا يجب انتظارها.

– حسـنًا، سـيحالفنا الحـظ عندمـا نكـون أقويـاء. لا يجـب الاستسـلام للضعـف.

– حسنًا عمى، هل نأكل قطعة اللحم الوحيدة المتبقية؟

– نعم «أكسيل». تبدو بلا إرادة و بلا طاقة.

سألت:

- ألا تشعر باليأس؟

أجاب بحزم:

- لا

- ماذا؟ هل مازلت تنتظر ضربة الحظ؟

- نعم، بالتأكيد. طالما أننا نتنفس و القلب ينبض لا يجب أن نيأس أبدًا.

ما هذه الكلمات! كيف يقول هذا فى هذه الظروف سألت:

- أخيراً، ما الذى يجب أن نفعله؟

- نأكل ما تبقى من الطعام حتى آخره لنستعيد قوتنا. ربما تكون وجبتنا الأخيرة. حتى لو هلكنا يجب أن نكون مثل الرجال.

قلت:

- لنأكل.

قام عمى بتقسيم قطعة اللحم و البسكويت إلى ثلاثة أجزاء متساوية و وزعها. إلتهم طعامه بحماس و أنا أكلت دون أى بهجة و ربما دون أتذوق الطعام بينما «هانز» أكل بهدوء شديد كأنه لا يفكر فى المستقبل أبدًا. ثم شربنا المتبقى من الخمر.

انتهت وجبتنا الأخيرة فى الخامسة صباحًا و عاد إلىّ بعض الأمل.

هذا هو الإنسان، يكون فى حالة سيئة عندما يشعر بالجوع. بعد الوجبة غرق كل منا فى تأملاته. فى ماذا يفكر «هانز» المستسلم للقدر تمامًا مثل الشرقيين؟ بالنسبة لى أفكر فى ذكرياتى فوق سطح الأرض الذى أحبه، منزل «كونجستراس» و المسكينة «جروبن» و الخادمة «مارت». كل هذه الأشياء طافت فى ذهنى حتى أننى سمعت ضجيج المدينة و أنا أرقب الكتل الحجرية.

بالنسبة لعمى فهو مشغول دائمًا بعمله، يمسك البطارية ويفحص طبيعة الأرض و هو يحاول معرفة موقعنا. حساباته أو تخميناته مشوشة جدًا. لكنه عالم كبير عندما يتعامل بهدوء. سمعته يغمغم ببعض المصطلحات العلمية. ثم قال:

- جرانيت ملتهب. مازلنا فى العصر الأول لكننا نصعد. نصعد، من يدرى؟

من يدرى؟ مازال لديه أمل. مازال يفحص الصخور ثم قال:

- هنا صوان! هذا طلق منضد! حسنًا، بعد ذلك سنجد أرض عصر التحول ثم...

ما الذى يريد قوله البروفسير؟ هل يريد قياس سمك القشرة الأرضية التى فوق رؤوسنا؟ هل لديه طريقة خاصة لهذه الحسابات؟ لا. فقدنا المانومتر و لا يستطيع التأكد من شكوكه.

مع ذلك الحرارة ترتفع بشكل ملحوظ حتى شعرت أننى فى جو مشتعل. لا يمكن مقارنة هذه الحرارة إلا بحرارة فرن الحداد. خلعنا ثيابنا قطعة وراء أخرى، الثياب القليلة تسبب لنا معاناة.

قلت ساخراً عندما تضاعفت الحرارة:

- هل نصعد إلى مركز التوهج؟

قال عمى:

- لا. مستحيل! مستحيل!

قلت و أنا أشير إلى الجدران:

- مع ذلك هذه الجدران ملتهبة.

فى هذه اللحظة لمست المياه بيدى و سحبتها بسرعة و أنا أصرخ:

- المياه تغلى.

لم يجبنى البروفسير، إلا بحركة غاضبة.

يبـدو أنـه يشـعر بالخـوف و استشـعر الكارثـة القادمـة التـى لا يتوقعهـا أحـد. فكـرة مبهمـة غيـر مؤكـدة تراودنـى، أحـاول الفـرار منهـا لكنهـا تعـود إلـىّ بقـوة. لا أسـتطيع تحديـد الفكـرة. تحـت ضـوء البطاريـة لاحظـت حـركات مضطربـة فـى الصخـور الجرانيتيـة. هناك شـىء مـا يحـدث. الكهربـاء تلعب دورهـا فـى هـذه الظاهـرة، الحـرارة شـديدة، الميـاه تغلـى.

فحصت البوصلة لكنها كانت مثل المجنونة.

●●●

(٤٣)

نعم، البوصلة أُصيبت بالجنون. الإبرة تقفز من القطب إلى القطب الآخر بحركة فجائية ثم تدور فى كل الاتجاهات كأنما أُصيبت بالدوار.

أعلم جيدًا أن معظم النظريات العلمية تؤكد أن باطن الأرض المعدنى ليس ثابتًا أبدًا. تفاعل المادة الداخلية، جريان المادة المصهورة و تأثير المغناطيسية كل ذلك يؤدى إلى هذه الحركة رغم أن كل الكائنات الأرضية لا تشعر بها. لذلك لا أخشى هذه الظاهرة، أو على الأقل لا تبدو لى مرعبة.

لكن من ناحية أخرى أخشى التيه. صوت الرعد يرتفع بشكل مخيف. لا يمكن مقارنة هذا إلا بضجة العربات الكثيرة على الطريق. الرعد مستمر.

البوصلة المجنونة التى تتحرك بتأثير الكهرباء تؤكد صدق ظنى. الكتلة المعدنية على وشك التفكك. الكتل الصخرية تتخبط، الشقوق تُغلق، الفراغ يضيق. نبدو مثل ذرات صغيرة ستُسحق هنا. صرخت:

- عمى، عمى! ضعنا!

أجابنى بهدوء غريب:

- لماذا هذه المخاوف الجديدة؟ ماذا بك؟

- ماذا بى؟ انظر إلى الجدران المتحركة، الكتل المرتجة، الحرارة المخيفة، المياه المغلية، البخار المتكاثف، الإبرة المجنونة، كل هذه الإشارات تؤكد اضطراب الأرض.

هز رأسه بهدوء ثم قال:

- اضطرابات أرضية؟

- نعم!

- أعتقد أنك على خطأ يا بنى!

- ماذا! ألا تعلم معنى هذه المظاهر؟..

- اضطرابات أرضية؟ أترقب ما هو أفضل من ذلك!

- ماذا تقصد؟

- انفجار «أكسيل».

قلت:

- انفجار! نحن فى مدخنة البركان النشط!

قال البروفوسير و هو يضحك:

- أعتقد ذلك، لهذا يجب أن نكون سعداء!

نكون سعداء! هل أُصيب بالجنون؟ ماذا يقصد بكلماته؟ لماذا الهدوء و الابتسام؟ صرخت:

- كيف؟ نحن فى قلب الانفجار؟ القدر دفعنا إلى طريق الحمم المتوهجة، الصخور النارية، المياه المغلية، كل المواد الملتهبة! سنطير فى الهواء، مع الصخور، مع الأمطار البركانية. سنُقذف فى دوامة ملتهبة و تقول يجب أن نكون سعداء!

أجاب و هو يرقبنى من أعلى نظارته:

- نعم، لأنها الفرصة الوحيدة لنصل إلى سطح الأرض.

اضطربت كل الأفكار فى عقلى، عمى على حق. الآن يبدو لى عاقلاً جدًا و هو يترقب ضربة الحظ مع الانفجار.

مع ذلك نصعد. مرت الليلة فى هذه الحركة التصاعدية والضجة تزداد. كدت أن أختنق، اعتقدت أننى فى الساعة الأخيرة من حياتى و سرحت فى ذكريات الطفولة. حاولت تركيز أفكارى دون جدوى.

مـن الواضـح أننـا نندفـع بالانفجـار. المياه تغلـى تحـت العوامـة وتحت المياه توجد عجينـة مـن الحمـم و مزيـج مـن الصخـور ستتفجر فـى كل اتجـاه لحظـة وصولهـا إلـى قمـة الفوهـة. نحـن إذًا فـى مدخنـة البـركان و لا مجـال للشـك فـى ذلـك.

هـذه المـرة لسـنا فـى «سـنيفيل» البـركان الخامـد، نحـن الآن داخـل بـركان نشـط. تسـاءلت فـى نفسـى عـن الجبـل الـذى سـنخرج منـه و فـى أى مـكان مـن العالـم.

فـى الأماكـن الشـمالية بالتأكيـد. البوصلـة لـم تبـدل الاتجـاه قبـل إصابتهـا بالجنـون. منـذ صخـرة «ساكنوسـم» نتجـه إلـى الشـمال لمسـافة مئـات الفراسـخ. هـل نحـن أسـفل أيسـلندا؟ هـل سنُقذف مـن فوهـة «هـكلا» أم مـن الجبـال السـبعة الأخـرى فـى الجزيـرة؟ علـى بعـد خمسـمائة فرسـخ فـى الغـرب يوجـد بـركان فـى أمريـكا نجهـل عنـه الكثيـر. فـى اتجـاه الشـرق، تحـت خـط عـرض ثمانـين، فـى جزيـرة «جـون مايـون» يوجـد بـركان آخـر. الفوهـات كثيـرة حولنـا و لا أعلـم سـنخرج مـن أى منهـا.

مازلنـا نصعـد حتـى السـاعات الأولـى مـن الصبـاح . الحـرارة ترتفـع مـع اقترابنـا مـن سـطح الأرض و هـذا نتيجـة البـركان الثائـر. حركاتنـا لا تسـمح لـى بالشـك فـى ذلـك أبـدًا. قـوة جبـارة تصـل إلـى مائـة ضعـف الضغـط الجـوى تنتـج عـن البخـار فـى باطـن الأرض وتدفعنـا بعنـف. لكـن مـا هـى المخاطـر التـى سـنواجهها!

فجـأة ظهـر وميـض أصفـر فـى النفـق الـذى يتسـع و لمحـت فـى اليمـين و اليسـار أنفـاق عملاقـة يهـرب منهـا البخـار الكثيـف و ألسـنة النيـران تومـض علـى الجـدران صرخـت:

– انظر! انظر عمى!

– حسنًا، نيران كبريتية و هذا أمر طبيعى فى الانفجار.

– لكن ماذا لو أصابتنا؟

– لن تصيبنا.

– لو اختنقنا؟

– لـن تخنقنـا. النفـق يتسـع و لـو حـدث شـىء سـنترك العوامـة ونحتمـى فـى الشـقوق.

– و المياه! المياه المتصاعدة؟

– لا يوجـد ميـاه «أكسـيل» لكنهـا عجينـة مـن الحمـم سـتدفعنا إلـى فتحـة الفوهـة.

تحـول شـكل الميـاه بالفعـل إلـى مـادة ملتهبـة كثيفـة لكنهـا تغلـى. الحـرارة غيـر محتملـة. لـو معنـا الترمومتـر سيسـجل سـبعين درجـة. العـرق يغرقنـى. لـو لـم يكـن الصعـود بالسـرعة الكافيـة سـنختنق.

مع ذلك البروفوسير لم يأمرنا بمغادرة العوامة و يبدو فى حالة جيدة. لو أن هذه الشقوق العرضية تمنحنا أرضية صلبة تسمح لنا بالهرب!

فى الثامنة صباحًا وقعت حادثة لأول مرة. فجأة توقفت حركة الصعود و سألت مذهولاً عن هذه الصدمة:

- ما هذا؟

أجاب عمى:

- استراحة.

- هل هدأ الانفجار؟

- أرجو ألا يحدث ذلك.

وقفت لأتأمل المكان حولى. ربما تستند العوامة إلى صخرة. فى هذه الحالة يجب الهرب بسرعة. لكن لا يوجد صخرة. عجينة الحمم توقفت عن الصعود. سألت:

- هل توقف الانفجار؟

أجاب عمى و هو يضغط على أسنانه:

- آه! تخشى كل شىء يا بنى. يجب أن تتأكد أن التوقف لن يستمر كثيرًا. ربما خمسة دقائق فقط ثم نستمر فى الصعود إلى فتحة الفوهة.

فحص البروفوسير الكرونومتر و كان محقًا فى تخمينه. صعدت العوامة لمدة دقيقتين ثم توقفت مرة أخرى. قال عمى:

- حسنًا، بعد عشر دقائق سنعاود الصعود.

- عشر دقائق؟

- نعم، الانفجار يحدث بالتناوب فى هذ البركان، يترك لنا الفرصة لالتقاط الأنفاس.

فى اللحظة المحدودة عاودنا الصعود بسرعة شديدة حتى أننا تمسكنا بعوارض العوامة حتى لا نسقط. ثم توقف الصعود.

بحثت عن تفسير لهذه الظاهرة و لم أصل إلى شىء لكن يبدو لى أننا لسنا فى المدخنة الرئيسية للبركان لكن فى نفق جانبى حيث تكون ردود الأفعال عنيفة.

لا أعرف عدد مرات التوقف لكن فى كل مرة نندفع بقوة أكبر. نسعل أثناء فترات الاستراحة لكن فى لحظات الصعود نفقد القدرة على التنفس من الهواء الملتهب. فى هذه اللحظة تمنيت الحياة فى المناطق الجليدية حيث تنخفض الحرارة تحت الصفر بثلاثين درجة. حلمت بالوديان الجليدية و القرى العالية. حلمت بالتمرغ فوق الجليد فى القطب الشمالى. كدت ان أفقد توازنى عدة مرات تحت تأثير الأحلام لكن يد «هانز» كانت تنقذنى فى كل مرة.

لا أجد ذكريات ما حدث فى الساعات التالية. لا يوجد إلا هدير الكتل الصخرية و التفاف العوامة و التأرجح فوق سيل من الحمم و ألسنة النيران تحيطنا. ثم شعرت بالاعصار يدفعنا بقوة.

●●●

(٤٤)

عندما فتحت عينيى شعرت بيدى مربوطة بحزام المرشد القوى بينما اليد الأخرى يمسك بها عمى. لم تكن الجروح خطيرة لكنى أشعر كأن ضلوعى تحطمت. رأيت نفسى مستلقيًا فى سفح الجبل على بعد خطوتين من الحفرة التى خرجنا منها و علمت أن «هانز» أنقذ حياتى عندما تدحرجت من فتحة الفوهة. سأل عمى الذى بدا لى غاضبًا لعودته إلى سطح الأرض:

- أين نحن؟

هز المرشد أكتافه بما يعنى أنه يعرف.

قلت:

- فى أيسلندا.

قال المرشد:

- لا.

سأل عمى:

- لما لا؟

قلت و أنا أحاول النهوض:

- «هانز» على خطأ.

بعد الذهول و المفاجأت الكثيرة فى الرحلة كنت أتوقع قمة جليدية وسط الغابات الشمالية تحت أشعة الشمس القطبية الشاحبة. لكن الجبل مكسو بأشعة الشمس القوية الحارقة.

لا أصدق عينيى لكن هذه هى الحقيقة. خرجنا من الفوهة نصف عراة و الشمس التى حُرمنا منها لمدة شهرين تتلألأ و تشع الحرارة.

بعد أن اعتدت على الضوء بدأت الشرود فى الخيالات. أتمنى أن نكون قرب «سبتزبرج» و لا أرغب فى أى مكان آخر. قال البروفوسير:

- بالفعل المكان لا يشبه أيسلندا.

قلت:

- ربما جزيرة «جون مايون».

- لا يا بنى. هذا المكان لا ينتمى إلى البراكين الشمالية المعروفة بالكتل الجرانيتية و القمم الجليدية.

- ومع ذلك..

- انظر «أكسيل»، انظر.

فوقنا، على بعد خمسمائة قدم على الأكثر، توجد فوهة البركان التى تقذف بألسنة اللهب كل ربع ساعة. بدا لى الجبل مثل الحوت الذى يدفع المياه بقوة من خياشيمه. فى الأسفل يوجد منحدر متصلب مكسو بالمواد الملتهبة يتمدد إلى مسافة سبعمائة أو ثمانمائة قدم. القاعدة تختفى تحت أشجار خضراء مثل أشجار الزيتون و التين و الكروم و كلها مثمرة. ليست منطقة شمالية.

بعد هذه الخضرة يمتد البصر إلى مياه بحر صافى أو بحيرة مما يعنى أن اتساع هذه الجزيرة يصل إلى عدة فراسخ. عندما وقفت لمحت ميناء صغير عامر ببعض المنازل بينما السفن تتراقص فوق المياه الزرقاء. فى البعيد نلمح جزر كثيرة. من ناحية الغرب تمتد السهول حتى الأفق و نجد بعض الجبال الزرقاء فى انسجام مع الطبيعة. فى البعيد نلمح قمة مرتفعة يخرج منها الدخان. فى الشمال تمتد المياه تحت أشعة الشمس حيث نلمح بعض الأشرعة منتفخة بالرياح. دُهشت من هذه الروعة و هتفت: أين نحن؟ أين نحن؟.

ضيق «هانز» عينيه فى ذهول و عمى يتأمل المكان دون أن يفهم شيئًا ثم قال:

- مهما كان هذا الجبل فالحر شديد. البركان يستمر فى الإنفجار و نحن لم نخرج من الفوهة لنتلقى الصخور فوق رؤوسنا. نهبط و سنفهم كل شىء. أكاد أموت جوعًا و عطشًا.

البروفوسير محقًا فى قوله يجب الهبوط لاشباع حاجتنا الآدمية. لولا الحاجة لبقيت فى هذا المكان ساعات طويلة.

انحدار البركان وعر و خطير. انزلقنا على ممرات رأسية من الرماد لتجنب نهيرات الحمم التى تدور مثل ثعابين من النيران. أثناء ذلك كنت اتحدث كثيرًا لأن عقلى يموج بالأفكار. قلت:

- نحن فى آسيا، على الساحل الهندى، فى جزر ماليزيا وسط المحيط. لقد عبرنا نصف الكوكب.

سأل عمى بلهفة:

- أين البوصلة.

قلت ساخرًا:

- نعم، البوصلة. حسب البوصلة نتجه دائمًا نحو الشمال.

- هل البوصلة تكذب؟

- نعم تكذب.

- على الأقل ليس هذا القطب الشمالى.

- القطب! لا لكن...

يوجد ظاهرة غريبة لا أفهمها.

اقتربنا من المنطقة الخضراء المبهجة. أعانى الجوع و الظمأ. بعد ساعتين رأينا حقلاً مكسوًا بأشجار الزيتون و الرمان و الكروم. يبدو أنها ليست ملكًا لأحد. رغم ذلك تلفتنا حول أنفسنا لنتأكد من عدم وجود أحد. ثم شعرنا ببهجة كبيرة عند التهام الثمار. فى القريب لمحت مصدر للمياه النقية تحت ظلال الأشجار و ارتوينا.

عندما استلقينا للاستراحة ظهر بين أشجار الزيتون طفل فصرخت:

- أحد سكان القرية السعيدة.

صغير، فقير بملابس بائسة جدًا، و يبدو أنه خشى من هيأتنا. بالتأكد شكلنا مخيف، لحية طويلة و نصف عراة. من الممكن جدًا أن يعتبروننا لصوص. هم الصغير بالفرار لكن «هانز» أمسك به رغم صياحه. سأله عمى بالألمانية عن المكان. الصغير لا يرد. قال عمى:

- حسنًا، لسنا فى ألمانيا.

سأله بالفرنسية و لم يرد. اقترحت الإيطالية فأجاب الصغير:

- «سترومبولى».

جرى الصغير دون أن نهتم به. لم نتوقع هذا الاسم أبدًا. نحن فى وسط البحر المتوسط، وسط أرخبيل بحر إيجا، بحر الأساطير. و هذا البركان الذى يبدو فى الشمال هو بركان «إتنا». صرخ عمى:

- «سترومبولى»! «سترومبولى»!

رحلة مذهلة. دخلنا فى بركان لنخرج من بركان أخر والمسافة بينهما أكثر من ألف و مائتى فرسخ. فى هذه الرحلة مررنا تحت أجمل بلاد العالم. تركنا البلاد الجليدية إلى البلاد الخضراء والشاطئ اللازوردى فى صقلية.

بعد وجبة رائعة من الثمار و المياه الطازجة اتجهنا إلى ميناء «سترومبولى». حكينا للأهالى كيف جئنا إلى هنا و اعتبرونا كأننا عفاريت قادمين من عمق الجحيم. يجب التعامل معهم بحرص.

بعد أن اتخذنا طريقنا غمغم عمى:

- لكن البوصلة تشير إلى الشمال كيف ذلك؟

قلت مبتهجًا ساخرًا:

- لا يجب التفكير فى ذلك. الأمر بسيط.

خجل البروفوسير من جهله لتفسير هذه الظاهرة الغريبة.

بعـد أن تركنـا غابـة الزيتـون بسـاعة واحـدة وصلنـا إلـى مينـاء «سـان فيسـانزو» و هنـاك تلقـى «هانـز» أجـر الأسـبوع الثالـث عشـر و بـدا غيـر سـعيداً. ضغـط علـى أيدينـا بشـدة و أصبحـت خطواتـه ثقيلـة بعـد ذلـك.

●●●

(٤٥)

هـذا ملخـص رحلتنـا التـى أذهلـت الجميـع. أقدمهـا لكـم لأننـى أرغـب فـى تحصـين البشـرية مـن الشـكوك و المخـاوف. أقمنـا فـى حمايـة صياديـن صقليـة الذيـن تعاملـوا معنـا علـى أننـا غرقـى. منحونـا الملابـس و الطعـام. بعـد ثمانيـة و أربعـين سـاعة، يـوم ٣١ أغسـطس، اتجهنـا إلـى «ميسـين» و اسـترحنا لبضعـة أيـام.

الجمعـة ٤ سـبتمبر أبحرنـا إلـى الشـاطئ الفرنسـى و وصلنـا إلـى «مارسيليا» بعد ثلاثة أيام. لا يشغلنا إلا شىء واحد فقط هو البوصلـة الملعونـة. هـذا الأمـر يشـغلنى كثيـرًا. و عدنـا إلـى «هامبـورج» مسـاء ٩ سـبتمبر.

دُهشت «مارت» و سعدت «جروبن» ثم قالت:

- طالما أنك بطل يا خطيبى العزيز لا يجب أن تبتعد عنى.

كانت تضحك و تبكى.

شـعر كل أهالـى «هامبـورج» بعـودة البروفوسـير «ليدنبـروك». الخادمـة «مـارت» أشـاعت فـى البلـدة نبـأ رحلتـه إلـى مركـز الأرض و تـردد الخبـر فـى العالـم كلـه. لا أحـد يصـدق ذلـك. لـم يصدقـوا عيونهم عند عودتنا و لم يصدقوا قيامنا بهذه الرحلة. لكن وجود

«هانـز» و المعلومـات الكثيـرة التـى عرفوهـا منـه أثبتـت لهـم نجـاح رحلتنـا.

أصبح عمى مشهورًا و اشتهرت معه بصفتى ابن أخيه. أقامت «هامبـورج» احتفـالاً شـرفيًا لاسـتقبالنا. أقامـوا الاجتماعـات فـى جامعة «جوهانيوم» حيث قص البروفوسير تفاصيل الرحلة و أعلن دهشـته مـن البوصلـة. فـى هـذا اليـوم قـدم مخطـوط «ساكنوسـم» لمكتبـة البلديـة و أعلـن أنـه لـم يتمكـن مـن الوصـول إلـى مركـز الأرض إلا بفضـل معاونـه «هانـز» المرشـد الإيسـلندى. يجـب أن يشـاركه المجـد و الشـهرة.

أكد نظريتـه حـول الحـرارة الباطنـة و تحـاور مـع العلمـاء مـن كل أنحـاء العالـم.

بالنسبة لـى مـا زلـت أرفض نظريـة البـرودة و سـأظل علـى رأيـى رغـم كل مـا شـاهدته، لكنـى أعتـرف أن قوانـين الطبيعـة قـد تتغيـر فـى ظـروف معينـة.

رغـم كل هـذا النجـاح إلا أن عمـى يشـعر بالحـزن. لقـد رحـل «هانـز» و رفض الحصول على أجـر الأسـبوع الأخيـر. غادرنـا الرجل الـذى أنقـذ حياتنـا مـرات كثيـرة. أحببنـا صيـاد البـط الشـجاع.

نُشـرت مذكـرات «رحلـة إلـى مركـز الأرض» و ترجمـت إلـى كل لغـات العالـم و تحدثـت عنهـا كل الجرائـد و المجـلات و كل الدوريـات العلميـة و حصـل عمـى علـى الجوائـز الكثيـرة. لكـن يوجـد مشـكلة وسـط كل هـذا المجـد. البوصلـة الملعونـة. هـذا يزعـج عمـى كثيـرًا. يجـب علـى العالـم أن يجـد تفسـيرًا لهـذه الظاهـرة الغامضـة. لذلـك لـم تكتمـل بهجتـه.

فـى ذات يـوم، بينمـا كنـت أرتـب بعـض العينـات المعدنيـة فـى المكتبـة تأملت البوصلـة. موجـودة هنـا منـذ سـتة أشـهر دون أن يلتفت إليهـا أحـد. ذُهلـت، صرخـت أنـادى عمـى فسـألنى:

- ماذا بك؟

- البوصلة!..

- ماذا بها؟

- الإبرة تشير إلى الجنوب و ليس الشمال.

- ماذا تقول؟

- انظر! بدلت الاتجاه.

- تبدلت!

انفجر عمى فى الصياح حتى اهتزت أرجاء المنزل. ومضت الفكرة فى رأسه و فى رأسى أنا أيضًا. صرخ بعد أن رتب أفكاره:

- البوصلة تشير دائمًا إلى الجنوب بدلاً من الشمال منذ أن وصلنا إلى صخرة «ساكنوسم».

- نعم.

- لذلك أصبحت تضلنا. لكن ما الذى جعلها تبدل الأقطاب؟

- فسر لى يا بنى.

- أثناء عاصفة بحر «ليدنبروك» أصابتنا النيران، و من المؤكد أن هذه النيران مشحونة بالكهرباء و المغناطيسية و مغنطت الإبرة.

ضحك عمى:

- إنها الكهرباء إذًا.

عندما اكتشفنا الخطأ استكمل سعادته و استكملت سعادتى بالزواج من «جروبن».

●●●

كتب للمترجم:

- أفلاطون فى عصر الفضاء.
- زهرة الصحراء.
- القرصان.
- ١٢ قصة مهاجرة.
- أفكار متناقضة.
- الحلم.
- «كليوباترا»، أميرة الحب و الحرب.
- الطاعون.
- قرطاجنة.
- أساطير الهنود الحمر.
- أساطير الإغريق.
- «إسكندر»، عبقرى السيف و الفكر.
- «يوليوس قيصر»، العسكرى و السياسى.
- التسامح.

- مقدمة فى الفينومينولوجيا.
- حضارات أمريكا القديمة.
- حكايات البحر.
- تفسير الأحلام.
- قبل الإعدام.
- أكلة لحوم البشر.
- انتظار.
- حكايات الصيد.
- رحلة إلى مركز الأرض.

●●●

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر